بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: تفسير سورة الأنعام وهي مكية.

قال العوفيّ وعِكْرِمة وعَطاء عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أنزلت سورة الأنعام بمكة.

وروى الطبراني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح[1].

وقال السُّدِّي عن مُرَة عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: نزلت سورة الأنعام يشيِّعُها سبعون ألفًا من الملائكة[2].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه السورة -كما نقل القرطبي -رحمه الله- عن بعض أهل العلم- أصل في محاجّة المشركين وغيرهم من المبتدعين، ومن كذّب بالبعث والنشور، فهي تتحدث عن كثير من قضايا الاعتقاد.

وقد جاءت روايات كثيرة جداً عن جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- تدل وتصرح بأن هذه السورة قد نزلت جملة واحدة، ومع ذلك ورد عن بعض السلف استثناء جملة من الآيات، فمنهم من قال: ست آيات، ومنهم من قال: غير ذلك، كالثلاث الآيات المحكمات من قوله تعالى: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}** [(١٥١) سورة الأنعام] وكقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] وكقوله: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ}** [(١٤١) سورة الأنعام].

وبعض هؤلاء نظروا إلى المعنى الذي تضمنته بعض تلك الآيات، ومنهم من اعتمد في ذلك على ما يروى في سبب النزول، وسيأتي الكلام على هذه الآيات في مواضعها -إن شاء الله- لكن الأصل أن السورة قد نزلت جملة واحدة بمكة، والله تعالى أعلم.

{بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ* هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ* وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(١-٣) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى مادحاً نفسه الكريمة وحامداً لها على خلقه السماوات والأرض قراراً لعباده، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ "الظلمات" ووحَّد لفظ "النور"؛ لكونه أشرف، كقوله

---

[1] - أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٩٦٣) (ج ١٢ / ص ٢١٥) من طريق علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، انظر تخريج أحاديث وآثار كتاب الظلال لعلوي بن عبد القادر السَّقَّاف (ج ١ / ص ١١٩).

[2] - رواه الطبراني في الصغير (٢٢٠) (ج ١ / ص ١٤٥) وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو ضعيف، انظر مجمع الزوائد (ج ٦ / ص ٣٨٣).

تعالى: **{عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ}** [(٤٨) سورة النحل] وكما قال في آخر هذه السورة: **{وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ}** [(١٥٣) سورة الأنعام].

قوله تعالى: **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [(١) سورة الأنعام] عامة أهل العلم فسروا قوله: **{وَجَعَلَ}** بمعنى خلق، أي: خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور.

كما أن الذي عليه عامة أهل العلم -وهو ما مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أن الظلمات جمع ظلمة والمقصود بها ظلمة الليل وأن النور هو الضياء أي: ضياء النهار.

وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن الظلمات يراد بها الكفر، وأن النور يراد به الإيمان، وهذا على خلاف الأصل؛ فالأصل في استعمال الظلمات والمعنى المتبادر إلى الذهن أنها الظلمات الحقيقية كما قال ابن كثير، فالله تعالى يقول: **{الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [(١) سورة الأنعام] فذَكَر خلْقَ السماوات والأرض وذَكَر خلْقَ الظلمات وخلْقَ النور أي سواد الليل وبياض النهار.

ومن أهل العلم من جمع بين هذه المعاني فقال: إن الظلمات تشمل المعنيين جميعاً، وكذلك النور، فالله -عز وجل- قد سمى الهداية نوراً وسمى الكفر ظلمات كما في هذه السورة نفسها **{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ}** [(١٢٢) سورة الأنعام].

فالقرآن دلَّ على هذا المعنى ومعلوم أن اللفظ إذا أطلق وله حقيقة ومجاز أو كان مشتَركاً -بمعنى أنه يطلق على معانٍ متعددة- فإنه يمكن حمل المشترك على معنييه أو معانيه إن لم يوجد معارض، وهكذا يطلق على حقيقته ومجازه -عند القائلين بالمجاز- دون إشكال، ولذلك نجد من أهل العلم من يقول: إن هذين اللفظين يشملان هذه المعاني جميعاً، لكن عامة أهل العلم على المعنى الأول ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله تعالى-.

ثم يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم، فجمع لفظ "الظلمات" ووحَّد لفظ "النور"؛ لكونه أشرف**" لكن نجد أنه قد لا يظهر وجه إفراد النور لكونه أشرف -كما يقول الحافظ- وإنما يمكن أن يقال -كما قال بعض أهل العلم-: إن النور جنس، وهو يصدق على الواحد والكثير، وأما الظلمات فذكرت بصيغة الجمع لتنوعها وكثرة أسبابها، لا سيما إذا حملنا الآية على المعنى الثاني -أنها ظلمات الكفر ونور الإيمان- فيكون ذلك كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، كما أنه معلوم من كلام أهل العلم أن الصراط ذُكِر مفرداً؛ لأن طريق الله واحد كما قال تعالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] وأما الشيطان فله طرق متعددة كما قال تعالى: **{وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ}** [(١٥٣) سورة الأنعام].

وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه خط خطاً وخط خطين عن يمينه وخط خطين عن يساره ثم وضع يده في الخط الأوسط فقال: ((هذا صراط الله)) ثم تلا هذه الآية: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ}** [(١٥٣) سورة الأنعام][3].

---

[3] - أخرجه ابن ماجه في افتتاح كتاب السنن في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم- (١١) (ج ١ / ص ٦) وصححه الألباني في سنن ابن ماجه برقم (١١) وفي ظلال الجنة برقم (١٦).

والخلاصة أننا إذا حملنا الظلمات والنور في الآية على الكفر والإيمان فإنها تُفسَّر حينئذٍ بالآية والحديث السابقيْن ونقول: وحَّد لأن طريق الحق واحد، وجمع لأن طُرق الباطل متعددة، والطرق المحدثة والضلالات المتنوعة كلها داخلة في السبل، والله تعالى أعلم.

فإن قيل في قوله تعالى: **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [(١) سورة الأنعام]: لماذا قدم الله –تبارك وتعالى– ذكر الظلمات على النور؟ فالجواب –على المعنى الحقيقي الذي ذكره الجمهور في معنى الظلمات والنور– أن يقال: لما كان الظلام هو الأصل؛ بدليل قوله تعالى: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ}** [(٣٧) سورة يس] قدمه بهذا الاعتبار، لكن لا يصح هذا الجواب إذا اعتبر القول الثاني في تفسير الآية؛ فالأصل هو الإيمان وليس الكفر بدليل قوله –صلى الله عليه وسلم– في الحديث القدسي عن ربِّ العزة أنه قال: ((خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))[4].

ثم قال تعالى: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [(١) سورة الأنعام] أي: ومع هذا كله كفر به بعض عباده، وجعلوا معه شريكاً وعدلاً واتخذوا له صاحبةً وولدًا، تعالى الله –عز وجل– عن ذلك علوًا كبيرًا.

وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام] يعني: أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا، فانتشروا في المشارق والمغارب.

قوله: "**ومع هذا كله كفر به بعض عباده**.." يشير –رحمه الله– إلى أن "ثم" في هذا الموضع للاستبعاد، أي: كيف يقع منهم هذا الكفر الشنيع حيث يعدلون بربهم –تبارك وتعالى– الأنداد والأصنام مما لم تخلق شيئاً ولا تملك لهم نفعاً ولا ضراً وهو –جلَّ وعلا– الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور؟!!

وقوله: "**وجعلوا معه شريكاً وعدلاً**" من أهل العلم من لم يفرق بين العَدل –بفتح العين– والعِدل –بكسرها– وعلى هذا فلا إشكال.

ومن أهل العلم من فرَّق فقال: العَدل –بفتح العين– لما كان من غير جنسه، والعِدل لما كان من جنسه، ومن الأول قوله تعالى: **{أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ}** [(٩٥) سورة المائدة] فالصيام ليس من جنس ما وقع من جناية قتل الصيد ولذلك فتحت العين، وفي كفارة الظهار يقال أيضاً: عَدل رقبة –بفتح العين– لأنها ليست من جنس الموجِب أيضاً.

أما في كفارة قتل النفس فيقال: عِدل رقبة –بكسر العين–؛ لأنها من جنسه، ومنع قول مهلهل:

على أن ليس عِدلاً من كليب غداة بلابل الأمر الكبير

وهذا التفريق هو المشهور عند أهل العلم، والله أعلم.

قوله: "**وقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ} [(٢) سورة الأنعام] يعني: أباهم آدم**.." هذا هو الذي عليه عامة المفسرين سلفاً وخلفاً، فالذي خُلق من طين هو أبوهم آدم –صلى الله عليه وسلم– ولا مانع أن يخاطب الله –عز وجل– الناس بخطاب اعتُبر فيه أصلهم كما قال الله –تبارك وتعالى–: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ}** [(١١) سورة الأعراف] فهذا الخلق والتصوير هو خلق آدم –صلى الله عليه

---

4 – أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها – باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥) (ج ٤ / ص ٢١٩٧).

وسلم- لمّا أمر الملائكة بالسجود له، فباعتبار أصل الإنسان يقال: إنه خُلق من طين كما في هذه الآية **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ}** [(٢) سورة الأنعام].

ولا تعارض بين هذه الآية مع الآيات الأخرى التي ذكرت أن الإنسان خُلق من صلصال أو من تراب كما قال تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ}** [(٢٦) سورة الحجر] وكقوله: **{إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ}** [(١١) سورة الصافات] وما أشبه ذلك من الآيات؛ لأن هذا الطين هو تراب بُلَّ بالماء فصار طيناً ثم تُرك فصار حمأً مسنوناً، فكل ذلك يصدق عليه، فلا تعارض بين هذه الآيات حيث إن ذلك كله يعود إلى الأصل، والمقصود أن هذا خطاب للأبناء بأمر اعتبر فيه أصلهم وهو كقوله -عز وجل- مخاطباً بني إسرائيل: **{يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ}** [(٤٧) سورة البقرة] وكقوله -عز وجل-: **{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ}** [(٤٩) سورة البقرة] ويقول أيضاً: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ}** [(٥٥) سورة البقرة] ويقول: **{وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ}** [(٦١) سورة البقرة].

لقد خاطبهم -تبارك وتعالى- بهذا الأسلوب مع أن الذين قالوا وفعلوا هذه الأمور هم أسلافهم وليسوا الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- ولكن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء والنِّقَم الحالَّة بالآباء تلحق الأبناء إن كانوا على طريقتهم، والمقصود أن الخطاب في قوله تعالى: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ}** [(٢) سورة الأنعام] جاء هكذا بهذا الاعتبار.

وبعض أهل العلم نظر إلى ظاهر الخطاب فقال: إنه قال: **{خَلَقَكُم مِّن طِينٍ}** [(٢) سورة الأنعام] باعتبار أن أصل النطفة من الطين، إلا أن هذا القول فيه بُعد، فلا حاجة إليه، والله أعلم.

وقوله: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] قال سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً} يعني الموت {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} يعني الآخرة، وهكذا رُوي عن مجاهد، وعِكْرِمة، وسعيد بن جُبَيْر، والحسن، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم، وعطية، والسُّدِّي، ومُقاتِل بن حَيَّان، وغيرهم.

يقول تعالى: **{ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ}** [(٢) سورة الأنعام] الأجل الأول هو الموت والأجل الثاني هو القيامة، وهذا المعنى هو من أحسن ما تفسر به هذه الآية -والله تعالى أعلم- وهذا هو الذي مشى عليه عامة أهل العلم ومنهم كبير المفسرين ابن جرير، وبعضهم يقول: الأجل الأول هو ما بين أن يُخلق الإنسان إلى أن يموت، والأجل الثاني ما بين أن يموت إلى أن يبعث، يعني أن الأجل الأول هو حياة الإنسان في الدنيا، والأجل الثاني هو الحياة البرزخية، وهذا القول لا دليل عليه.

وبعضهم يقول: الأجل الأول قبض الأرواح في النوم، والأجل الثاني قبض الأرواح عند الموت أي كقوله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ}** [(٦٠) سورة الأنعام] وكقوله: **{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى}** [(٤٢) سورة الزمر].

وبعضهم يقول: الأجل الأول هو ما أجله ووقته في الدنيا مما أعلم به خلقه وأظهره لهم، كالأهلّة التي جعلها مواقيت لهم والمطالع ومنازل الشمس والقمر وما أشبه ذلك، والأجل الثاني هو أجل الموت، وهذا أيضاً فيه بعد.

وبعضهم يقول: قوله: **{قَضَى أَجَلاً}** [(٢) سورة الأنعام] يعني لمن مضى وقوله: **{وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ}** [(٢) سورة الأنعام] أي في الباقين ممن سيأتون حيث تأتيهم آجالهم يعني الموت الذي ينتظرهم.

وبعضهم يقول: الأول في الأجل المحتوم، والثاني في الزيادة عليه كما فُسِّر بذلك قوله -تبارك وتعالى-: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [(٣٩) سورة الرعد] وهذا باعتبار أن التقدير أنواع كما هو معلوم، فهناك التقدير الأزلي الذي هو في علم الله -عز وجل- وقد كتبه في اللوح المحفوظ، فهذا لا يحصل له محو ولا تغيير، وهناك -كما يقول بعض أهل العلم-: التقدير العمري حينما يُبعث المَلك إلى الجنين فيؤمر بأربع كلمات، وهناك التقدير الحولي في ليلة القدر، قال تعالى: **{فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ}** [(٤) سورة الدخان].

والحاصل أن الذي يحصل فيه التغيير هو ما في أيدي الملائكة كما قال تعالى: **{يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ}** ثم قال: **{وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}** [(٣٩) سورة الرعد] يعني اللوح المحفوظ، ومن هنا قالوا: الأجل الأول هو ما قضاه وقدره يوم خلق حين خلق السماوات والأرض في اللوح المحفوظ ومثل هذا لا يتبدل ولا يتغير، والأجل الثاني هو الذي يحصل به الزيادة والنقص، كما دل على ذلك ما ورد عن صلة الرحم أنها تزيد في العمر وأنه لا يرد القضاء إلا الدعاء[5] فيكون الله -عز وجل- قد كتب في الصحف التي بأيدي الملائكة أن عمر هذا خمسون سنة، وكتب وقدَّر في علمه أن هذا الإنسان يصل الرحم فزيد في عمره إلى ستين مثلاً، فيحصل المحو في الصحف التي بأيدي الملائكة ويزاد العمر بهذا الاعتبار.

وعلى كل حال فإن أحسن هذه الأقوال هو الأول -كما سبق، والله أعلم، ومن أحسن مَن عبَّر عن المعنى الأول الذي عليه الجمهور كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: "معناه ثم قضى أجل الحياة الدنيا وأجلٌ مسمى عنده وهو أجل البعث؛ لأنه -تعالى ذكره- نبه خلقه على موضع حجته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس إن الذي يعدل به كفاركم الآلهة والأنداد هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صوراً أجساماً أحياء بعد إذ كنتم طيناً جماداً، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم ليعيدكم تراباً وطيناً كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم، وأجلٌ مسمىً عنده؛ لإعادتكم أحياءً وأجساماً كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: **{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [(٢٨) سورة البقرة]"[6] هذا أحسن ما تفسر به الآية، والعلم عند الله -عز وجل-.

---

5 - عن أبي هريرة وأنس بن مالك -رضي الله عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه)) [أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٥٦٣٩) (ج٥ / ص ٢٢٣٢) ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٧) (ج ٤ / ص ١٩٨٢)، ومعنى قوله: ((يُنسأ له في أثره)) يعني يمد له في عمره ويؤخر أجله ويخلد ذكره.

وعن سلمان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر)) [أخرجه الترمذي في كتاب القدر- باب ما جاء في "لا يرد القدر إلا الدعاء" (٢١٣٩) (ج ٤ / ص ٤٤٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٨٩).

6 - انظر تفسير الطبري (ج ١١/ ص ٢٥٩).

وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد: {ثُمَّ قَضَى أَجَلاً} [(٢) سورة الأنعام] يعني مدة الدنيا {وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] يعني عمر الإنسان إلى حين موته، وكأنه مأخوذ من قوله تعالى بعد هذا: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} الآية [(٦٠) سورة الأنعام].

ومعنى قوله: {عِندَهُ} [(٢) سورة الأنعام] أي: لا يعلمه إلا هو، كقوله: {إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ} [(١٨٧) سورة الأعراف] وكقوله: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا* فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا* إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا} [(٤٢-٤٤) سورة النازعات].

وقوله: {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [(٢) سورة الأنعام] قال السُّدِّي وغيره: يعني تشكُّون في أمر الساعة.

لفظة "ثم" في قوله: {ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ} [(٢) سورة الأنعام] هي أيضاً للاستبعاد، يعني ومع هذا كله يحصل منكم هذا الامتراء والشك، وفرق بين المرية والشك حيث إن المرية هي بمعنى الشك لكن مع ريب، والله أعلم.

وقوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] أي: هو المدعو "الله" في السماوات وفي الأرض، أي: يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السماوات ومن في الأرض، ويسمونه الله، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [(٨٤) سورة الزخرف] أي: هو إلهُ مَنْ في السماء وإلهُ من في الأرض، وهو الله {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] أي: جميع أعمالكم خيرها وشرها.

هذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- وحام حوله هو أجود ما تفسر به الآية والله أعلم، وهو الذي عليه عامة المحققين من أهل العلم من المفسرين وغيرهم، أعني قوله: "أي: **يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السماوات ومن في الأرض، ويسمونه الله**" يعني يعبده أهل السماء ويعبده أهل الأرض.

وقوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] يعني ومن صفته أنه يعلم ما تسرون وما تعلنون.

ومن أهل العلم من قال: قوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] يعني وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض، وهذا المعنى اختاره بعض أهل العلم، وقال النحاس: إن هذا هو الوجه في تفسيرها وأحسن ما قيل في معناها، لكنه لا يساعد عليه ظاهر السياق، أي ليس هذا هو المعنى المتبادر من الآية، والله تعالى أعلم.

وذهبت طائفة من أهل العلم -ومنهم كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- إلى أن قوله: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ} [(٣) سورة الأنعام] يعني وهو المألوه في السماوات، ثم وقفٌ تام، ثم تبدأ جملة جديدة: {وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [(٣) سورة الأنعام] فيكون قوله: {وَفِي الأَرْضِ} متعلقاً بما بعده وليس معطوفاً على ما قبله، وهذا المعنى وإن كانت تحتمله الآية إلا أن المعنى الأول أقرب منه، وقد وهَّن هذا القول الإمام ابن القيم -رحمه الله- وقال: قال بعض المتسننة: إن المعنى كذا وكذا.. ثم رده وضعفه.

والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- له كلام في هذه الآية وفيه أشياء مفيدة يحسن الوقوف عليها،

كلام الشنقيطي في الآية:

قال الشيخ محمد الأمين -رحمه الله- تعالى:

"قوله تعالى: {ثُمَّ الَّذينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ} [(١) سورة الأنعام]، في قوله تعالى {يَعْدِلُونَ} وجهان للعلماء:
أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف والميل عنه، وعلى هذا فقوله: {بِرَبِّهِمْ} متعلق بقوله: {كَفَرُواْ} وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا بربهم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن (الباء) بمعنى (عن) أي: يعدلون عن ربهم فلا يتوجهون إليه بطاعة ولا إيمان.
وثانيهما: أن الباء متعلقة بيعدلون، ومعنى يعدلون يجعلون له نظيراً في العبادة، من قول العرب: عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً، ومنه قول جرير:

أثعلبة الفوارس أم رياحاً ... عدلتَ بهم طهية والخشابا

يعني: أجعلت طهية والخشاب نظراء وأمثالاً لبني ثعلبة وبني رياح؟
وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٩٧-٩٨) سورة الشعراء] وقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [(١٦٥) سورة البقرة].
وأشار تعالى في آيات كثيرة إلى أن الكفار ساووا بين المخلوق والخالق -قبحهم الله تعالى- كقوله: {أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [(١٦) سورة الرعد] وقوله: {أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ} [(١٧) سورة النحل] وقوله: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ} [(٢٨) سورة الروم] إلى غير ذلك من الآيات.
وعدْل الشيء في اللغة مثله ونظيره، قال بعض علماء العربية: إذا كان من جنسه فهو عِدل -بكسر العين- وإذا كان من غير جنسه فهو عَدل -بفتح العين- ومن الأول قول مهلهل:

على أن ليس عِدلاً من كليب ... غداة بلابل الأمر الكبير

يعني أن القتلى الذين قتلهم من بكر بن وائل بأخيه كليب الذي قتله جسَّاس بن مرة البكري لا يكافئونه ولا يعادلونه في الشرف.
ومن الثاني قوله تعالى: {أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا} [(٩٥) سورة المائدة] لأن المراد نظير الإطعام من الصيام وليس من جنسه، وقوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ} [(٧٠) سورة الأنعام] وقوله: {وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ} [(١٢٣) سورة البقرة] والعَدل الفداء؛ لأنه كأنه قيمة معادلة للمفدى تؤخذ بدله.
قوله تعالى: {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهرَكُمْ} الآية [(٣) سورة الأنعام] في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه للعلماء من التفسير وكل واحد منها له مصداق في كتاب الله تعالى:
الأول: أن المعنى {وَهُوَ اللّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} أي: وهو الإله المعبود في السماوات وفي الأرض؛ لأنه -جل وعلا- هو المعبود وحده بحق في الأرض والسماء، وعلى هذا فجملة (يعلم) حال أو خبر، وهذا المعنى يبينه ويشهد له قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاء إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [(٨٤) سورة الزخرف] أي: وهو المعبود في السماء والأرض بحق ولا عبرة بعبادة الكافرين غيره؛ لأنه وبال عليهم يخلدون بها في النار الخلود الأبدي، ومعبوداتهم ليست شركاء لله -سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً- {إِنْ هِيَ إِلَّا

أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [(٢٣) سورة النجم] {وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ شُرَكَاء إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [(٦٦) سورة يونس] وهذا القول في الآية اظهر الأقوال، واختاره القرطبي.

الوجه الثاني: أن قوله: {فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ} يتعلق بقوله: {يَعْلَمُ سِرَّكُمْ} [(٣) سورة الأنعام] أي وهو الله يعلم سركم في السماوات وفي الأرض، ويبيّن هذا القول ويشهد له قوله تعالى: {قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [(٦) سورة الفرقان] قال النحاس: وهذا القول من أحسن ما قيل في الآية، نقله عنه القرطبي.

الوجه الثالث: وهو اختيار ابن جرير، أن الوقف تام على قوله: {فِي السَّمَاوَاتِ} وقوله: {وَفِي الأَرْضِ} يتعلق بما بعده، أي: يعلم سركم وجهركم في الأرض، ومعنى هذا القول أنه -جل وعلا- مستوٍ على عرشه فوق جميع خلقه مع أنه يعلم سرَّ أهل الأرض وجهرهم لا يخفى عليه شيء من ذلك.

ويبين هذا القول ويشهد له قوله تعالى: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ* أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [(١٦-١٧) سورة الملك] وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [(٥) سورة طـه] مع قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} [(٤) سورة الحديد] وقوله: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} [(٧) سورة الأعراف] وسيأتي إن شاء الله تحقيق هذا المقام بإيضاح في سورة الأعراف.

واعلم أن ما يزعمه الجهمية -من أن الله تعالى في كل مكان مستدلين بهذه الآية على أنه في الأرض- ضلالٌ مبين وجهل بالله تعالى؛ لأن جميع الأمكنة الموجودة أحقر وأصغر من أن يحل في شيء منها رب السماوات والأرض الذي هو أعظم من كل شيء، وأعلى من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، فالسماوات والأرض في يده -جل وعلا- أصغر من حبة خردل في يد أحدنا، وله المثل الأعلى، فلو كانت حبة خردل في يد رجل فهل يمكن أن يقال: إنه حالٌّ فيها، أو في كل جزء من أجزائها؟ حاشا وكلا، هي أصغر وأحقر من ذلك.

فإذا علمت ذلك فاعلم أن رب السماوات والأرض أكبر من كل شيء وأعظم من كل شيء، محيط بكل شيء ولا يحيط به شيء، ولا يكون فوقه شيء {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٣) سورة سبأ].

سبحانه وتعالى علواً كبيراً، لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} [(١١٠) سورة طـه] "[٧].

---

[7] - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ج ١ / ص ٤٦٩ - ٤٧١) لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى عام ١٣٩٣هـ ط: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت -لبنان- ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ* فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٤-٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المكذبين المعاندين: إنهم مهما أتتهم من آية أي: دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها.

قال الله تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(٥) سورة الأنعام] وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ولَيجدُنَّ غبّه وليذوقُنَّ وَباله.

ثم قال تعالى واعظاً ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حلَّ بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشدَّ منهم قوة، وأكثر جمعاً، وأكثر أموالاً وأولاداً واستغلالاً للأرض وعمارة لها، فقال: {أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} [(٦) سورة الأنعام] أي: من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فالقرن: هم أهل الزمان الواحد -أعني المتعاصرين- وسمُّوا بذلك لاقتران بعضهم ببعض، وإن كان أهل العلم يختلفون في تحديد ذلك في المدة الزمانية، هل القرن يكون مائة سنة أو ثمانين أو ستين أو خمسين أو سبعين، أو غير ذلك، فالحاصل أن أهل العلم اختلفوا في تحديده، وتكلموا على هذه المسألة عند قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((خير الناس قرني))[1].

يقول -تبارك وتعالى-: **{أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ}** [(٦) سورة الأنعام] هذه الآية وأمثالها يردُّ بها على الخرّاصين الذين يقولون: إن الإنسان حينما جاء إلى هذه الدنيا جاء بصورة بدائية تماماً ولا زالت الأجيال والقرون تتطور كما هو زعم أصحاب نظرية التطور الذين منهم من يقول: أصل الإنسان قرد ثم تطور، وهذه النظرية وإن اغتر بها من اغتر في القرن الماضي إلا أن الكفار الذين جاءوا بها -وقلدهم بعض المنتسبين إلى الإسلام- أسقطوها، ولهذه النظرية فروع ومن فروعها القول

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الشهادات- باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٥٠٩) (ج ٢ / ص ٩٣٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣) (ج ٤ / ص ١٩٦٢).

بأن الأجيال المتعاقبة تطورت، ومن فروعها تسمية بعض العصور المتقدمة بأسماء يزعمون أنها كانت موجودة، كالعصر الحجري والعصر البرونزي وغير ذلك، وهذا كله كذب لا صحة له؛ فالله تعالى خلق آدم على أكمل صورة وعلمه الأسماء كلها وأسجد له ملائكته، وكان في أحسن حال، وهكذا جاءت الأمم من نسله، ومن تلك الأمم وجدت أمم ممكّنة لا زال الناس يتحيرون فيما وجد من آثارها مما لا يعرفه أهل هذا الزمان، وآثارهم شاهدة ومنها آبار عجيبة جداً قد لا يجدون تفسيراً للإمكانات التي حفرتها حتى قالوا: إن هذا من عمل الجن الذين سخرهم الله -عز وجل- لسليمان.

ومن آثار الأمم السابقة تلك الجبال التي نُحتت وحوّلت إلى بيوت مما لم يصل إليه أهل هذا العصر وعليها نقوش دقيقة من طيور وغيرها.

ومن الآثار كذلك هذه الأهرام العجيبة التي لا يمكن نقل صخورها واستجلابها من أماكن بعيدة عن طريق الحيوانات والأشياء البسيطة ولا يمكن أن يرفعها الإنسان حتى توضع في مواضعها إلا بطرق لم يتوصل إليها أهل هذا العصر!

فهذه أمم ممكَّنة أخبر الله -عز وجل- عنها فقال: {مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ} [(٦) سورة الأنعام] وهذا كله يدل على بطلان قول المتخرصين الذين يعيشون في وهم كبير ويقولون: إن الناس قد تطوروا ووصلت بهم الحال إلى هذا العصر.

ومن فروع نظرية التطور الزعم بأن الناس تطوروا في العبادة، وذلك أن مبدأ الإنسان كان من ملايين السنين -وهذا كله كذب- وأول ما بدأ لم يكن يعرف شيئاً وهكذا شيئاً فشيئاً حتى صار يخاف من الطبيعة ثم صار يعبد الطبيعة، ثم بدأ يتعلم الشعوذة والسحر فجاءت عصور السحر، ثم صارت عبادة الجن ثم عبادة الملائكة، وهكذا شيئاً فشيئاً حتى عبد الله، ثم يقولون: أصبح الإنسان الآن هو الله؛ لأنه استطاع أن يسيطر على الطبيعة وأن يقهرها فلم يعد الإنسان بعد ذلك بحاجة إلى معبود يلجأ إليه ويلوذ به؛ لأنه كان يجهل هذه الطبيعة ولا يعرف تفسيراً لكثير من الظواهر فكان يلجأ إلى اختراع عبادة أو معبود أو إله يطلب منه الحماية، أما الآن فلا حاجة إلى ذلك!!

والحق أن الله -عز وجل- خلق آدم وجعله نبياً يعبد الله حيث أنزله من الجنة إلى الأرض وبقي الناس عشرة قرون على التوحيد، ثم جاءت الرسل بهذا الأمر وتتابعوا عليه.

ولهذا قال: {وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا} [(٦) سورة الأنعام] أي: شيئًا بعد شيء {وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ} [(٦) سورة الأنعام] أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض، أي استدراجًا وإملاء لهم.

{فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ} [(٦) سورة الأنعام] أي: بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها {وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٦) سورة الأنعام] أي: فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث.

{وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [(٦) سورة الأنعام] أي: جيلاً آخر لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فأُهلكوا كإهلاكهم.

فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه.

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ* وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ* وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ* وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ* قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(٧-١١) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ} [(٧) سورة الأنعام] أي: عاينوه، ورأوا نزوله وباشروا ذلك {لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} [(٧) سورة الأنعام] وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ} [(١٤-١٥) سورة الحجر] وكقوله تعالى: {وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاء سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ} [(٤٤) سورة الطور].

كان المشركون يقترحون الآيات على النبي -صلى الله عليه وسلم- ومما قالوا له: إنهم لن يؤمنوا حتى يرقى في السماء ويأتيهم بكتاب من عند الله كما في سورة الإسراء **{وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ}** [(٩٣) سورة الإسراء] فالله -عز وجل- ردّ على قولهم ذلك قائلاً: **{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}** [(٧) سورة الأنعام] يعني مكتوباً في قرطاس **{فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ}** [(٧) سورة الأنعام] وذلك أبلغ ما يكون من الإحساس، لكذبوا ولكابروا، وهذا كما قال الله -عز وجل-: **{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ* لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ}** [(١٤-١٥) سورة الحجر] وفي القراءة الأخرى: **(سُكِرَتْ)** يعني سُدَّت، يعني لو رأوا باباً مفتوحاً إلى السماء فظلت الملائكة تعرج أمامهم -على أحد القولين في تفسير الآية- لقالوا: نحن قد سُحِرنا.

وعلى القول الآخر لو فتح هذا الباب لهم وصاروا يعرجون إلى السماء لقالوا: إنما سكِّرت أبصارنا، وذلك على سبيل المكابرة لا على ما يقوله أصحاب الإعجاز العلمي بأنهم يصلون إلى ظلمة بعد الغلاف الجوي فيقولون: سكرت أبصارنا، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً والآيات الأخرى كلها تدل على أنه مهما جاءهم من الآيات فإنهم يكذبون ويكابرون كما قال تعالى: **{وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا}** [(٥٩) سورة الإسراء] وسيأتي بيان ذلك أيضاً عند قوله تعالى: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [(٩) سورة الأنعام].

والحاصل أنهم يقترحون أن يكون الرسول إليهم ملَكاً والله -عز وجل- يقول: **{وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ}** [(٨) سورة الأنعام] يعني أنهم لن يؤمنوا به وسيأتيهم العذاب بسبب تكذيبهم، والله تعالى أعلم.

{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [(٨) سورة الأنعام] أي: ليكون معه نذيراً.

قال تعالى: **{وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ}** [(٨) سورة الأنعام] أي: ليكون معه نذيراً كما قال الحافظ -رحمه الله- بمعنى أنهم يريدون أن يكون معه ملك يشهد بما جاء به ليكون معيناً ومقوياً له ومصدقاً لكلامه، كما قال الله -عز وجل- في الآية الأخرى التي تفسر مرادهم بطلب الملَك حيث قال تعالى: **{وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا}** [(٧) سورة الفرقان].

قال الله تعالى: {وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ} [(٨) سورة الأنعام] أي: لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب، كما قال الله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَا كَانُواْ إِذًا مُّنظَرِينَ} [(٨) سورة الحجر] وقوله: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ} الآية [(٢٢) سورة الفرقان].

وقوله تعالى: {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [(٩) سورة الأنعام] أي: ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيّ ملكًا، أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكيًا لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه.

ليس بالضرورة أن يكون المراد بقوله: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً}** [(٩) سورة الأنعام]: لو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً، كما يقول الحافظ -رحمه الله-؛ وذلك أنهم ربما كانوا يعتقدون أن الرسل لا تكون إلا من الملائكة، ولهذا قالوا لأقوامهم: **{إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا}** [(١٠) سورة إبراهيم] يعني أنهم نزّلوا المعلوم منزلة المجهول، يعني أن المعلوم لا يحتاج إلى تأكيد فجاءوا به بأسلوب الحصر لمعنىً وهو أن ذلك وقع جرياً على اعتقادهم بأن الرسول لا بد أن يكون ملائكياً مع أن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يعرفون أنهم بشر وهم لم يقولوا: نحن لسنا من البشر، فالله -عز وجل- ردَّ عليهم فقال: **{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً}** [(٩) سورة الأنعام] أي: لجعلناه رجلاً يستطيعون الأخذ عنه؛ لأنهم لا يطيقون التلقي من ملك بل ولا رؤية الملك على صورته الحقيقية، وحتى لو أطاقوا رؤيته فإن كل ما يعمله هذا الملك لا تحصل به الأسوة والقدوة؛ لأنه منزوع الشهوات وهو في خلق آخر يختلف تماماً عن خلقهم حيث إنه خُلق من نور وليس فيه النزعة الطينية التي تشده إلى الأرض، ثم إن الناس اليوم إذا قيل لهم: اقتدوا بالصحابة في كذا وكذا قالوا: هؤلاء صحابة وأين نحن منهم حتى نقتدي بهم في كل شيء -مع أن الصحابة بشر مثلهم- فكيف سيكون الحال إذا طُلب منهم الاقتداء بملك من الملائكة؟!

قال تعالى: **{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [(٩) سورة الأنعام] أي: إذا كانوا يلبسون على أقوامهم وعلى الناس بأن الرسول لا بد أن يكون ملائكياً، أو لا بد أن يأتي معه ملك يشهد على رسالته، فالله -عز وجل- يقول: لو نزلناه ملكاً، لجعلناه في صورة رجل ولخلطنا عليهم الأمر فوقع لهم الالتباس هل هذا ملك أو بشر؟.

ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري.

وهذا أحد المعنيين في قوله: **{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ}** [(٩) سورة الأنعام] فالمعنى الأول أنهم يلبسون على الناس -كما سبق- والمعنى الثاني أي ما يلبسون على أنفسهم.

كقوله تعالى: {قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [(٩٥) سورة الإسراء] فمن رحمته تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعو بعضهم بعضاً وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال كما قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ} الآية [(١٦٤) سورة آل عمران].

ومن أشباه هذه الآية قوله -تبارك وتعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}** [(٢) سورة الجمعة] فهو يمتن -تبارك وتعالى- على عباده أن أرسل إليهم رسولاً بشرياً منهم ليكون مُشاكِلاً لأحوالهم يستطيعون التلقي والفهم عنه بخلاف ما لو أرسل إليهم فيلسوفاً -مثلاً-

فإنهم لن يعرفوا لغته ولن يفهموا عنه ولن يعقلوا ما يقول وما يأمرهم به، لكن لما أرسل إليهم رسولاً أميًّاً وهم في أمة أمية كان ذلك أدعى للقبول والفهم، إضافة إلى ما في ذلك من تحقيق المعجزة وتصديق بشارات الأنبياء.

قال الضحاك عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في الآية، يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور.

{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ} [(٩) سورة الأنعام] أي: ولخلطنا عليهم ما يخلطون، وقال الوالبي عنه -رضي الله تعالى عنهما-: ولشبهنا عليهم.

وقوله: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [(١٠) سورة الأنعام] هذه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب من كذبه من قومه ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: {قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [(١١) سورة الأنعام] أي: فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية -الذين كذبوا رسله وعاندوهم- من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادَّخَر لهم من العذاب الأليم في الآخرة وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنين.

يقول الله -تبارك وتعالى-: **{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}** [(١٠) سورة الأنعام].

قصَّ الله -عز وجل- علينا في القرآن الكريم أخبار الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وما وقع من استهزاء أقوامهم بهم وكيف كانت عاقبتهم ابتداءً من نوح -عليه الصلاة والسلام- حيث سخروا منه وقالوا: كنت نبياً ثم أصبحت نجاراً، فقال لهم -عليه الصلاة والسلام-: **{إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ}** [(٣٨) سورة هود] ثم ذكر -تبارك وتعالى- عاقبتهم وما حصل لهم من الغرق.

وهكذا قصَّ علينا ما حصل لهود -عليه الصلاة والسلام- إذ قال له قومه: **{مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ}** [(٥٣) سورة هود].

وسخروا من صالح -عليه الصلاة والسلام- وقالوا: **{قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا}** [(٦٢) سورة هود] فعلى أحد المعاني: كنا نرجو عقلك ورأيك فالآن ما الذي أصابك؟ وعلى المعنى الآخر كنت مبعداً ليس لك شأن، فكيف جئتنا تنهانا عن عبادة آلهتنا؟

وقال تبارك وتعالى عن قوم شعيب -عليه الصلاة والسلام- الذين استهزءوا به: **{قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ}** [(٩١) سورة هود].

وهكذا قوم لوط -عليه الصلاة والسلام- لما نهاهم عن الفاحشة استهزءوا به وقالوا: **{أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}** [(٥٦) سورة النمل].

وأما فرعون فخبره -كما قال الله -عز وجل- عنه- أنه قال لموسى -صلى الله عليه وسلم-: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ* فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاء مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ}** [(٥٢-٥٣) سورة الزخرف].

والمقصود أن هؤلاء الأقوام والأمم كانوا كلما جاءهم نبي استهزءوا به فوقع لهم ما وقع من الهلاك والاستئصال.

وأما قوله: **{قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}** [(١١) سورة الأنعام] –وأمثال هذه الآية التي تدعو إلى السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين– فهو خطاب يتوجه لمن عنده شك وتردد وريب وليس دعوة لجميع الناس.

والنظر في دلائل وحدانية الله –عز وجل– على نوعين: فمن الناس من يصل إلى مرتبة عالية جداً حيث يستدل بالله –تبارك وتعالى– وبما عرف عن ربه –جل جلاله– من أسمائه وصفاته على كثير مما يجري حوله كما قالت خديجة –رضي الله تعالى عنها–: "كلا، والله لا يخزيك الله، فإنك تصل الرحم وتحمل الكلَّ.." إلى آخر ما ذكرت[٢]، فهي من خلال معرفتها لأوصاف ربها –جل جلاله– عرفت أنه لا يخزي من كان هذا خلقه وتلك أوصافه.

إن استدلال المرء بما عرف من أوصاف المعبود على أمور يراها ويشاهدها وتقع له أو لغيره هذه طريقة عالية في الاستدلال، وهي طريقة لا يصل إليها كثير من الناس، وإن كانت من طرق الاستدلال تلك الطريقة الدارجة التي هي أكثر ما ورد في القرآن، أعني الاستدلال بالمخلوقات على الخالق، ولهذا ذكر الله –عز وجل– خلق السماوات والأرض وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس إلى غير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية، وهذه الطريقة هي التي تصلح لعامة الناس وأكثر الخلق، فإذا نظروا في هذا دلّهم على إله واحد عظيم قادر –سبحانه وتعالى–.

والمقصود أن من احتاج إلى النظر في هذه الأمور من آثار الأمم المكذبة وكيف أهلكهم الله –عز وجل– وما أشبه ذلك وجه إليه مثل هذا الخطاب: **{قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ}** [(١١) سورة الأنعام] أما من كان لا يحتاج إلى هذا النظر باعتبار أن هذه قضايا متقررة عنده فلا يتوجه إليه هذا الخطاب، ولذلك فإن أبا بكر الصديق –رضي الله عنه– وأمثاله يقولون:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وبهذا نعرف خطأ المتكلمين الذين يستدلون بمثل هذه الآية على أن أول واجب على المكلف هو النظر، بل قال بعضهم: أول واجب على المكلف هو الشك –نسأل الله العافية– فهذا من أبطل الأقوال، وإنما أول واجب هو التوحيد وهو قول: لا إله إلا الله كما قال تعالى: **{فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ}** [(١٩) سورة محمد] وأما هذه الآيات التي أُمر الناس فيها بالنظر فتكون لمن كان شاكاً متردداً حيث يقال لهم: انظروا، وسيروا في الأرض، يعني من أجل أن يرتفع عنهم هذا اللبس والشك والتردد إذا وقفوا على الحقيقة بأنفسهم، ولذلك لا يطلب من الناس أن يذهبوا ليتتبعوا أماكن المعذبين، بل لا يُقَرُّون على ذلك لا سيما من يذهبون من أجل الفرجة فإن هذا غير مشروع؛ ويدل على ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– لما مرَّ على ديار ثمود أسرع –عليه الصلاة

---

[2] – أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (٣) (ج ١ / ص ٤) ومسلم في كتاب الإيمان – باب بدء الوحي إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (١٦٠) (ج ١ / ص ١٣٩).

والسلام- وقال لمن معه: ((لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم))[3] ونهى أن يُشرب من آبارهم إلا بئر الناقة، ولما مرَّ عليٌّ -رضي الله عنه- بأرض الخسف من بابل أسرع وتلثم.

والمكان المعروف بمحسِّر بين مزدلفة ومنى الذي أسرع النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر به يقال: إنه مكان إهلاك الفيل، وإن كان هذا لا يثبت من الناحية التاريخية، والله أعلم.

والمقصود أن الإنسان لا يقصد هذه الأماكن للفرجة ولا للزيارة ولا حتى للنظر فيها احتجاجاً بمثل هذه الآيات؛ لأنه كما قلنا: هذا الخطاب إنما يتوجه للمترددين للشاكين أما من يقول: هذه قضايا أوضح من أن أبحث عن أدلة لها فلا حاجة له بها، والله أعلم.

{قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِلّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ* قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ* مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [(١٢-١٦) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الله لما خَلَقَ الخَلْقَ كتب كتابًا عنده فوق العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي))[4].

وقوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] هذه اللام هي الموطئة للقسم، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده.

يقول تعالى: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(١٢) سورة الأنعام]

من أهل العلم من يقول: إن "إلى" في قوله تعالى: **{إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ}** [(١٢) سورة الأنعام] بمعنى "في" أي: ليجمعنكم في يوم القيامة.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}** [(١٢) سورة الأنعام] من أهل العلم من يقول: إن الكلام قد تم هاهنا، ثم استأنف بكلام جديد لبيان قضية جديدة فقال: **{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ}** [(١٢) سورة الأنعام] أي: أنه -تبارك وتعالى- أخبر بخبر مستقل أنه كتب على نفسه الرحمة، ثم أقسم أنه سيجمع الخلق إلى يوم القيامة، فيكون ذكر قضيتين مستقلتين ليس بينهما ارتباط، وهذا ذكره بعض أهل العلم من أئمة اللغة ومن غيرهم، وبعضهم يقول: إن السياق هكذا: **{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ}** وفسروا هذا الجمع بأنه يجمع ما تفرق من أبعاضهم وأجسادهم في القبور إلى يوم القيامة، أي يجمعها في يوم القيامة أو ليوم القيامة،

---

[3] - أخرجه البخاري في أبواب المساجد - باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب (٤٢٣) (ج ١ / ص ١٦٧) ومسلم في كتاب الزهد والرقائق - باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين (٢٩٨٠) (ج ٤ / ص ٢٢٨٥).

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ}** [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) (ج ٤ / ص ٢١٠٧).

وهذا التفسير هو أحد المعاني في قوله تعالى أيضاً: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا} [(٦) سورة المجادلة] أي: مجتمعة أبعاضهم وما تفرق منهم في الأرض وتحلل في هذا اليوم الذي أنكروه فكيف يستغربون ويستنكرون هذا البعث فيقولوا: {أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} [(٤٩) سورة الإسراء] ويقولوا: أئذا كنا عظاماً نخرة تلك إذاً كرة خاسرة؟

وبعضهم يقول: إن قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} [(١٢) سورة الأنعام] مرتبط بما قبله تمام الارتباط هكذا: {كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] ويقولون: إن اللام في قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} بمعنى "أنْ" وإن قوله: {لَيَجْمَعَنَّكُمْ} بدلٌ من الرحمة وكأنه يقول: كتب ربكم على نفسه أن يجمعكم ليوم القيامة، فتفسيره بأنه بدل يعني أن هذه الجملة مرتبطة بما قبلها غاية الارتباط.

وبعضهم يقول: هذا ساقه للترهيب فقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي بإمهالكم وأنه لم يعاجلكم بالعقوبة، ثم أقسم أنه سيجمعهم ليوم القيامة فيجازي المسيء بإساءته والمحسن بإحسانه، فهو يخبر أنه أمهلهم بالرحمة ثم أخبر بعد ذلك أن جمعهم أمر كائن لا محالة فيجازي كلاً بعمله.

{إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [(٥٠) سورة الواقعة] وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه، أي: لا شك عند عباده المؤمنين، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون.

وقوله: {الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ} أي: يوم القيامة {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢) سورة الأنعام] أي: لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم.

الهاء في {فِيهِ} من قوله تعالى: {إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ} [(١٢) سورة الأنعام] يُحتمل أن ترجع إلى يوم القيامة، أي: لا ريب في يوم القيامة، ويحتمل أن ترجع إلى الجمع، أي لا ريب في جمعكم، والأول أقرب؛ لأنه أقرب مذكور والضمير يعود إليه، أي لا ريب في يوم القيامة، ثم إن بين المعنيين ملازمة، ولا ضرورة للترجيح بين المعنيين؛ لأن يوم القيامة هو يوم الجمع فلا ريب في هذا الجمع ولا ريب في وقوع يوم القيامة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ثم قال تعالى: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٣) سورة الأنعام] أي: كل دابة في السماوات والأرض، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو.

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(١٣) سورة الأنعام] أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [(١٣) سورة الأنعام]: يمكن أن يكون الاقتصار على ما سكن باعتبار أنه الأغلب؛ لأن ما يتصف بالسكون أكثر مما هو متحرك كالنباتات والجمادات وما شابه ذلك.

ويمكن أن يكون اقتصاره على ذكر ما سكن هو من قبيل ما يسميه البلاغيون بالاكتفاء، أي: أنه ذكر أحد المتقابلين ليدل به على الآخر، أو ذكر أحد الأمرين ليدل به على الآخر، وعلى هذا يقال: {وَلَهُ مَا سَكَنَ} أي: وما تحرك، ومن نظائر هذا قوله -تبارك وتعالى-: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ} [(٨١) سورة النحل] أي: وسرابيل تقيكم البرد.

ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم- الذي بعثه بالتوحيد العظيم وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم: {قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٤) سورة الأنعام] كقوله: {قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [(٦٤) سورة الزمر] والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السماوات والأرض أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.

{وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] أي: وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} الآية [(٥٦) سورة الذاريات] وقرأ بعضهم هاهنا: (وهو يُطعِمُ ولا يَطعَمُ).

قوله تعالى: {وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] هو بمعنى الصمد، أي الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها وأرزاقها وحوائجها، فالكل مفتقر إليه وهو ليس مفتقراً لأحد سواه -سبحانه وتعالى- فله الغنى الكامل، وهذا أحد المعاني التي تذكر في الصمد، ومن معاني الصمد أي الذي لا جوف له.

وفي هذه الآية قراءة أخرى هكذا: (وهو يُطعِمُ ولا يَطعَمُ) فقوله: {وَلاَ يُطْعَمُ} [(١٤) سورة الأنعام] يعني أنه الغني الذي لا يفتقر إلى غيره، وقوله: (ولا يَطعَم) يعني أنه لا يأكل، وكلا القراءتين ترجع إلى معنى كمال غناه وعدم افتقاره إلى غيره، والقراءة الثانية هي قراءة سعيد بن جبير ومجاهد والأعمش لكنها من الشواذ وليست متواترة.

وكمال الغنى يعرف من نصوص كثيرة، فالاسم المباشر الذي يدل عليه هو الغَنيّ والصفة المباشرة التي تدل عليه هي الغِنَى، ويعرف ذلك من نصوص أخرى كهذا الذي في سورة الأنعام، وكقوله -تبارك وتعالى- مثلاً: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} [(٢٥٥) سورة البقرة] يعني لا أحد يشفع عنه إلا بإذنه، فهذا يدل على كمال غناه؛ لأن الذي يُشفع عنده من المخلوقين إنما يقبل شفاعتهم عنده بغير إذنه، فهو إما أنه يقبل شفاعتهم لافتقاره إليهم كخوف غوائلهم أو لأن سلطانه لا يقوم إلا بهم أو نحو ذلك، أما الله -عز وجل- فهو الغني عن خلقه، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه.

وكذلك قوله تعالى: {لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [(٢٥٥) سورة البقرة] يدل على كمال الملك وكمال الغنى أيضاً.

ومن النصوص الدالة على كمال غناه أيضاً قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يد الله ملأى لا تغيضها نفقة)) وقال: ((أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماء والأرض فإنه لم يغض ما في يده))[1].

وقرأ بعضهم هاهنا: (وهو يطعم ولا يَطعَم) أي: لا يأكل.

وفي حديث عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبيَّ -صلى الله عليه وسلم- على طعام فانطلقنا معه فلما طعم النبي -صلى الله عليه وسلم- وغسل يديه قال: ((الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب وكسانا من العري، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربي ولا مكافأً ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام، وسقانا من الشراب، وكسانا من العري، وهدانا من الضلال، وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً، الحمد لله رب العالمين))[2].

{قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [(١٤) سورة الأنعام] أي: من هذه الأمة {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ* قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [(١٤-١٥) سورة الأنعام] يعني يوم القيامة.

في قوله تعالى: {قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [(١٤) سورة الأنعام] قال: "**أي: من هذه الأمة**" وهذا باعتبار أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مسبوق إلى الإسلام، فنوح -صلى الله عليه وسلم- ومن جاء بعده من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ووصية يعقوب لبنيه، وما دل عليه قوله -تبارك وتعالى-: {يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ} [(٤٤) سورة المائدة] كل هؤلاء سبقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فالمقصود بذلك ضرورة من هذه الأمة.

{مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ} أي: العذاب {يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} يعني رحمه الله {وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [(١٦) سورة الأنعام] كقوله: {فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ} [(١٨٥) سورة آل عمران] والفوز حصول الربح ونفي الخسارة.

{وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ* قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

---

1 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [(٧٥) سورة ص] (٦٩٧٦) (ج ٦ / ص ٢٦٩٧).

2 - أخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب عمل اليوم والليلة - ما يقول إذا غسل يديه (١٠١٣٣) (ج ٦ / ص ٨٢)

لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(١٧-٢١) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه: {وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ} [(١٧) سورة الأنعام] **كقوله تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ} الآية [(٢)** سورة فاطر]**.**

وفي الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: ((اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد))[3] ولهذا قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [(١٨) سورة الأنعام] **أي: وهو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه.**

{وَهُوَ الْحَكِيمُ} [(١٨) سورة الأنعام] **أي في جميع أفعاله {الْخَبِيرُ} بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا من يستحق ولا يمنح إلا من يستحق.**

قوله: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [(١٨) سورة الأنعام] يقول: "**أي: وهو الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه**" فسَّر القاهر بأنه الذي ذل له كل شيء وخضع له كل شيء.

والفوقية في قوله: **{فَوْقَ عِبَادِهِ}** تشمل الفوقية بأنواعها، فالفوقية بالذات بمعنى علو الذات داخلة هنا كما قال تعالى: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}** [(٥) سورة طــه] وكما قال تعالى: **{يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ}** [(٥٠) سورة النحل]، ويشمل ذلك أيضاً الفوقية في القدر والمنزلة -علو القدر- ويشمل أيضاً الفوقية بالقهر، فكل ذلك متحقق ثابت له -سبحانه وتعالى- ولذلك لا يُكتفى بتفسير الآية بفوقية القهر أو فوقية القدر، فإن هذه بعض المعاني الداخلة فيها، والله تعالى أعلم.

ثم قال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً} [(١٩) سورة الأنعام] **أي: من أعظم الأشياء شهادة {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(١٩)** سورة الأنعام] **أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي.**

قال: "**{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً} [(١٩)** سورة الأنعام] **أي: من أعظم الأشياء شهادة**" يعني من يشهد على صدق ما جئت به، ثم قال: **{قُلِ اللّهِ}** فهذا هو الجواب.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب صفة الصلاة - باب من لم ير رد السلام على الإمام واكتفى بتسليم الصلاة (٨٠٨) (ج ١ / ص ٢٨٩) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفة (٥٩٣) (ج ١ / ص ٤١٤).

ومن أهل العلم من يقول في الآية: إن الكلام تمَّ عند لفظ الجلالة بمعنى **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ}** [(١٩) سورة الأنعام] انتهى –وهو ظاهر كلام ابن جرير –رحمه الله– ثم يبدأ الكلام هكذا: **{شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [(١٩) سورة الأنعام] يعني قل الله هو أكبر شهادة، ثم قال: **{شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [(١٩) سورة الأنعام].

ومن أهل العلم من يقول: هذا كله في ضمن الجواب، أي أن الجواب هو: **{اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ}** [(١٩) سورة الأنعام] وبعبارة أخرى: أي شيء أكبر شهادة؟ الله شهيد بيني وبينكم، والآية تحتمل الأمرين، والله أعلم.

ثم قال: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً} [(١٩) سورة الأنعام] أي: من أعظم الأشياء شهادة {قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ} أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلون لي {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} أي: هو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود].

قوله تعالى: **{وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ}** يعني الذين خاطبهم النبي –صلى الله عليه وسلم– **{وَمَن بَلَغَ}** يعني من يأتي بعدهم ممن لم يدرك النبي –صلى الله عليه وسلم–، فكل من بلغه هذا القرآن وفهمه الفهم الذي يصلح لمثله –وليس بالضرورة أن يكون فهمه كفهم أبي بكر وعمر– فإنه تقوم عليه الحجة ولا تبرأ ذمته ولا تحصل له النجاة إلا باتباعه، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار))[٤].

وحينما يقال: بلغه هذا القرآن وفهمه يعني بلوغ الحجة وفهم الحجة، وفهم الحجة يتفاوت غاية التفاوت بين الناس لكن المقصود أنه لا يكون –مثلاً– من الأعاجم ممن لا يفقه حرفاً من العربية بحيث إذا قرئ عليه القرآن من أوله إلى آخره لم يفهم شيئاً فمثل هذا لا تقوم عليه الحجة وإنما يبلغه من القرآن ما تقوم به الحجة عليه.

وقال الربيع بن أنس: "حق على من اتبع رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يدعو كالذي دعا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأن ينذر بالذي أنذر.

وقوله: {أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ} أيها المشركون {أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ} [(١٩) سورة الأنعام] كقوله: {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ} [(١٥٠) سورة الأنعام] {قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [(١٩) سورة الأنعام].

ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء؛ فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد –صلى الله عليه وسلم– ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته.

الضمير في **{يَعْرِفُونَهُ}** من قوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ}** [(٢٠) سورة الأنعام] إما أن يرجع إلى النبي –صلى الله عليه وسلم– وإما أن يرجع إلى ما جاءهم به النبي –صلى الله عليه وسلم– من الوحي والقرآن، أي: إنهم يعرفون هذا القرآن أنه من عند الله حقاً وليس بمختلق كما يعرفون أبناءهم، أو يعرفون أن محمداً رسول الله إلى العالمين كما يعرفون أبناءهم الذين من أصلابهم، بل قد قال له بعضهم:

[٤] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان – باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة (١٥٣) (ج ١ / ص ١٣٤).

والله إنا نعرفك أكثر مما نعرف أبناءنا؛ يعني أنه لا يدري هل ولده هذا من صلبه فعلاً أم لا، مع أن المقصود بمعرفتهم أبنائهم أنهم ينسبونهم إليهم من بين سائر الناس دون أن يشتبه ذلك عليهم.

يقول ابن كثير –رحمه الله– في الآية: "**أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم**" يعني أنه يرى أن الضمير يرجع إلى القرآن.

والقول بأنه الرسول –عليه الصلاة والسلام– أو أنه القرآن الذي جاء به بينهما ملازمة، فهم يعرفون النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو –عليه الصلاة والسلام– قد جاءهم بالقرآن.

وهناك احتمال ثالث في عود الضمير في قوله: **{يَعْرِفُونَهُ}**؛ وذلك أن الله –عز وجل– قال قبل هذه الآية: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ}** [(١٩-٢٠) سورة الأنعام] فيحتمل أن يرجع الضمير أيضاً إلى الله –تبارك وتعالى– ليكون المعنى: الذين آتيناهم الكتاب يعرفون وحدانية الله، وذلك أن هذه السورة مكية فهي تقرر توحيد الله –عز وجل– وإفراده بالوحدانية، فهذا احتمال أيضاً يضم إلى ما سبق.

وقد حمل كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– الضمير في **{يَعْرِفُونَهُ}** على المعاني الثلاثة، أي: يعرفون الله ويعرفون الرسول –عليه الصلاة والسلام– ويعرفون الوحي الذي جاء به النبي –عليه الصلاة والسلام–.

وعلى كل حال فالآيات في سياقها تتحدث عن الوحدانية وتتحدث أيضاً عن صدق النبي –صلى الله عليه وسلم– فهذه القضايا الثلاث مذكورة قبل ضمير **{يَعْرِفُونَهُ}** فالله –عز وجل– يقول: **{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادةً}** [(١٩) سورة الأنعام] يعني على صحة ما جئت به، ثم قال: **{قُلِ اللّهِ}** يعني يشهد على صدقي وصدق رسالتي، ثم بعد ذلك قال: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ}** [(٢٠) سورة الأنعام] أي: يعرفون هذا الحق الذي جئت به وأنه صدق من الله –تبارك وتعالى– وهذا المعنى هو الذي تدل عليه الآيات الأخرى، ولهذا قال الله –عز وجل– في موضع آخر: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [(١٤٦) سورة البقرة] فقوله: **{لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}** [(١٤٦) سورة البقرة] يعني أنهم يكتمون وحدانية الله وهم يعلمون، أو أن أنبياءهم أخبروهم عن النبي –صلى الله عليه وسلم– وعن صفته فكتموا ذلك، فالثاني هو المتبادر، والله تعالى أعلم.

هل يمكن ترجمة هذه الآية إلى لغات أخرى حرفياً؟:

لابد من معرفة أن المترجم للقرآن إلى لغة أخرى لا يمكن أن يترجم الآية ترجمة صحيحة إلا أن يكون قد فسرها؛ لأن الترجمة الحرفية مستحيلة، أعني لا يمكن أن تنقل كلام الله تعالى بحروفه بكل معانيه الأصلية والخادمة إلى لغة أخرى إلا بأن تفهم معاني هذه الآية.

فإذا أردت أن تترجم قوله تعالى: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمُ}** [(٢٠) سورة الأنعام] إلى لغة أخرى فلابد أن تفهم تفسيرها أولاً، ولذلك فإنك إذا كنت تعتقد أن معنى قوله: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ}** أي اليهود والنصارى، وأن الضمير في قوله: **{يَعْرِفُونَهُ}** يعني الرسول –صلى الله عليه وسلم– فإنك ستقول في

ترجمتك للآية: اليهود والنصارى يعرفون الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنه من عند الله كما يعرف الواحد منهم ابنه.

وإذا كنت تعتقد أن الضمير في {يَعْرِفُونَهُ} يرجع إلى الله ستقول: اليهود والنصارى يعرفون وحدانية الله كما يعرفون أبناءهم.

وإذا كنت تعتقد أن الضمير يرجع إلى القرآن ستقول: اليهود والنصارى يعرفون أن هذا القرآن حق من عند الله -عز وجل-.

وكذلك لو فهمت أن الآية تحمل على المعاني الثلاثة فإنك تنقلها عند الترجمة بناء على الفهم الذي فهمته منها. والمقصود أنه لا بد من فهم معنى الآية أولاً ثم بعد ذلك ينقل هذا الفهم إلى اللغة الأخرى سواء كان صواباً أو خطأً وهذا هو ما يحصل، ولذلك تجد كثيراً من الترجمات فيها أخطاء كثيرة جداً وانحرافات بحسب فهم المترجم، فالمترجم ليس مترجماً فحسب بل هو مفسر في الدرجة الأولى ولذلك لا بد في المترجم أن يعرف اللغتين الأصلية والمنقول إليها معرفة تامة، وأن يعرف معاني القرآن وتفسيره، وكلما كان أحذق كانت ترجمته أقرب إلى الإصابة، لكن أين تجد من يفهم اللغتين ويكون حاذقاً في التفسير في نفس الوقت؟ فالله المستعان.

فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد -صلى الله عليه وسلم- ونعته وصفته وبلده ومهاجره وصفة أمته، ولهذا قال بعده: {الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ} [(٢٠) سورة الأنعام] أي: خسروا كل الخسارة {فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(٢٠) سورة الأنعام] بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ونوهت به في قديم الزمان وحديثه.

ثم قال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [(٢١) سورة الأنعام] أي: لا أظلم ممن تقول على الله فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته، {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢١) سورة الأنعام] أي لا يفلح هذا ولا هذا، لا المفتري ولا المكذب.

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ* ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ* وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٢٢-٢٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} يوم القيامة.

قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] الظاهر المتبادر أن تكون هذه جملة استئنافية تخبر عن هذا الأمر الذي سيكون لا محالة حينما يحشرون ويسألون عن شركائهم.

وابن جرير -رحمه الله- ربط هذه الآية بما قبلها أي بقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢١) سورة الأنعام] والمعنى: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا ولا يفلحون يوم نحشرهم جميعاً في الآخرة، ثم ذكر ما يحصل لهم فقال: {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ} [(٢٢) سورة الأنعام].

لكن الذي مشى عليه ابن كثير –رحمه الله– ومشى عليه كثير من المفسرين أن هذه الآية لا ترتبط بما قبلها، أي أن المعنى تمَّ عند قوله: {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(٢١) سورة الأنعام] ببيان أنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله –عز وجل– أطلق نفي الفلاح عنهم، ثم ذكر ما يحصل لهم حينما يوجه إليهم هذا السؤال يوم القيامة وذكر كيف يكون جوابهم فقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} الآيات [(٢٢) سورة الأنعام].

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه.

لفظة: "جميعاً" في قوله تعالى: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [(٢٢) سورة الأنعام] تحتمل معنيين: الأول: أي: يم نحشرهم مجتمعة أبعاضهم وأجسادهم وما تفرق منهم في الأرض.

والثاني: نحشرهم جميعاً أي فلا نغادر منهم أحداً كما قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [(٤٧) سورة الكهف] فالله يحشر الأولين والآخرين، والذين ظلموا ونظراءهم وأشكالهم كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ} [(٢٢) سورة الصافات] وهذا المعنى الثاني هو المتبادر وهو الأقرب في تفسير الآية وفي تفسير نظائرها من الآيات، والله تعالى أعلم.

قائلاً لهم: {أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٢٢) سورة الأنعام] كقوله تعالى في سورة القصص: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٦٢) سورة القصص] وقوله تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] أي: حجتهم، وقال عطاء الخرساني: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] بليَّتهم حين ابتلوا.

هذه المعاني متقاربة؛ وذلك أن أصل الفتنة هي الاختبار، وأصل ذلك يكون بعرض الذهب أو المعدن على النار ليتميز خالصه من شائبه، ومثل هذا قوله تعالى عن أصحاب الأخدود: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} [(١٠) سورة البروج] فالفتنة هنا تحتمل المعنيين كما يمكن أن تحمل على المعنيين، أعني أنهم أحرقوهم بالنار أو فتنوهم عن دينهم، فالفتن هو الاختبار.

يقول تعالى: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] قال بعض السلف: بليتهم أي: اختبارهم، ففسروه باعتبار أصل المعنى.

وقال بعضهم {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام] أي: نتيجة هذه الفتنة، وهذا يشبه قول من قال: {لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} أي: جوابهم حينما سُئلوا هذا السؤال، وهو يشبه أيضاً قول من قال –كالحافظ ابن القيم وهو ظاهر كلام ابن جرير–: أي: عاقبة كفرهم، وهكذا هو تفسير من فسر فتنتهم بالكفر، فإنه قصد بالكفر عاقبته، وعاقبة كفرهم هي {أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] فهذا هو الجواب، أي: أنهم حينما سئلوا عن إشراكهم هذا قالوا: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام].

وابن جرير –رحمه الله– يذكر وجه التعبير عن العاقبة أو الجواب بالفتنة فيقول: حينما سئلوا عند الاختبار {أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٢٢) سورة الأنعام] تبيّن لهم عندئذ أنهم لم يكونوا على شيء فجحدوا هذا الإشراك ولم يقولوا: هؤلاء شركاؤنا بل كان الجواب: {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] فلما

كان الجواب واقعاً بسبب الامتحان والفتن والاختبار أطلق على هذا الجواب بأنه فتنة فقال تعالى: {لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ} [(٢٣) سورة الأنعام]، والله تعالى أعلم.

وعلى كل حال فإن هذه العبارات التي قالها السلف هي عبارات متقاربة يمكن الجمع بينها وإن كانت تختلف في معناها من حيث هي، ولذلك فإن حملها على اختلاف التنوع أقرب من حملها على اختلاف التضاد، وعليه فلا حاجة إلى الترجيح بينها، والله أعلم.

{إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [(٢٣) سورة الأنعام] قال تعالى: {انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة الأنعام] وهذا كقوله: {ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} [(٧٣-٧٤) سورة غافر].

وقوله: {وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: يجيئون ليستمعوا قراءتك، ولا تجزي عنهم شيئاً؛ لأن الله جعل على قلوبهم أكنة أي: أغطية؛ لئلا يفقهوا القرآن {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} أي: صمماً عن السماع النافع لهم، كما قال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء} الآية [(١٧١) سورة البقرة].

هذا مثل ما ذكر الله -عز وجل- في الموضع الآخر أنهم إذا خرجوا من عند النبي -صلى الله عليه وسلم- {قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا} [(١٦) سورة محمد] فهم يأتون ويسمعون ولكن لا ينتفعون بما سمعوا كما ينتفع المؤمنون، قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [(١٢٤-١٢٥) سورة التوبة].

قوله: {وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [(٢٥) سورة الأنعام] الوَقر -بفتح الواو- هو الصمم أي الثقل الذي يكون في السمع، والوِقر -بكسر الواو- هو الحمل، فتقول مثلاً: أوقرت دابته، وتقول: معه وِقرٌ من طعام.

وقوله: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين {لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [(٢٥) سورة الأنعام] فلا فهم عندهم ولا إنصاف، كقوله تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأسْمَعَهُمْ} الآية [(٢٣) سورة الأنفال].

وقوله تعالى: {حَتَّى إِذَا جَآؤُوكَ يُجَادِلُونَكَ} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: يحاجونك ويناظرونكم في الحق بالباطل، {يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [(٢٥) سورة الأنعام] أي: ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذاً من كتب الأوائل ومنقول عنهم.

الأساطير جمع أسطار أو أسطورة أو أسطارة أو أسطور أو أسطير فكل ذلك قد قيل فيه، ويُقصد به ما كتبه الأولون وسطروه، فهو من السطر بمعنى الكتابة، ومرادهم هنا أن ما جاء به النبي -عليه الصلاة والسلام- ليس من عند الله -عز وجل- وليس بوحي وإنما هو من مختلقات الأولين وحكاياتهم وأخبارهم وما أشبه ذلك.

وقوله: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: أنهم ينهون الناس عن اتِّباع الحق وتصديق الرسول والانقياد للقرآن {وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: ويبعدون هم عنه، فيجمعون بين الفعلين القبيحين، لا ينتفعون ولا يدعون أحداً ينتفع.

هذا هو المعنى الظاهر المتبادر من معنى الآية خلافاً لمن قال: إن قوله: **{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ}** أي: ينهى عن النبي -صلى الله عليه وسلم- بالذب عنه، وأن المراد بذلك أبو طالب حيث كان ينهى عن أذى النبي -صلى الله عليه وسلم- ويدافع عنه، وينأى بنفسه عن الإيمان، فهذا القول بعيد غاية البعد حيث لا دليل على ذلك، ولا يصح في ذلك شيء، وإنما هي في صفة المشركين، والله أعلم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ} يردون الناس عن محمداً -صلى الله عليه وسلم- أن يؤمنوا به.

وقال محمد بن الحنفية: كان كفار قريش لا يأتون النبي -صلى الله عليه وسلم- وينهون عنه. وكذا قال قتادة ومجاهد والضحاك وغير واحد.

{وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: وما يهلكون بهذا الصنيع ولا يعود وباله إلا عليهم وهم لا يشعرون.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ* وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ* وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٢٧-٣٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ} [(٢٧) سورة الأنعام] أي: إذ حبسوا، حيث يقال: وُقِف الرجل يعني حبس، ومنه قيل للوقف: وقف؛ لأنه تحبيس الأصل مع تسبيل المنفعة، وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا هو الفصيح في كلام العرب، لا أن يقال: أوقف الإنسان بمعنى حبس.

{وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ} [(٢٧) سورة الأنعام] بعضهم يقول: أي حبسوا في النار باعتبار أن "على" بمعنى "في" -فحروف الجر تتناوب كما هو معروف- وهذا الذي مشى عليه ابن جرير -رحمه الله- ويشبه هذا قول من قال: إن قوله {إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} أي: أُدخلوها، فهذا القول راجع إلى المعنى الذي قبله.

وبعضهم يفسر "على" بمعنى الباء، والمعنى: {وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [(٢٧) سورة الأنعام] أي: حبسوا قريباً منها فرأوها يحطم بعضُها بعضاً، ورأوا بأم أعينهم ما فيها من الأهوال والأوجال، فقالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

وهذه الآية {فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام] فيها ثلاثة أفعال هي: "نرد، ونكذب، ونكون"، وهذه الأفعال في الآية قرأها الجمهور من القراء ما عدا حفص وحمزة برفع الأفعال الثلاثة هكذا (يا ليتنا نردُّ ولا نكذبُ بآيات ربنا ونكونُ من المؤمنين) [(٢٧) سورة الأنعام] وهذه القراءة على أنهم تمنوا تلك الأمور جميعاً، أي: تمنوا الرد وعدم التكذيب وتمنوا أن يكونوا من المؤمنين.

وقرأ حفص وحمزة -قراءتنا هذه-: {فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام] وعلى هذه القراءة يكون الذي تمنوه هو الرجوع إلى الدنيا، وانتصبت الأفعال التي بعد ذلك بــ"أن" مضمرة بعد الواو هكذا: "وأن لا نكذبَ وأن نكونَ من المؤمنين".

وهناك قراءة ثالثة على أن النصب يكون في الفعل الأخير فقط، هكذا (**يا ليتنا نردُّ ولا نكذِّبُ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين**) باعتبار أن الأول والثاني داخلان في التمني، وأما الثالث فغير داخل فيه.

واختار بعضهم أن قولهم: **{وَلاَ نُكَذِّبَ}** -بالنصب- مقطوع غير داخل في التمني، والمعنى أنهم يثبتون على ترك التكذيب سواء رُدُّوا أو لم يُرَدوا كما تقول: لن أعود إلى هذا الأمر سواء قبلت عذري أو لم تقبل، فكذلك هؤلاء يقولون: يا ليتنا نردُّ ولا نكذِّبَ سواء حصلت لنا الرجعة أو لم تحصل.

فعند ذلك قالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام] يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين.

قال الله تعالى: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة وإن أنكروها في الدنيا أو في الآخرة، كما قال قبله بيسير: {ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ* انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٣-٢٤) سورة الأنعام].

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، كقوله مخبراً عن موسى -عليه السلام- أنه قال لفرعون: {لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ} الآية [(١٠٢) سورة الإسراء] وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [(١٤) سورة النمل].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- ذكر معنيين في قوله تعالى: **{بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ}** [(٢٨) سورة الأنعام]:

المعنى الأول: أنه ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يخفونه من الكفر والتكذيب، وحمل إخفاءهم المقصود في الآية على أنه وقع منهم في الدنيا ويقع منهم في الآخرة أيضاً قبل هذا الظهور.

المعنى الثاني: أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه، يعني مما عرفوه في الدنيا وجحدوه من صدق ما جاء به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأنهم على باطل وليسوا على شيء في عبادتهم للأصنام.

والقول الأول عليه مأخذ وهو كيف يقال: إنهم أخفوا الكفر والتكذيب في الدنيا وهم قد جاهروا به وحاربوا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- غاية المحاربة.

وأما القول بأنهم أخفوا ذلك في الآخرة فهذا ممكن باعتبار أن الآخرة على أطوار وأحوال؛ فهم في بداية الأمر عندما يرون الأهوال والعذاب الذي سيحل بهم يكذبون ويجحدون أنهم كانوا مشركين كما قال الله -عز وجل- قبله: **{ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ}** [(٢٣) سورة الأنعام].

والمقصود أنه يمكن حمل إخفائهم الكفر والتكذيب على أنه في وقت من أوقات الآخرة، وأما حمل ذلك على أنه كان في الدنيا فليس سائغاً لما سبق.

وقال بعضهم: إن قوله تعالى: **{بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ}** [(٢٨) سورة الأنعام] أي: من أعمالهم القبيحة كما قال الله -عز وجل-: **{وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ}** [(٤٧) سورة الزمر] وهذا المعنى

اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- لكن كيف يقال: إنهم كانوا يخفون أعمالهم القبيحة وأعظم الأعمال القبيحة ذلك الكفر الذي كانوا يجاهرون به ويحاربون في سبيله؟

وقال بعضهم: المعنى بدا لهم ما كانوا يخفونه من جزاء الكفر الذي في الآخرة، أي أن في الآية مقدراً محذوفاً هو جزاء، والمعنى بل بدا لهم جزاء ما كانوا يخفون من قبل، ويرد هذا بأن الأصل عدم التقدير.

وأبعد الأقوال قول من قال: إن المعنى: بل بدا للأتباع ما كان يخفيه عنهم الرؤساء، أي: أن الرؤساء كانوا يعرفون صدق ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وكذب ما كانوا يدَّعونه من أنه سحر وكذب، فبدا للأتباع ما كان يخفيه الرؤساء، وهذا القول في غاية البعد؛ لأن فيه تفريقاً للضمائر من غير حاجة ولا قرينة ولا دليل.

والخلاصة أن المعنى الثاني هو الأقرب، أي أنهم عرفوا حقيقة ما جاء به النبي -صلى الله عليه وسلم- وصدقه وأمانته وردوا ذلك وكذبوه واتهموه -عليه الصلاة والسلام- أو اتهموا الأنبياء عموماً بأنهم سحرة ومجانين وكذبة على الله -تبارك وتعالى- فهم كما قال الله -عز وجل-: **{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}** [(١٤) سورة النمل] فيوم القيامة يعرفون أو يبدوا لهم هذا الأمر الذي كانوا يخفونه من قبل.

وهذا المعنى نصره الحافظ ابن القيم -رحمه الله- بقوة وردَّ على جميع المعاني السابقة وضعّفها، والله تعالى أعلم.

وأما معنى الإضراب في قوله: {بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ} [(٢٨) سورة الأنعام] فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، ولهذا قال: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والمخالفة: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام] أي: في قولهم: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [(٢٧) سورة الأنعام].

يعني إنهم بقولهم هذا لم تتحول حالهم إلى صلاح ومحبة لله ومحبة للخير وما أشبه ذلك، وإنما أرادوا الخلاص -لمّا رأوا العذاب- بذكر مثل هذا الذي ظنوا أنه يخلصهم، فقالوا: **{يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا}** [(٢٧) سورة الأنعام].

وقد مثَّل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- قولهم هذا بمثال يوضح المراد مما يوافق كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فقال: هذا مثله كإنسان كان يحب إنساناً وهو يخفي هذه المحبة، ويعلم أنه لو اطُّلع على ذلك منه لعوقب أشد العقوبة، يعني كرجل يحب امرأة ويحاول أن يخفي هذا على الناس؛ لأنه لو اطَّلع وليُّها على هذا لعاقبه أشد العقوبة، فإذا أُخذ قال: دعني ولا أرجع إلى شيء من ذلك، فهو بهذا يريد الخلاص والنجاة من هذا الموقف وإلا فإن حبه لها مستقر في قلبه؛ إذ لو تُرك وحصلت له الفرصة فإنه باق على حاله الذي كان عليه؛ لأن ما قبله من حبها لم يتغير إلى بغض، وهكذا من كان يهوى شيئاً فأُخذ به فإنه قد يقول: دعني ولن أعود، ولكن لما كان هذا الأمر مستقراً في نفسه متجذِّراً فيها فإنه إذا تُرِك وحصلت له العافية رجع إلى حالته

الأولى، ويكون إنما قال تلك المقولة في ذلك المقام ليعتق نفسه فقط، وكذلك هؤلاء الكفار قد تعمق الكفر في نفوسهم ولن يرجعوا عنه حتى لو رُدُّوا إلى الدنيا، ولهذا قال -تبارك وتعالى-: **{وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}** [(٢٨) سورة الأنعام].

{وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} **[(٢٩) سورة الأنعام] أي: لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا: {إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها، ولهذا قال: {وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [(٢٩) سورة الأنعام].**

"إن" في قوله تعالى: **{وَقَالُواْ إِنْ هِيَ}** بمعنى "ما" النافية، أي ما هي إلا حياتنا الدنيا، وهذه الآية تابعة لما قبلها فهي ليست جملة جديدة، والمعنى أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ولقالوا ما كانوا يقولون من قبل: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين، مع أنهم قد عاينوا حقائق الآخرة، وهذا غاية الكفر والإعراض والجحود والانغماس في هذا الوحل، وهذا من أعجب الأشياء -نسأل الله العافية- وإلا كيف يرى حقائق الآخرة أمام عينه وإذا رجع -لو رُدَّ- لقال: **{إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ}** [(٢٩) سورة الأنعام].

هذا المعنى عليه عامة المفسرين بل لا تكاد تجد من يخالف فيه، وهو معنى يفسر كيف أن من أراد الله -عز وجل- خذلانه فإنه لو رأى الآيات التي يؤمن بها الجماد ما آمن، والله المستعان.

إنك تستغرب يوم ترى بعضهم يشاهد آية من آيات الله منذرة بعذابه فيستهزئون بها بدلاً من اللجوء إلى الله -تبارك وتعالى- لكشف الضر والتوبة مما وقع منهم من الشرك ونحوه من الذنوب.

وقد حكى الله تعالى عن قوم هود كيف كان جوابهم وهم يرون عذاب الله نازلاً بهم فقال تعالى: **{وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}** [(٢١) سورة الأحقاف] إلى أن قال سبحانه: **{فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا}** فرد عليهم: **{بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ* تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}** [(٢٤-٢٥) سورة الأحقاف].

ومن العجائب أن يقوم الناس بأداء صلاة الاستسقاء طلباً لرحمة الله تعالى بإنزال الغيث فينزل المطر، فإذا بالصحفيين يكتبون في الصحف: هؤلاء درسوا الأحوال الجوية وعلموا أنه يوجد منخفض جوي فوقَّتوا للاستسقاء وضحكوا على الناس وقالوا: نزل المطر يوم استسقينا!!

والأعجب من ذلك أنه حدث زلزال في بعض البلاد بعد كسوف الشمس بأيام فيقول بعضهم: دخلنا المسجد وليس فيه أحد والناس في الساحات الضخمة حول المسجد حيث خرجوا في ليلهم شبه عراة، ثم أذَّن المؤذن -كأنه لصلاة الفجر- يقول: ولم يصلِّ إلا أنا وصاحبي والمؤذن والإمام، فالزلزال دمرهم تدميراً وهم ممن ينتسبون إلى الإسلام ومع ذلك ما قالوا: هذه آية ينبغي أن تكون لنا عبرة فنرجع إلى الله، بل عوقب من خطب أو تكلم فقال: هذه عقوبة من الله؛ أي أنهم أنكر عليهم كيف يسمون ذلك عقوبة؟!

وهكذا لو فتشت عن يمينك وشمالك ومن حولك من البلاد التي أنزل الله -عز وجل- عليهم بأسه في ليلة فإنك تجدهم رجعوا إلى أسوأ مما كانوا عليه بعد أن كنَّا نظن أنهم سيتوبون ويرجعون إلى الله -عز وجل- مما جرى، فنسأل الله العافية.

إنك إذا رأيت هذه الآيات التي يرسلها الله على عباده من الفيضانات والتدمير ونحوها فإنك تقول: إن هؤلاء الذين نجوا قد رأوا الموت بأم أعينهم ونجاهم الله وأحياهم حياة جديدة وسيكونون من العباد الذين لا يخرجون من المساجد، لكن الواقع أنك تراهم أشد مما كانوا عليه من الضلال -إلا من رحم الله- ولذلك فإن أصحاب هذه النفوس والقلوب الميتة لو قيل لأحدهم: إنك ستموت غداً لما كان عنده من مزيد خير وطاعة، فالله المستعان.

ثم قال: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: أوقفوا بين يديه {قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟.

قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} [(٣٠) سورة الأنعام] هو كقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ} [(٢٧) سورة الأنعام] إذا قلنا: إنه بمعنى حبسوا على النار أو بقربها.

فقوله: {وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ} أي: حُبسوا على حكمه وقضائه فيهم، فهم ينتظرون حكم الله فيهم لدخول النار، هذا معنى والآية تحتمله، وهو اختيار كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال به جماعة من السلف.

{قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ} [(٣٠) سورة الأنعام] أي: بما كنتم تكذّبون به فذوقوا اليوم مسّه {أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ} [(١٥) سورة الطور].

الاستفهام في قوله: {أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [(٣٠) سورة الأنعام] استفهام تقريع، فهو يقرعهم بهذا فيقول: أليس هذا بالحق الذي أنكرتموه وجحدتموه وكابرتم غاية المكابرة؟ {قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا} [(٣٠) سورة الأنعام] لكن لا ينفعهم هذا الاعتراف في ذلك اليوم.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ* وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٣١-٣٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه، وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة، وعن ندامته على ما فرط من العمل، وما أسلف من قبيح الفعل، ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام].

قوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] الخسارة تكون في البيع والشراء، وأعظم ما تكون الخسارة هي في خسارة الإنسان لحظِّه ونصيبه عند الله -تبارك وتعالى-، هذا أعظم الخسار وهو أعظم الغبن، ولهذا سمى الله -عز وجل- يوم القيامة بيوم التغابن لما يحصل فيه من الغبن العظيم؛ لأن الله -عز وجل- قد أعطى كل إنسان رأس مال في هذه الحياة الدنيا وهي هذه الأنفاس، وهي متقضية لا محالة، فمن الناس من سعى وجدّ واجتهد وقضاها من أجل أن يحجز مقعداً في النار، ومنهم من جدّ واجتهد واستغلها من أجل أن يشتري مقعداً في الجنة، فإذا جاء يوم القيامة دخل هؤلاء الجنة ودخل هؤلاء النار التي و طَّئوها لأنفسهم وعملوا من أجل دخولها وقضوا فيها الأعمار، من أجل الوصول إليها -نسأل الله العافية- وعندئذ يتوارث أهل الجنة مقاعد ومنازل أهل النار من الجنة، وأهل النار يتوارثون منازل أهل الجنة التي في النار؛ لأنه كما في الحديث لكل إنسان مقعد في الجنة ومقعد في النار، فهذا في غاية الغبن؛ لأنها صفقة خاسرة بعد

أن أنفق أموالاً وجهوداً وأوقاتاً وأعمالاً في هذه الحياة الدنيا، فهو قضى سبعين سنة أو أكثر أو أقل من أجل أن يشتري منزلاً في النار، ولذلك كان هذا اليوم يوم التغابن.

يقول تعالى: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] "قد" في الآية للتحقيق، ولهذا يقول: {أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [(٢٧) سورة البقرة].

والمراد بلقاء الله –عز وجل– في الآية هي القيامة.

قوله: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [(٣١) سورة الأنعام] من أهل العلم من يقول: إن الساعة سميت بهذا الاسم لسرعة الحساب فيها، ومنهم من يقول: سميت بالساعة لسرعة قيامها، فهي تقوم لحظة كما ورد في الحديث: ((لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها))[1] ولهذا قال تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ} [(١-٢) سورة الحـــج].

وقيل: إنها سميت ساعة؛ لأنها الساعة العظيمة فصار ذلك علماً عليها.

يقول تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] يعني نادوا: يا حسرتنا احضري، والحسرة هي الندم الشديد، فغاية الندم يقال له: حسرة.

{عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها.

ذكر –رحمه الله– بشأن الضمير في قوله تعالى عن الخاسرين: {عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [(٣١) سورة الأنعام] ثلاثة أقوال وجعلها احتمالات؛ لأن الآية تحتملها فقال: "**وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة الدنيا وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة، أي في أمرها**" فعلى عود الضمير إلى الحياة الدنيا يكون المعنى يا حسرتنا على ما ضيعنا في الحياة الدنيا حتى صرنا إلى هذه الحال، وعلى عوده إلى الأعمال يكون المعنى يا حسرتنا على ما فرطنا في الأعمال، وعلى عوده إلى الدار الآخرة يكون المعنى يا حسرتنا على ما فرطنا في الآخرة.

والذي يظهر –والله تعالى أعلم– أن هذا الخلاف هو من قبيل اختلاف التنوع فلا حاجة للترجيح بين هذه الأقوال؛ لأن التفريط وقع منهم في الدنيا، وكان هذا التفريط في حقيقته هو تضييع للعمل الصالح ومقارفة العمل السيئ، وهذا التفريط كائن وواقع في عمل الآخرة.

وقال بعضهم ككبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله–: إن الضمير يعود إلى الصفقة، ويدل على ذلك أنه ذكر الخسارة قبلُ بقوله: {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ} [(٣١) سورة الأنعام] فهي صفقة حصل فيها خسارة، فيقولون: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها أي: في هذه الصفقة التي صارت خاسرة.

وهذا أيضاً تحتمله الآية فلا حاجة للترجيح أيضاً؛ لأن من فرط في العمل فرط في الحياة الدنيا وفرط في عمل الآخرة فصفقته خاسرة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٣١) سورة الأنعام]: أي: يحملون.

---

[1] – أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب خروج النار (٦٧٠٤) (ج ٦ / ص ٢٦٠٥).

قوله تعالى: {أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} يعني ألا ساء ما يحملون؛ فالأوزار جمع وِزر، وهو الحمل، فيقال للرجل إذا بسط ثوبه ووضع فيه المتاع: احمل وزرك، يعني حملك، ومنه الوزير؛ لأنه يتحمل أعباء المهام التي توكل إليه، والمقصود بالأوزار في الآية الأثقال التي يحملونها من الذنوب، ويشبه هذه الآية قوله تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [(١٣) سورة العنكبوت].

وقال أسباط عن السدي أنه قال: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا جاءه رجل قبيح الوجه، أسود اللون منتن الريح، وعليه ثياب دنسه، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال: ما أقبح وجهك؟ قال: كذلك كان عملك قبيحاً، قال: ما أنتن ريحك؟ قال: كذلك كان عملك منتناً؟ قال: ما أدنس ثيابك؟ قال: فيقول: إن عملك كان دنساً، قال له: من أنت؟ قال: عملك، قال: فيكون عمله في قبره فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذات والشهوات وأنت اليوم تحملني، قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخله النار، فذلك قوله: {وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٣١) سورة الأنعام].

وقوله: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} أي: إنما غالبها كذلك {وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} [(٣٢) سورة الأنعام].

هذا الأثر عن السدي لا يقال من جهة الرأي لكن له حكم المرسل، وقد ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على هذه المعنى في أصله، أي أن عمل الإنسان يصور له إما بأحسن صورة أو بأسوأ صورة كما في حديث البراء الطويل[2].

يقول تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام]: أقوى صيغة من صيغ الحصر هي النفي والاستثناء، فهنا جاء بأسلوب الحصر فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام] فهذا أبلغ تصوير لحقيقتها وما يتنافس عليه الناس فيها من الحطام والاستكثار من أحجار الذهب والفضة وكأنهم خلقوا لذلك حيث يتنافسون في البنيان ويتنافسون في الحطام وفي المراكب وما إلى ذلك، ثم لا يمر على ذلك وقت قريب إلا ويتقادم به العهد وتزهد به نفوسهم وتتطلب غيره، وهكذا يجرون خلفها حتى يصبّحهم الموت أو يمسِّيهم ثم بعد ذلك يعرفون أنهم قد ضيعوا الأيام في البحث عن أمور يستكثرون منها استكثاراً لم يأمرهم الله -عز وجل- به.

في قوله تعالى: {إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [(٣٢) سورة الأنعام] من يقول بوجود الترادف يقول: اللهو واللعب بمعنى واحد، ومن يمنعون من الترادف حاولوا أن يوجدوا فرقاً بين اللهو وبين اللعب، وذكروا في هذا أشياء قد لا تخلو من مناقشة، وهذا من الأمثلة التي قد يصعب بيان وجه الفرق بين اللفظتين فيها، يعني إنه توجد أشياء تتشابه في الألفاظ وتتشابه معاينها أو تتقارب مما يقال عنها إنها مترادفات ويظهر وجه الفرق بينها مثل: أقبل وجاء، حيث تقول: أقبل أي بوجهه وجاء بمعنى حضر، وتقول: الإنسان والبشر، فالأول باعتبار طبيعته وما قيل في ذلك بأنه من الأنس أو نحو ذلك، والبشر باعتبار أن بشرته بادية ظاهرة وهكذا، لكن ما الفرق بين اللهو واللعب؟

الفرق بين اللهو واللعب؟:

[2] - أخرجه أحمد (١٨٥٥٧) (ج ٤ / ص ٢٨٧) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله رجال الصحيح.

بعضهم يقول: اللهو كل شيء شغلك وألهاك، ويرد على هذا اعتراض فيقال: ألهاه يلهيه لكن لها يلهو كأن المادة أخرى غير مادة ما ذكر.

وبعضهم يقول: اللهو أصله من الصرف عن الشيء، ولهذا قال من قال: اللهو هو صرف الهمّ بما لا يحسن أن يصرف الهم فيه، واللعب هو طلب الفرح بما لا يحسن طلبه فيه، باعتبار أن اللعب فيه شيء من الفرح، لكن يقال: هذا ليس بلازم؛ لأن اللهو قد يكون فيه فرح أيضاً.

ومنهم من يقول -كأبي هلال العسكري-: إن اللهو أعم من اللعب باعتبار أن اللعب قد يكون حقاً، كملاعبة الرجل لأهله، وملاعبته لولده، وأما اللهو فإن أكثره باطل، ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((كل شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاثاً، رمية عن قوسه وتأديبه فرسه وملاعبته أهله فإنهن من الحق))[3] فهذا اللعب استثني من اللهو الباطل وإلا فهو من جملة اللهو، فاللهو يشمل اللعب سواء كان بحق أو بباطل، وهو أعم من اللعب، فهو قد يكون لعباً وقد يكون بغير اللعب.

وبعضهم يقول: اللهو هو الاستمتاع بلذات الحياة الدنيا، واللعب هو العبث، وبعضهم يقول: اللهو هو الميل من الجد إلى الهزل، واللعب ترك ما ينفع بما لا ينفع، وبعضهم يقول: اللهو هو الإعراض عن الحق واللعب هو الإقبال على الباطل.

وابن القيم -رحمه الله- فرّق بينهما بفرق وهو أن اللهو يكون في القلب، تقول: قلبه في لهو، أو لاهٍ ساهٍ، واللعب يكون بالجوارح، ويكون متسبباً عن لهو القلب.

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ* وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ* وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ* إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٣-٣٦) سورة الأنعام].

يقول تعالى مسلياً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} أي: قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم، كقوله: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر] كما قال تعالى في الآية الأخرى: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [(٣) سورة الشعراء] {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف].

يقول تعالى: **{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ}** [(٣٣) سورة الأنعام] "قد" إذا دخلت على الفعل المضارع فإن الغالب أنها للتقليل، كما يقولون: قد يجود البخيل، وقد يكبو الجواد فهذا للتقليل.

وإذا دخلت في فعل يتعلق بالله -عز وجل- كقوله تعالى هنا: **{قَدْ نَعْلَمُ}** وكقوله تعالى: **{قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ}** [(٦٤) سورة النـــور] وكقوله: **{قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ}** [(١٨) سورة الأحزاب] فليس المراد بها التقليل فهذا لا يمكن أبداً؛ لأن علم الله -عز وجل- متحقق ثابت، فعلمه أحاط بكل شيء، ولذلك يكون المعنى أن "قد" إذا

---

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد - باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله (١٦٣٧) (ج ٤ / ص ١٧٤) وأحمد (١٧٣٧٥) (ج ٤ / ص ١٤٨) وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده.

دخلت على الفعل المضارع المنسوب إلى الله -عز وجل- فهي للتحقيق دائماً، فالقاعدة هي أنك إذا رأيت "قد" دخلت على فعل مضارع مضاف إلى الله -عز وجل- فهي للتحقيق، فقوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: قد علمنا، وقوله: {قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ} [(٦٤) سورة النـــور] أي: قد علم، وقوله: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [(١٨) سورة الأحزاب] أي: قد علم.

يقول تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ} [(٣٣) سورة الأنعام]: الحزن هو التأسف على أمر فائت، وأما الخوف فهو الاغتمام من أمر مستقبل، وهذا هو الفرق بين الحزن والخوف، وقد يستعمل الحزن بمعنى الخوف قليلاً.

وقوله: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر {وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ} [(٣٣) سورة الأنعام] أي: ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم.

يقول تعالى: {فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ} هذه قراءة بالتشديد وهناك قراءة أخرى بالتخفيف (لا يُكْذِبُونَك) وهي متواترة أيضاً.

وعلى القراءة الأولى فسرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بقوله: "**أي: لا يتهمونك بالكذب**" أي: لا ينسبونك إلى الكذب، كما تقول: كذّبته إذا نسبته للكذب أو أخبرت بأنه جاء بالكذب أو إذا قلت له: كذَبت، فيكون بهذا مكذَّباً وتكون قد كذّبته.

لكن على قراءة (لا يُكْذِبُونَك) هي كما تقول: أكذبتُه أي: وجدتُه كاذباً، (لا يُكْذِبُونَك) أي: لا يجدونك كاذباً، وبعضهم يقول: أكذبته أي أخبرت أنه كاذب، أو أن ما جاء به كذب، لكن المقصود أنهم يعرفون أنك صادق لا تكذب وهم لا ينسبونك إلى الكذب ولكنهم يجحدون هذا الذي جئت به لأمر في نفوسهم كما قال الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ} [(١٤) سورة النمل] كما جاء عن أبي جهل عند أصحاب السير أنه ذكر المنافسة بينهم وبين عبد مناف وقال: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا حتى إذا جثونا معهم على الركب وتساوينا -يعني في المكارم- قالوا: منا نبي، فمن أين نأتي بهذه؟ فو الله لا نؤمن به أبداً، فهذا يبين أنهم لا يكذبونه -عليه الصلاة والسلام- بل يعرفون أنه صادق لكنهم يجحدون هذا مكابرة لغلبة أهوائهم.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي -صلى الله عليه وسلم- من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب والأخنس بن شريق ولا يشعر أحد منهم بالآخر فاستمعوها إلى الصباح، فلما هجم الصبح تفرقوا فجمعتهم الطريق، فقال كل منهم للآخر: ما جاء بك، فذكر له ما جاء به، ثم تعاهدوا ألا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم؛ لئلا يفتتنوا بمجيئهم، فلما كانت الليلة الثانية، جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان، لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق، فتلاوموا ثم تعاهدوا أن لا يعودوا، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه، قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

وقوله: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [(٣٤) سورة الأنعام] هذه تسلية للنبي -صلى الله عليه وسلم- وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمْر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعد له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة، ولهذا قال: {وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ} [(٣٤) سورة الأنعام] أي: التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين، كما قال: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ* إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ* وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [(١٧١-١٧٣) سورة الصافات] وقال تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [(٢١) سورة المجادلة].

وقوله: {وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [(٣٤) سورة الأنعام] أي: من خبرهم، كيف نصروا وأُيِّدوا على من كذبهم من قومهم، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة.

ثم قال تعالى: {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [(٣٥) سورة الأنعام] أي: إن كان شق عليك إعراضهم عنك {فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [(٣٥) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة

عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: النفق: السرب فتذهب فيه، فتأتيهم بآية أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما آتيتهم به، فا فعل. وكذا قال قتادة والسدي وغيرهما.

وقوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [(٣٥) سورة الأنعام] كقوله تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} الآية [(٩٩) سورة يونس] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [(٣٥) سورة الأنعام] قال: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من قد سبق له من الله السعادة في الذكر الأول.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] أي: إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه، كقوله: {لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} [(٧٠) سورة يــــس].

وقوله: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] يعني بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب فشبههم الله بأموات الأجساد، فقال: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [(٣٦) سورة الأنعام] وهذا من باب التهكم بهم والازدراء عليهم.

{وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٣٧-٣٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون: {لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} أي: خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ومما يتعنتون كقولهم: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا} الآيات [(٩٠) سورة الإسراء].

{قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} [(٣٧) سورة الأنعام] أي: هو تعالى قادر على ذلك، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك؛ لأنه لو أنزل وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة، كما قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا} [(٥٩) سورة الإسراء] وقال تعالى: {إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} [(٤) سورة الشعراء].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قولهم: {وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} [(٣٧) سورة الأنعام] أي: أنهم اقترحوا أن ينزل عليه آية تلجئهم إلى الإيمان إلجاءً كما فعل الله -عز وجل- لبني إسرائيل حينما رفع فوقهم الجبل فصار فوقهم كأنه ظله، وأمرهم بأن يأخذوا ما أنزل إليهم بقوة، وهكذا ما وقع من الآيات العظام التي تلجئ من رآها إلى الإيمان إن كان كتب الله -عز وجل- له الإيمان في سابق علمه، وأما إذا حصل منه التكذيب بعد ذلك فإنها تأتي العقوبات المستأصلة كما وقع للأمم السابقة كقوم صالح حينما اقترحوا آية فأخرج الله -عز وجل- لهم الناقة مبصرة، كما قال تعالى: {وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً} [(٥٩) سورة الإسراء] أي: إنها آية

مبصرة -وليس المعنى إنها ناقة مبصرة- فظلموا بها فأهلكهم الله -تبارك وتعالى- وهكذا كان حال سائر الأمم.

قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلٍ آيَةً}** [(٣٧) سورة الأنعام] أي كما اقترحوا **{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}** [(٣٧) سورة الأنعام] أي: ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه قادر، أو ولكن أكثرهم لا يعلمون ما عليهم من التبعة والبلاء إذا نزلت الآيات ولم يؤمنوا بها، وهذا المعنى الأخير هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فالله قادر على تنزيل الآيات، ولكن هؤلاء المقترحين لا يعلمون تبعة هذا الأمر حيث إذا أنزل عليهم آية كما اقترحوا ولم يؤمنوا بها نزل بهم العذاب المستأصل.

ومن حكمة الله -عز وجل- أيضاً أنه يرسل الرسل ويري الناس من آيات ودلائل صدقهم ما تقوم عليهم به الحجة، وأما الآيات الملجئة فإنها إن ظهرت للناس فإن حكمة الابتلاء قد تكون منتفية، فالله -تبارك وتعالى- لم يقدّر ذلك في بعث نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وله في ذلك حكمة بالغة فهو لم يقدر إهلاك هذه الأمة بالعذاب المستأصل كما كان الحال مع الأمم السابقة، ولذلك كانت هذه الأمة باقية، ورسالتها هي الرسالة الخالدة إلى قيام الساعة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] قال مجاهد: أي أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال قتادة: الطير أمة.

يمكن أن نربط بين هذه الآية وبين ما قبلها بما ذكر بعض أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- وهو أن الله -عز وجل- يقول لهؤلاء المقترحين لنزول الآيات المكذبين للرسول -صلى الله عليه وسلم-: لا تظنوا أن الله -تبارك وتعالى- غافل عن أعمالكم وعن مجازاتكم، إذ كيف يكون ذلك ويقع والله -تبارك وتعالى- لم يغفِل أمر هذه المخلوقات على كثرتها وصنوفها ومعايشها وما أشبه ذلك؟!، فهو قد أحصاها عدداً وهو الذي خلقها -سبحانه وتعالى- وقدر أقواتها وأرزاقها وآجالها، وكتب كل ما يتعلق بها في تقلبها وأحوالها وأطوارها المختلفة وجميع ما يصدر منها من الحركات والسكنات، وكيف يغفل عن أعمالكم وأنتم محل التكليف وقد خلقكم لعبادته!.

وقال قتادة: الطير أمة والإنس أمة والجن أمة، وقال السدي: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: خلقٌ أمثالكم.

الأمة -كما هو معروف في الوجوه والنظائر- تأتي لمعانٍ متعددة، فتأتي بمعنى الجماعة من الناس كما قال الله -عز وجل- عن موسى -صلى الله عليه وسلم- حينما ورد ماء مدين: **{وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ}** [(٢٣) سورة القصص] ويقال للمدة الزمنية أيضاً، كما قال تعالى: **{وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ}** [(٤٥) سورة يوسف] وهذا لا تعلق له بهذه الآية.

ويقال ذلك أيضاً للطائفة المجتمعة على دين، كقوله -عز وجل- عن هذه الأمة: **{وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً}** [(٥٢) سورة المؤمنون] فهذه الأمة هي طائفة مجتمعة على دين.

ويقال: فلان أمَّة، للرجل الذي جمع أوصاف الكمال التي تفرقت في غيره، كقوله تعالى: **{إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً}** [(١٢٠) سورة النحل].

والحاصل أن المراد بقوله تعالى: {وَمَا من دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] يعني جماعاتٍ وأصنافاً خلقها الله -عز وجل-.

والمثلية هنا اختلف أهل العلم فيها، فمنهم من قال: إن المراد بالمثلية أي: أن في هذه المخلوقات شبهاً ببني آدم من جهة أن من الناس من فيه دناءة الخنزير، ومن فيه عقوق الضب، ومن فيه خفة أحلام الطير، ومن فيه غدر الذئب، وحيلة الثعلب، وما أشبه ذلك من الأوصاف الموجودة في هذه المخلوقات سواء كانت حسنة أو سيئة، وهذا وإن قال به بعض السلف إلا أنه قول بعيد في تفسير الآية.

وبعضهم يقول: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: يذكرون الله -عز وجل- مثلكم، وبعضهم يقول: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: أنهم يحشرون كما تحشرون في الآخرة.

وبعضهم يقول: وجه المثلية هو أن الله -عز وجل- خلقها وقدر لها أرزاقاً وآجالاً ويبعثها يوم القيامة كما يبعث البشر -كما في قوله في آخر هذه السورة: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] وكما دل عليه الحديث الآخر -الذي سيأتي- وما أشبه ذلك مما قضاه الله -عز وجل- وقدره في شأن هذه المخلوقات، وهذا هو أرجح هذه الأقوال.

ويدخل في المثلية كل ما يوجد من المشابهة بين الناس وبين هذه المخلوقات، فالله يرزقهم كما يرزقكم، وداخلون تحت علمه وقدرته، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا من دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ} [(٣٨) سورة الأنعام] مضى فيما سبق تفسير الدابة أنها كل ما يدب على الأرض، وقد تطلق في عرف الاستعمال على نوع خاص مما يدب على الأرض كذوات الأربع مثلاً، وهذا من تخصيص العرف، وقد يكون العرف أخص من هذا كإطلاق الدابة على الحمار، أو إطلاق الدابة على الحية، والخلاصة أن كل ما دب على الأرض فهو دابة.

ثم عطف عليها الطير فقال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] فدل على أن المراد بالدابة هنا ليس المعنى العرفي كذوات الأربع مثلاً وإنما المقصود كل ما يدب على الأرض، ويقابله ما يطير في السماء.

في قوله: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] معلوم أن الطائر إنما يطير بجناحيه، وقد سبق الكلام على مثل هذا المعنى، وذلك أن من أهل العلم من يقول: إن ذكر الجناحين مع أنه معلوم أن الطائر لا يطير إلا بجناحيه إنما جرى على طريقة العرب لتأكيد الكلام، فالعرب تقول: قال بفمه -أو بفيه- وكتب بيده، ومشى إليه برجله، ونظر بعينه، وما أشبه هذا.

ومنهم من يقول: لما كانت العرب تعبر عن السرعة بمثل هذا فتقول: اقض حاجتي على وجه الطيران، أو طِر بحاجتي، أو طِر بهذا الخبر، أو فلان طار بهذا، بمعنى أسرع فيه، وكما قال الشاعر:

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافاتٍ ووحدَانا

فحتى لا يتوهم أن المراد بذكر الطائر الإسراع قال: {وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [(٣٨) سورة الأنعام] والله أعلم.

وقوله: {مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ} [(٣٨) سورة الأنعام] أي: الجميع علمهم عند الله ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره سواء كان برياً أو بحرياً.

الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن المراد بالكتاب هنا هو اللوح المحفوظ، وهذا هو الذي يدل عليه السياق في هذه الآية، حيث ذكر الكائنات بقوله: **{وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم}** [(٣٨) سورة الأنعام] أي: خلقها وقدر أقواتها وآجالها وأعمالها وما أشبه ذلك ثم يحشرها يوم القيامة، فالسياق كله يدل على أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذي كتبت فيه هذه الأشياء وأحصيت وجمعت.

والقول الآخر هو أن الكتاب في الآية يراد به القرآن، وبناء على هذا المعنى يكون المراد بقوله: **{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}** [(٣٨) سورة الأنعام] أي مما تحتاجون إليه في هدايتكم ونجاتكم.

وبهذا يظهر أنه حتى على هذا التفسير قالوا –أي المحققون من أهل العلم–: إن المراد ما يتعلق به النجاة والخلاص والهداية ولم يقولوا: إن المقصود اشتمال القرآن على جميع العلوم كما قال بعض المتكلفين: إن القرآن تبيان لكل شيء باعتبار أنه يحتوي على جميع العلوم، فهؤلاء قد تكلفوا غاية التكلف، كالرجل الذي اسمه كوك لما قال لآخر: تقول إن القرآن فيه كل شيء فأين اسمي في القرآن؟ قال: **{وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}** [(١١) سورة الجمعة] فانظر كيف لم تعيه الحيلة أن يستخرج اسمه من القرآن!.

وسئل بعضهم عن الطب في القرآن فقال: جُمِع في آية واحدة هي قوله تعالى: **{وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ}** [(٣١) سورة الأعراف] فهذه اشتملت على الطب بكامله من الغذاء الصحيح والحمية، فالطب يقوم على هذا، وهذا الكلام له وجه، لكن الكلام أو النظر إلى القرآن بأنه يحتوي جميع العلوم، فهذا كلام غير صحيح.

ومن كلام المتكلفين قولهم: ما من علم إلا ويدل عليه القرآن ولو بالإشارة أو بالإجمال، ومن ذلك علوم الفلك والفلسفة والطب والصيدلة وعلم الأثر والخط بالرمل، بل قالوا: إنه ذكر أو أشار إلى كل العلوم، وهذا الكلام فيه نظر؛ فالقرآن لم ينزل لهذا الأمر وهو ليس موسوعة في الجغرافيا أو في الحساب أو في العلوم أو غير ذلك، وإنما هو كتاب هداية فينبغي أن ينظر إليه بهذا الاعتبار، وبهذا نعرف خطأ من أسرف في تحميل القرآن ما لا يحتمل من النظريات التي يصل إليها العلم الحديث والاكتشافات والمخترعات وما أشبه ذلك في العلوم المختلفة، فالقرآن ما أنزل لهذا فلا داعي أن نشتط بهذا الطريق الخطر ونحمل القرآن ما لا يحتمل، ولكن ما لاح وجهه وظهر فلا إشكال إن كان ذلك ثابتاً ويُفهم من ظاهر القرآن، وأما ما لا يثبت أو لا يدل عليه ظاهر القرآن فإنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يحمل القرآن عليه؛ لأن هذا التصرف في النظر البعيد والعاقبة خطير ومردوده كبير على القرآن حيث سينسب إليه الخطأ بعد ذلك حينما يُكتشف أن هذه النظريات غير صحيحة أو إذا جاء ما يبطلها.

على كل حال من فسر الكتاب في قوله تعالى: **{مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ}** [(٣٨) سورة الأنعام] بأن المراد به القرآن قال: يعني ما من شيء يُحتاج إليه في هدايات الخلق إلا قد ذكرناه فيه إما تفصيلاً وإما إجمالاً، كقوله تعالى: **{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ}** [(٨٩) سورة النحل][1].

كقوله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [(٦) سورة هود] **أي: مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانِّها وحاصر لحركاتها وسكناتها، وقال تعالى: {وَكَأَيِّن من دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [(٦٠) سورة العنكبوت].**

[1] – من أهل العلم من ذكر حجج هؤلاء وحجج هؤلاء كالحافظ ابن القيم –رحمه الله– فمن شاء فليراجع كلامه في كتاب إعلام الموقعين.

يعني أن الله -عز وجل- أحصى هذه المخلوقات من الحيوانات البرية والبحرية وما يعيش تحت الأرض وما يعيش فوق الأرض ودبر أقواتها وأعمالها وأماكن عيشها وما يصلح لمثلها وأين تموت، والأطوار التي تمر بها، كل ذلك قدره الله -عز وجل- وأحصاه.

وهذه الآية لو أن الناس عقلوها وتدبروا معناها فإنهم سيكونون في غاية التوكل على الله -عز وجل- في الرزق وفي كل أمر من أمورهم، فهذه المخلوقات على كثرة أنواعها -منها ما يرى بالعين ومنها ما لا يرى بالعين- أحصى الله كل حركاتها وسكناتها وما يتصل بها من أعمال وأرزاق وآجال، فنحن خلْق من خلقه قدر الله -عز وجل- لنا مثل هذه الأمور ولن يسبق الإنسان رزقه ولا أجله مهما عمل ومهما كان حذراً متوقياً بل إذا جاء أجله سقط على أم رأسه، وهكذا الأرزاق مهما كان حذقه وذكاؤه ومهارته وجلده وكده ليلاً ونهاراً لا يمكن أن يحصِّل أكثر مما كتب له، ولن يفوته من رزقه شيء ولن يأكل رزقه أحد غيره إطلاقاً، ولهذا ينبغي ألا يحزن على ما فات وألا تذهب نفسه حسرات، وذلك أن ما خرج من يده فإن الله لم يقدره ولم يكتبه له وإنما هو مكتوب لغيره، فالله -عز وجل- قد يرزق غيره بسببه وعن طريقه، فالتأسف على الدنيا وذهاب النفس حسرات عليها لا معنى له إطلاقاً، فالله قد أحصى كل شيء ولا يخرج من هذا الإحصاء شيء؛ لأن علمه -تبارك وتعالى- قد أحاط بكل شيء، فمن تأمل في هذا الأمر كان ذلك نافعاً له في باب المراقبة لله تعالى، وهذه الآية تحتاج إلى وقوف وتأمل طويل؛ فلو حصل ذلك لانتفع العبد بها غاية الانتفاع.

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] قال: حشْرها الموت، وقيل: إن حشرها هو يوم بعثها يوم القيامة؛ لقوله: {وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [(٥) سورة التكوير].

وروى عبد الرزاق عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة، البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغوا من عدل الله يومئذ أن يأخذ للجمَّاء من القرناء ثم يقول: كوني تراباً، فلذلك يقول الكافر: {يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ][2] وقد روي هذا مرفوعاً في حديث الصور.

ويدل على هذا أيضاً الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء))[3] يعني التي نطحتها في الدنيا.

فالله -عز وجل- يحشر هذه الدواب جميعاً ويقتص لبعضها من بعض ثم يقال لها: كوني تراباً فتكون تراباً، فعندئذ إذا رآها الكافر قال: {ويَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [(٤٠) سورة النبأ].

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [(٣٨) سورة الأنعام] الذي عليه عامة أهل العلم سلفاً وخلفاً أن الحشر المراد هنا هو حشر الآخرة، والقول الآخر أن الحشر هو الموت، وابن جرير -رحمه الله- يرى أن هذين المعنيين

---

2 - أخرجه الحاكم (٣٢٣١) (ج ٢ / ص ٣٤٥) وقال الألباني: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم غير ابن ثور وهو محمد الصنعاني وهو وإن كان موقوفاً فإنه شاهد قوي للمرفوع؛ لأنه لا يقال من قبل الرأي، انظر السلسلة الصحيحة (ج ٤ / ص ٤٦٥).

3 - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم (٢٥٨٢) (ج ٤ / ص ١٩٩٧).

لم يوجد دليل على ترجيح أحدهما على الآخر، فيقول: الآية تحتمل المعنيين، وهذه هي طريقته -رحمه الله- عندما لا يوجد دليل للترجيح بين الأقوال.

وعلى كل حال فالحشر معناه الجمع وحمله على الجمع في الآخرة، هو الأقرب وهو الظاهر المتبادر والله أعلم، ثم إن الإخبار بأنهم يحشرون بالموت ليس فيه فائدة جديدة؛ لأن هذا شيء مشاهد ومعلوم، ثم إن وجه كونهم يجتمعون في الموت فيه إشكال، لكن كونهم يجتمعون في الحشر والنشر في الآخرة هو المقصود، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} [(٣٩) سورة الأنعام] **أي: مثلهم في جهلهم وقلَّة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصمٍّ -وهو الذي لا يسمع- أبكم -وهو الذي لا يتكلم- وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق، أو يخرج مما هو فيه، كقوله: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}** [(١٧-١٨) سورة البقرة] **وكما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}** [(٤٠) سورة النـــور] **ولهذا قال: {مَن يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(٣٩) سورة الأنعام] **أي: هو المتصرف في خلقه بما يشاء.**

{قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ* وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ* فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٤٠-٤٥) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه الفعَّال لما يريد المتصرف في خلقه بما يشاء وأنه لا معقب لحكمه ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: {قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ} [(٤٠) سورة الأنعام] **أي: أتاكم هذا أو هذا {أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٤٠) سورة الأنعام].

قوله: **{قُلْ أَرَأَيْتُكُم}** [(٤٠) سورة الأنعام] الكاف والميم عند البصريين من النحاة يراد بها الخطاب ولا محل لها من الإعراب.

وقيل: إن الكاف والميم في محل نصب على المفعولية، يعني كأنه يقول: أرأيتم أنفسكم، فالكاف للخطاب كما في قوله تعالى: **{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ}** [(٦٢) سورة الإسراء] فقالوا: الكاف مفعول به مثل: أرأيت زيداً كأنه يقول: أرأيت نفسك، والاستفهام في قوله: **{أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ}** [(٤٠) سورة الأنعام] للتقريع.

{أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(٤٠) سورة الأنعام] **أي: لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه، ولهذا قال: {إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}** [(٤٠) سورة الأنعام] **أي: في اتخاذكم آلهة معه.**

{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُون} [(٤١) سورة الأنعام] **أي: في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم، كقوله:** {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} **الآية** [(٦٧) سورة الإسراء] **وقوله:** {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء} [(٤٢) سورة الأنعام] **يعني الفقر والضيق في العيش.**

يقول تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ} [(٤٢) سورة الأنعام] يعني فكذبوا {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء} [(٤٢) سورة الأنعام] على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- يكون فيه مقدر محذوف معلوم من السياق، أي أن البأساء والضراء وقعت لهم بعد التكذيب كما قال تعالى عن آل فرعون: {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ} [(١٣٠) سورة الأعراف].

إذن: هذه الأمور وقعت لهم بعد تكذيبهم وإلا لو آمنوا لأغدق الله عليهم الأرزاق كما قال الله -عز وجل-: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ} [(٩٦) سورة الأعراف]، هذا المعنى تحتمله الآية، والله تعالى أعلم.

ولو قال قائل: قوله: إن ذلك واقع حتى مع الإيمان فإن هذا قد يدل عليه قوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ} [(٢١٤) سورة البقرة] فهي سنته في الابتلاء.

لكن قوله: {فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [(٤٢) سورة الأنعام] يمكن أن يفهم منه أنهم لما كذبوا أخذهم بالبأساء والضراء من أجل أن يتضرعوا، وإن كان هذا أيضاً ليس بلازم؛ لأن الله يحب من عباده التضرع إليه سواء كانوا من أهل الإيمان أو كانوا من الكافرين، ولكن قوله بعده: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [(٤٣) سورة الأنعام] يدل على ما ذكره ابن جرير -رحمه الله- أي أن هؤلاء كذبوا وما تضرعوا حينما أخذهم بالبأساء والضراء، ولذلك يقال: ليس المخبر عنهم هنا أهل الإيمان الذين يبتليهم الله تعالى وإنما هو على الأمم المعذبة المهلكة، والله أعلم.

{فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء} **يعني الفقر والضيق في العيش** {وَالضَّرَّاء} **وهي الأمراض والأسقام والآلام.**

قال: "**وهي الأمراض والأسقام والآلام**" وقيل غير ذلك لكنها أقوال بعيدة، ومنها أن المقصود بالبأساء تسليط السلطان عليهم، لكن الظاهر الذي عليه عامة أهل العلم أن البأساء هو الضر المتعلق بالأموال من الفقر وضيق العيش، والضراء ما يتعلق بالأجسام من المرض والألم وما أشبه ذلك، هذا هو التفسير المشهور، والله أعلم.

{لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [(٤٢) سورة الأنعام] **أي: يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون.**

قوله: {لَعَلَّهُمْ} أي: من أجل أن، وقد سبق في "لعل" أنها تأتي للترجي وأن الله لا يقع منه ذلك، فهنا تفسر بأنها تعليلية وقد سبق أن قلنا: إنها في جميع المواضع -في القرآن- تفيد التعليل إلا في موضع واحد وهو قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} [(١٢٩) سورة الشعراء] فإن معناها كأنكم تخلدون.

والتضرع هو الانكسار والتذلل لله -جل وعلا-، والله -عز وجل- من حكمته في ابتلاء الخلق بالمكاره أنه يحب من عباده أن ينكسروا وأن يذلوا بين يديه وأن يدعوه فيكشف عنهم ذلك إن شاء.

ومن التذلل والتضرع إلى الله تعالى صلاة الاستسقاء التي يفعلها الناس إذا حصل لهم القحط وأجدبوا ولم ينزل المطر، ولذلك على كثرة التقصير حتى في هذه الصلاة وفي الحضور لها وفي صفتها وفي التضرع في الدعاء إلا أن مع ذلك كله يلاحظ أنه لا يكاد الناس يستسقون حتى ينزل المطر بفضل الله ورحمته بخلقه، بل عرف عن بعض أهل العلم قديماً وحديثاً أنه إذا استسقى لم ينزل من المنبر حتى ينزل المطر من شدة تضرعه وإلحاحه على الله –عز وجل– بالدعاء.

فالله –تبارك وتعالى– يحب من عباده التذلل والتضرع مع كثرة ما يقع منهم من التقصير والظلم والمعصية إلا أنه يلطف بهم ويرحمهم، ولو عاملهم بأعمالهم وذنوبهم لما أنزل قطرة واحدة من السماء؛ فهم يُمعنون في الفساد والشر وهو –عز وجل– يلطف بهم ويرحمهم، وفي الحديث: ((ولولا البهائم لم يمطروا))[4].

قال الله تعالى: {فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: فهلا إذا ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا لدينا، {وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: ما رقَّت ولا خشعت {وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٤٣) سورة الأنعام] أي: من الشرك والمعاندة والمعاصي.

قوله: **{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ}** [(٤٣) سورة الأنعام] يؤيد ما سبق عن ابن جرير في قوله: **{لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ}** [(٤٢) سورة الأنعام] أي: لعلهم يتضرعون فلم يتضرعوا؛ لأن قوله: **{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ}** [(٤٣) سورة الأنعام] معناه أن التضرع منهم لم يقع.

قوله: **{فَلَوْلا}** سبق أن "لولا" إذا كانت في أمر فائت لا يمكن استدراكه فهي للتبكيت كما في هذه الآية: **{فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا}** [(٤٣) سورة الأنعام] أي: هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، فهذا لا يمكن استدراكه؛ لأنهم قد أهلكوا وانتهوا، وأما إذا كانت "لولا" في أمر يمكن استدراكه فإنها تكون للتحضيض والتحريض.

{فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم.

النسيان هنا يفسر بالترك كما في قوله تعالى: **{نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ}** [(٦٧) سورة التوبة] وكما في قوله: **{فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ}** [(١٩) سورة الحشر]، وهذا هو المشهور عند أهل العلم في هذا الموضع خلافاً لمن قال: إنه الذهول؛ لأن الله لا يؤاخذ بالنسيان الذي هو زوال المعلوم من الذهن، والله أعلم.

{فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون.

قوله: "**أي: فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون**" هذا المعنى تحتمله الآية، وليس لغبي أن يقول: توجد أشياء ما أعطاهم الله إياها مثل الهداية؛ لأن قوله: **{فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}** [(٤٤) سورة الأنعام] يقصد به أبواب كل شيء مما يدل عليه المقام والسياق من إدرار الأرزاق عليهم وصحة الأبدان وما أشبه ذلك مما يحصل به الاستدراج، وإلا فإن هناك أشياء في الدنيا من ألوان النعيم لم يعطوا إياها، لكن أراد ما يحصل لمثلهم كما قال تعالى: **{تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا}** [(٢٥) سورة الأحقاف] فإن معناها تدمر كل شيء مما جاءت لتدميره، فلا يقول أحد: إنها لم تدمر السماوات والأرض ولا الجبال.

---

[4] – أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن – باب العقوبات (٤٠١٩) (ج ٢ / ص ١٣٣٢) والحاكم (٨٦٢٣) (ج ٤ / ص ٥٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٧٨).

ويقال ذلك أيضاً في قوله تعالى: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ} [(٥٧) سورة القصص] فلا يقول عاقلٌ: هناك ثمرات رأيتها في المشرق والمغرب لم أرها في مكة؛ لأن المقصود بالآية ما يحصل جبايته لمثلها، وهكذا يقال في قوله تعالى عن ملكة سبأ: {وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ} [(٢٣) سورة النمل] لا يقال: إنها لم تؤتَ لحية سليمان أو ملك سليمان مثلاً؛ لأن هذا ليس مراداً في الآية، وهذا يسميه الشاطبي -رحمه الله- "العموم الاستعمالي" يعني أن اللفظ يكون عاماً في كل مقام بحسب استعماله مما يصلح له.

وقوله: {أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: مما أغلق عليهم كما يقول ابن جرير -رحمه الله- والمعنى أن الله -عز وجل- قلّبهم في الأحوال المختلفة، فتارة يأخذهم بالبأساء والضراء -أي الشدة- وتارة بالتوسعة عليهم، ثم إن الأبواب التي سدها عليهم وأدت إلى حصول البأساء والضراء فتحت عليهم فصحت أجسامهم ونمت أموالهم وحصل لهم ما يحتاجون إليه من نزول المطر وذهاب القحط وما أشبه ذلك.

وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم عياذاً بالله من مَكْره، ولهذا قال: {حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: من الأموال والأولاد والأرزاق {أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: على غفلة {فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: آيسون من كل خير.

قال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: المبلس الآيس، وقال الحسن البصري: من وسع الله عليه فلم يرَ أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتّر عليه فلم يرَ أنه ينظر له فلا رأي له، ثم قرأ: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) سورة الأنعام] قال: مكر بالقوم ورب الكعبة، أعطوا حاجتهم ثم أخذوا. [رواه ابن أبي حاتم].

المبلس هو الذي قد يئس وانقطع أي سكن وهمد ولم يتحرك ليبحث عن المخرج والحيلة من شدة يأسه، ولهذا قال بعضهم: إن اسم إبليس مأخوذ من الإبلاس.

وقوله: {أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ} [(٤٤) سورة الأنعام] أي: أخذناهم بغتة فإذا هم ساكنون لا حراك لهم؛ لأنه -عز وجل- قد أهلكم.

قوله تعالى: {فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٤٥) سورة الأنعام] أي: قطع آخرهم؛ لأن الدابر هو الآخر، والمعنى أنهم استؤصلوا استئصالاً فلم يبق منهم أحد.

ويقال: إن التدبير مأخوذ من هذا باعتبار أنه إحكام عواقب الأمور، بمعنى أنه يرتب ويدبر أوائلها لتصح له عواقبها، فيقال: فلان حسن التدبير لأمر المعيشة، وفلان سيئ التدبير.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسُير سورة الأنعام (٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ* قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ* وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٤٦-٤٩) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله –صلى الله عليه وسلم– قل لهؤلاء المكذبين المعاندين: {أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} أي: سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ} الآية [(٢٣) سورة الملك].

ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع الشرعي ولهذا قال: {وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم} [(٤٦) سورة الأنعام] كما قال: {أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ} [(٣١) سورة يونس] وقال: {وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ} [(٢٤) سورة الأنفال].

وقوله: {مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ} [(٤٦) سورة الأنعام] أي: هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه، ولهذا قال: {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} أي: نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال.

{ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} أي: ثم هم بعد هذا البيان يصدفون: أي يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن اتِّباعه.

وقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً} [(٤٧) سورة الأنعام] أي: وأنتم لا تشعرون حتى بغتتكم وفاجأكم {أَوْ جَهْرَةً} أي: ظاهراً عياناً {هَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٧) سورة الأنعام] أي: إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٤٨) سورة الأنعام] كقوله: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} الآية [(٨٢) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله –تبارك وتعالى–: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} [(٤٦) سورة الأنعام] يعني أخبروني.

وقوله: {إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} [(٤٧) سورة الأنعام] فسر البغتة هنا: أي وهم في غفلة لا يشعرون بذلك، أي: يأخذهم أخذاً مفاجئاً لهم، وقد فسره بعض السلف بأن المراد به أن يأخذهم ليلاً، وأن الجهرة أن يأخذهم نهاراً، لكن ما ذكره الحافظ ابن كثير –رحمه الله– في المعنى هنا أشمل وأتم؛ وذلك أن البغتة هي أخذ الفجأة، يعني من غير مقدمات ومن غير أن تتهيأ نفوسهم لاستقبال العذاب.

والله -تبارك وتعالى- ذكر في القرآن كيف يأخذهم فقال: {بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا} [(٥٠) سورة يونس] فأخْذه بياتاً هو من أخذ الغفلة في الغالب؛ لأنهم في نوم لا يطالعون مقدمات العذاب وأسبابه، وقد يكون الأخذ بالنهار أيضاً بغتة؛ لأن الله -عز وجل- ذكر ذلك أيضاً فقال: {ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ} [(٩٨) سورة الأعراف] أي: وهم في حال غفلتهم ينزل بهم العذاب مفاجئاً لهم.

والمقصود أن البغتة هي الأخذ بالعذاب من غير معرفة بمقدماته، فيكون مباغتاً لهم، وأما الجهرة فهي أن يأخذهم العذاب حينما تنعقد أسبابه ويشاهدون ذلك، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات، ولهذا قال: {فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم {فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [(٤٨) سورة الأنعام] أي: بالنسبة لما يستقبلونه {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} أي بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها، الله وليهم فيما خلفوه وحافظهم فيما تركوه.

ثم قال: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ} [(٤٩) سورة الأنعام] أي: ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل وخرجوا عن أوامر الله وطاعته، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته.

{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ* وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ* وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ* وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ* وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٠-٥٤) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى لرسوله -صلى الله عليه وسلم-: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: لست أملكها ولا أتصرف فيها {وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: ولا أقول لكم إني أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله -عز وجل- ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني عليه {وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} أي: ولا أدعي أني ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إليَّ من الله -عز وجل- شرفني بذلك وأنعم عليَّ به.

يقول تعالى: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام]: هذه الآية ردٌّ على المقترحين على الله -عز وجل- الآيات، وذلك أن هؤلاء تارة يطلبون أن يحول لهم الصفا إلى ذهب، وتارة يطلبون ملكاً ينزل من السماء من أجل أن يكون معه نذيراً، وتارة يتعجبون من صفته كما قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا} [(٧) سورة الفرقان] إلى غير ذلك، فردَّ عليهم قائلاً: {قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [(٥٠) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: **{قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ}** [(٥٠) سورة الأنعام] هذا أحد المواضع التي يتكلمون فيها على المفاضلة بين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وبين الملائكة أو بين الملائكة وبين صالحي البشر، وهو مبحث لا طائل تحته، والاشتغال فيه لا يُجنى منه فائدة، وإنما هو اشتغال بما لا يعني، والاشتغال بما لا يعني مذموم، ثم إن هذه الآية لا تدل على هذا الأمر إطلاقاً؛ وإنما ذَكَرَت أن هؤلاء القوم أرادوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يكون رسولاً ملائكياً وأن يتخلى عن صفات البشرية من الأكل والاكتساب وما أشبه ذلك، فقال لهم: كل ذلك لا يتأتى مني، فأنا لست بملَك ولست بعالم للغيب، وليست خزائن الله بيدي، والله تعالى أعلم.

ولهذا قال: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه.

قوله: **{إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ}** [(٥٠) سورة الأنعام] جاء بصيغة الحصر رداً عليهم، ولا تدل الآية على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قد يقع منه اجتهاد أو لا يقع منه، فهذه الصيغة في الحصر تدل على أنه يتبع ما يوحى إليه في كل شيء، لكن قد جاءت أدلة أخرى تدل على أنه قد يجتهد في بعض الأمور -عليه الصلاة والسلام- ولكن الوحي يؤيده، فإذا وقع اجتهاده على وجه جاء الوحي يقومه أو يقرره، ولهذا يقال: إن كل ما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فهو حق؛ لأنه مؤيد بالوحي، وقد اجتهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في أسارى بدر فجاء الوحي وبيّن العمل الذي كان ينبغي أن يكون تجاه هؤلاء الأسارى، قال تعالى: **{مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ}** [(٦٧) سورة الأنفال].

فهذه الآية وإن كانت في أسلوب الحصر إلا أن مثل هذا يجمع مع غيره لا سيما أن هذه الآية في مقام الرد على المشركين الذين يطالبونه بأشياء من عند نفسه، فهو يقول: أنا أتبع ما يوحى إليَّ، كقوله تعالى: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] فهذه الآية لا تدل على أنه لم تحرم أشياء أخرى لكن هذا في مقام الرد على هؤلاء المفترين على الله -عز وجل- الذين حرموا ما أحل الله وحللوا ما حرم الله، فهو ردَّ عليهم بهذه الطريقة، والله أعلم.

{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [(٥٠) سورة الأنعام] أي: هل يستوي من اتبع الحق وهُدي إليه ومن ضل عنه فلم ينقد له؟ {أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [(٥٠) سورة الأنعام].

هذا الاستفهام في قوله: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي}** مضمن معنى النفي، أي: لا يستوي، والقاعدة أن نفي الاستواء في مثل هذا يحمل على أعم معانيه، أي لا يستوي في عمله وحاله، ولا يستوي في مآله وعاقبته فهذا إلى الجنة وهذا إلى النار.

{أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ} [(٥٠) سورة الأنعام] وهذه كقوله تعالى: {أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [(١٩) سورة الرعد].

وقوله: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} [(٥١) سورة الأنعام] أي: وأنذر بهذا القرآن يا محمد الذين هم من خشية ربهم مشفقون، والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب.

الضمير في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} يعود إلى القرآن، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهو الظاهر المتبادر، وقد قال قبله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] فأول ما يتبادر أن الذي يوحى إليه هو القرآن وإن كان يوحى إليه أيضاً غير القرآن، لكن وإن كان قوله: {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ} [(٥٠) سورة الأنعام] أعم من القرآن فإن الضمير يمكن أن يرجع إلى غير مذكور قبله؛ لأن ذلك معلوم من السياق، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [(١) سورة القدر] أي: القرآن، ومن ذلك قوله: {مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ} [(٤٥) سورة فاطر] يعني الأرض.

وقوله -تبارك وتعالى- عن سليمان -صلى الله عليه وسلم-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ} [(٣٢) سورة ص] -على التفسير المشهور- أي الشمس غابت، مع أن الشمس لم تذكر قبل وإنما علم أنها مرادة من السياق.

وبعضهم يقول: {وَأَنذِرْ بِهِ} [(٥١) سورة الأنعام] يعني وأنذر بالله -عز وجل- وهذا فيه بعد وليس معهوداً بالقرآن.

وقول من قال: {وَأَنذِرْ بِهِ} [(٥١) سورة الأنعام] يعني اليوم الآخر، وإن كان أقرب من الذي قبله -أي القول بأنه يعني الله -تبارك وتعالى- إلا أن الظاهر المتبادر أن الضمير يعود إلى القرآن، والله -عز وجل- يقول: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام] فالنذارة تكون بالقرآن، والله أعلم.

{الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ} [(٥١) سورة الأنعام] أي: يوم القيامة.

يقول: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} [(٥١) سورة الأنعام] والخوف يأتي بإزاء معنيين:

المعنى الأول: الخوف بمعنى العلم، كقول الشاعر:

وإذا ما مت فادفني تحت كرمة	تروي عظامي في الممات عروقها
ولا تدفنني في الفلاة فإني	أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

فيقول: أخاف ألا أذوقها، وهو يعلم أنه إذا مات لن يشرب الخمر في قبره، فهو يريد أن يُزرع فوق قبره شجرة عنب أو أن يدفن تحت شجرة عنب من شدة حبه للخمر، والحاصل أن قوله: فإني أخاف بمعنى فإني أعلم.

المعنى الثاني: الخوف بمعنى الغم من أمر مستقبل، وهذا هو الاستعمال الشائع الأغلب، والآية هنا تحتمل المعنيين، فقوله: {وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ} [(٥١) سورة الأنعام] يمكن أن يفسر بمعنى العلم أي: يعلمون أنهم يحشرون إلى الله -تبارك وتعالى- فيدخل بهذا أهل الإيمان ويدخل فيه أيضاً من كان مؤمناً بالبعث كأهل الكتاب.

ويفسر الخوف بالمعنى الآخر -أي الخوف بمعناه الشائع الأغلب- فيكون على هذا شاملاً لمن كان من أهل الإيمان ولمن لم يؤمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه يخاف أن يحشر إلى الله -عز وجل- فتكون صفقته خاسرة، أي أنه قد لا يؤمن بالنبي -صلى الله عليه وسلم- لكنه يغتم لتوقعه المكروه في الآخرة، فهو يريد أن يبحث عن مخرج يحصل به خلاصه إن حصل البعث، ومثل هؤلاء قد ينتفعون ويتأثرون بالقرآن، والآية تحتمل المعنيين كما سبق، والله أعلم.

{لَيْسَ لَهُم} **[(٥١) سورة الأنعام]** **أي: يومئذ** **{مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ}** **[(٥١) سورة الأنعام]** **أي: لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم** **{لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** **[(٥١) سورة الأنعام]** **أي: أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله -عز وجل- لعلهم يتقون فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.**

سبق في (لعل) أنها يمكن أن تكون للترجي ويمكن أن تكون للتعليل، فعلى الأول يكون قوله: **{لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}** [(٥١) سورة الأنعام] أي على رجائك، وبهذا يكون روعي فيها حال المخاطب، وعلى أنها للتعليل يكون المعنى من أجل أن يتقوا الله -عز وجل- أو يتقوا اليوم الآخر.

وقوله تعالى: **{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}** **[(٥٢) سورة الأنعام]** **أي: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك بل اجعلهم جلساءك وأخصَّاءك، كقوله:** **{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}** **[(٢٨) سورة الكهف].**

وقوله: **{يَدْعُونَ رَبَّهُم}** **[(٥٢) سورة الأنعام]** **أي: يعبدونه ويسألونه.**

في قوله: **{يَدْعُونَ رَبَّهُم}** **[(٥٢) سورة الأنعام]** قال الحافظ: "**أي يعبدونه ويسألونه**" وهو بهذا جمع بين المعنيين؛ وذلك أن الدعاء نوعان: دعاء المسألة ودعاء العبادة، ولهذا قال بعض السلف: إن المراد بالدعاء في هذه الآية الصلاة مطلقاً، وبعضهم فسره ببعض الصلوات، أي التي تكون بالغداة والعشي، وبعضهم فسره بذكر الله -عز وجل- أي أن قوله: **{يَدْعُونَ رَبَّهُم}** [(٥٢) سورة الأنعام] يعني يذكرونه في أول النهار وفي آخره، والصحيح أن كل ذلك داخل فيه أعني يدخل فيه دعاء المسألة ودعاء العبادة بصلاتهم وذكرهم وقراءتهم وسؤالهم وغير ذلك مما يتقربون به إلى الله -تبارك وتعالى-.

وقوله تعالى: **{يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}** [(٥٢) سورة الأنعام] دليل على إخلاصهم لله تعالى في عبادتهم.

سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية هو ما أخرجه الإمام مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: إنها نزلت في ستة نفر منهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وذلك أن المشركين من الكبراء يطلبون من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن ينحي هؤلاء عنهم لئلا يجترئوا عليهم، بمعنى أن هؤلاء من الضعفة والفقراء وأولئك يأنفون من الجلوس معهم فكرهوا أن يجلسوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه هؤلاء خوفاً من أن يجترئوا عليهم فتسقط منزلتهم وهيبتهم في نفوسهم بالمجالسة، فوقع في نفس رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ما وقع وحدث نفسه بذلك، فأنزل الله: **{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ}** [(٥٢) سورة الأنعام][1].

والنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما فكر في هذا أو همّ به كان مقصوده هو استصلاح هؤلاء القادة والسادة من كبراء المشركين فيسلم قومهم، فنهاه الله -عز وجل- عن ذلك، كما قال تعالى في السورة الأخرى:

[1] - أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب في فضل سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- (٢٤١٣) (ج ٤ / ص ١٨٧٨).

{عَبَسَ وَتَوَلَّى* أَن جَاءهُ الْأَعْمَى* وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى* أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى* أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى* فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى} [(١-٦) سورة عبس] أي: تتصدى لدعوته ومجالسته واستقباله، فالمقصود أن الله تعالى عاتبه بذلك.

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني في الكبير وهو مخرّج أيضاً في ابن ماجه أن ذلك وقع بسبب أن بعض الكبراء من غير قريش كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن مروا بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده بعض الضعفة مثل خباب وبلال وعمار وصهيب -رضي الله تعالى عنهم- فطلبوا من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد هؤلاء من أجل أن يجلسوا معه ويسمعوا منه، وهذه الرواية صححها الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- وهي غريبة[٢]؛ لأن هذه السورة مكية، ولهذا قال بعضهم: إن هذه الآية من الآيات المدنية.

والجواب عن هذا -إن صحت الرواية- أنه يمكن أن يقال: إن الآية قد تنزل أكثر من مرة، -كما ذكرنا في مناسبات شتى- ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ} [(١٢٦) سورة النحل] فإنها نزلت في يوم أحد لما مُثِّل بحمزة، والروايات في هذا كثيرة جداً -وإن كانت لا تخلو من ضعف لكن تتقوى بمجموعها- ونزلت كذلك في عام الفتح لما قال سعد بن عبادة -وكان يحمل راية الخزرج-: اليوم ذهبت قريش، فبلغ ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- فأخذ الراية منه وأعطاها لابنه قيس، فنزلت الآية.

ومن الأمثلة أيضاً أن المشركين قالوا: صف لنا ربك فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص] وورد أن اليهود قالوا ذلك أيضاً فنزلت: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [(١) سورة الإخلاص].

وكذلك قوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ} [(٨٥) سورة الإسراء] ورد أنها نزلت بمكة بسبب سؤال المشركين، وورد أنها نزلت بعد سؤال اليهود في المدينة، وكل ذلك من الأسباب الصحيحة الصريحة، فالآية قد تنزل أكثر من مرة، ولذلك فهذه الآية قد تكون نزلت مرتين -ولا إشكال في هذا- بأن طلب رؤساء المشركين في مكة من النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يطرد عنهم هؤلاء الضعفة ووقع أيضاً من غيرهم كالأقرع بن حابس إلى آخره، وإنما نقول ذلك لتباعد الزمان وإلا لو كان متقارباً لقيل لعله حصل هذا وهذا فنزلت الآية بعده.

وأظن أن هذا الذي أشرت إليه آنفاً هو أحسن من الترجيح وأحسن من رد هذه الرواية بالكلية أو القول بأن السورة مكية وأن الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن لم يسلما ولم يأتيا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا في المدينة، والمقصود أن هذا الوجه من الجمع لا إشكال فيه.

ومن أوضح ما يدل على أن الآيات قد تنزل أكثر من مرة أن السور المكية التي فيها أوجه من الأحرف لا شك أنها نزلت مرة أخرى في المدينة وهذا أمر لا إشكال فيه إطلاقاً -أعني الأحرف الستة- وبهذا الاعتبار يمكن أن يقال: إن الآية نزلت مرتين، مرة بسبب قول المشركين ومرة بسبب قول اليهود.

وهذه الآية تشبه ما ذكره الله -عز وجل- عن نوح -صلى الله عليه وسلم- وما قال له قومه وما أجابهم به حيث طلبوا منه أن يطرد الضعفاء واتهموهم بأنهم ما يأتون إلا لحاجة من الدنيا، فنوح -صلى الله عليه

---

[2] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد - باب مجالسة الفقراء (٤١٢٧) (ج ٢ / ص ١٣٨٢) والطبراني (٣٦٩٤) (ج ٤ / ص ٧٥) وابن أبي شيبة (ج ١ / ص ٣١٨).

وسلم- قال لهم: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ} [(١١٤) سورة الشعراء] وقال: {وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(٢٩) سورة هود] وهؤلاء كانوا يتهمون جلساء النبي -صلى الله عليه وسلم- الضعفاء أنهم جاءوا من أجل طعام يأكلونه أو شيء من متاع الدنيا، ولهذا قال بعده: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ} [(٥٢) سورة الأنعام] وهناك قال: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي} [(١١٣) سورة الشعراء] أي: أنا لست الذي أحاسبهم وإنما الله هو الذي يعلم نيات الخلق ويجازيهم على مقاصدهم وأعمالهم، فنحن ليس لنا إلا الظاهر وهو أن هؤلاء أناس دخلوا في الإيمان ولا يجوز إبعادهم من أجل السادة والكبراء.

{بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [(٥٢) سورة الأنعام] قال سعيد بن المسيب ومجاهد والحسن وقتادة: المراد به الصلاة المكتوبة، وهذا كقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [(٦٠) سورة غافر] أي: أتقبل منكم.

وقوله: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: يريدون بذلك العمل وجهَ الله الكريم، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات.

وقوله: {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ} [(٥٢) سورة الأنعام] كقول نوح -عليه السلام- في جواب الذين قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ* قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ* إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ} [(١١١-١١٣) سورة الشعراء] أي: إنما حسابهم على الله -عز وجل- وليس عليَّ من حسابهم من شيء، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء.

وقوله: {فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [(٥٢) سورة الأنعام] أي: إن فعلت هذا والحالة هذه.

وقوله: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض.

يقول: "**وقوله: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض**" يعني أن الله -عز وجل- ابتلى الفقراء بالأغنياء وابتلى الأغنياء بالفقراء، وابتلى الضعفاء بالأقوياء والأقوياء بالضعفاء، فإذا رأى الأقوياءُ الضعفاءَ قد سبقوهم للإيمان استنكفوا واستكبروا وقالوا: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [(١١) سورة الأحقاف] والفقراء حينما يرون الأغنياء وما أعطاهم الله -عز وجل- من الإمكانات والأموال وما أشبه ذلك قد يفتتون بهذا، فالله -عز وجل- ابتلى الناس بعضهم ببعض كما قال في آخر سورة الأنعام: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] ففاوت بين الخلق في الأرزاق والقدر والإمكانات من أجل أن يبتلي بعضهم ببعض، فهؤلاء يبتلون بهؤلاء وهؤلاء يبتلون بهؤلاء، فالغني يأتيه الفقير فيكون قد ابتلي به حيث ينظر الله -عز وجل- كيف يرد عليه، والفقير قد ابتلي بالغني يراه يُنَعَّم وهو يتشحط في الفقر لا يجد شيئاً يأكله فينظر الله -عز وجل- في صبره ورضاه عنه وثقته بما عنده، وهل يحسن ظنه بربه -تبارك وتعالى- أم لا، وكل هذا من الابتلاء الذي يبتلى به الخلق.

يقول تعالى: {فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ} [(٥٣) سورة الأنعام] وكأن اللام هذه لام العاقبة كقوله -تبارك وتعالى-: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [(٨) سورة القصص] وذلك أنهم ما أخذوه من أجل أن يكون لهم عدواً بل لو علموا بهذا لقتلوه من البداية لكن العاقبة هي التي كانت كذلك.

ومن أمثلة ذلك أن تقول لإنسان: تأخذ هذا معك أو تشتري هذا ليشغلك عما أنت بصدده، فهو ما أخذه ليشغله عما هو بصدده، لكنك تريد أن العاقبة ستكون هكذا.

ومن ذلك قولك: تصحب فلاناً ليقعدك عن معالي الأمور، فهو ما صحبه ليقعده، لكنك تريد أيضاً أن العاقبة ستكون هكذا.

ومن ذلك قوله تعالى: {وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَىَ بَعْضٍ قَالُواْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] فقولهم: {لِيُحَآجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ} [(٧٦) سورة البقرة] اللام للعاقبة بمعنى أن تلك المحاجة ستكون في العاقبة.

والخلاصة أن اللام في قوله تعالى: {لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] إما أن تكون للعاقبة بمعنى أنهم يقولون ذلك في النهاية، وإما أن تكون للتعليل، والعلم عند الله -عز وجل-.

{لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] وذلك أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان غالب من اتبعه في أول بعثته ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل، كما قال قوم نوح لنوح -عليه السلام-: {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ} الآية [(٢٧) سورة هود] وكما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان حين سأله عن تلك المسائل فقال له: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل.

وبهذا يحصل الابتلاء وإلا لو آمن الرؤساء والكبراء من أول الأمر لتبعهم مَن تحت أيديهم وتحت ولايتهم، أما وقد آمن الضعفاء وبقي الكبراء يخافون على رئاساتهم ومراتبهم ومكانتهم وما كانوا يتعاطونه من أخذ أموال الناس بالباطل وما أشبه ذلك فبهذا حصل الابتلاء، ولذلك كان أكثر أهل الجنة من الضعفاء، وأكثر أهل النار من الكبراء، والله المستعان.

والغرض أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ويعذبون من يقدرون عليه منهم، وكانوا يقولون: {أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير -لو كان ما صاروا إليه خيراً- ويدعنا، كقولهم: {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ} [(١١) سورة الأحقاف] وكقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا} [(٧٣) سورة مريم] قال الله تعالى في جواب ذلك: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا} [(٧٤) سورة مريم] وقال في جوابهم حين قالوا: {أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا} [(٥٣) سورة الأنعام]: {أَلَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [(٥٣) سورة الأنعام] أي: أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [(٦٩) سورة العنكبوت].

وفي الحديث الصحيح: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))[3].

وقوله: {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي: فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم.

---

[3] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) (ج ٤ / ص ١٩٨٦).

قوله تعالى: **{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ}** [(٥٤) سورة الأنعام] لا يختص بالضعفاء الذين طلب الكبراء طردهم وإنما هذا في عموم أهل الإيمان، يعني ليس المراد: وإذا جاءك هؤلاء الذين نهيتك عن طردهم فقل: سلام عليكم، وإنما ذلك في عموم المؤمنين؛ لأنه لو كان المراد أولئك الضعفاء الذين قال له عنهم: **{وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ}** [(٥٢) سورة الأنعام] لقال: وإذا جاءوك فقل سلام عليكم، ولكنه قال: **{وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يعنى أن ذلك في عموم أهل الإيمان.

ولهذا قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [(٥٤) سورة الأنعام] أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً {أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [(٥٤) سورة الأنعام] كل من عصى الله فهو جاهل.

على هذه القراءة -بفتح الهمزة- في قوله **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] تكون هذه الجملة بدلاً من الرحمة هكذا: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة..." الخ، وقراءة الفتح هي قراءة الثلاثة عاصم وابن عامر ونافع.

وعلى قراءة بقية السبعة -بكسر الهمزة- **(كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ مَن عَمِلَ)** تكون جملة **(إِنَّهُ مَن عَمِلَ..)** الخ جملة استئنافية لكنه استئناف بياني مبين للرحمة هكذا: "وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة والمراد بهذه الرحمة إنه من عمل منكم سوءاً بجهالة..." الخ.

وفي قوله: **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "**كل من عصى الله فهو جاهل**" وهذا أحسن ما تفسر به -والله تعالى أعلم- وذلك أنه لا يصلح أن يكون المقصود به هنا انعدام العلم؛ لأن الجهل بهذا المعنى من أسباب عدم المؤاخذة؛ فالتكليف من شروطه العامة البلوغ والعقل وفهم الخطاب، وإن شئت فقل: العلم، وإن شئت فقل: بلوغ الحجة، فإذا كان الإنسان لم يعلم بذلك فهو غير مؤاخذ ما لم يكن مفرطاً.

وإذا أردنا أن نربط الجهل في الآية بالمعنى المعروف فإنه يأتي بمعنى التعدي كما قال القائل:

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقوله: ألا لا يجهلن أحدٌ علينا أي: لا يتعدى أحد علينا، كما أن مجاوزة حدود الله -عز وجل- تُعدُّ من الجهل أيضاً.

وإذا أردنا أن نربط الجهل بالمعنى الأول الذي هو ذهاب العلم فيقال: كل من عصى الله فهو جاهل؛ لأنه لو عرف عظمة الله -تبارك وتعالى- على الحقيقة ما اجترأ على معصيته، ولذلك كان كل من عصاه جاهلاً بهذا الاعتبار.

فقوله: **{أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ}** [(٥٤) سورة الأنعام] أي: عصى الله -عز وجل- ولو كان يعلم أنها معصية.

وقوله: **{ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ}** [(٥٤) سورة الأنعام] يقبل منه ذلك؛ لأن التوبة تجبّ ما كان قبلها، أما إذا فعل الإنسان الشيء وهو لا يعلم أنه محرم فهذا لا يحتاج إلى توبة؛ لأن وقوع ذلك منه لا يصيره عاصياً، لأن هناك فرقاً بين فعل المعصية وبين أن يكون الإنسان عاصياً بفعلها، ولذلك فإن في إنكار المنكر إذا شرب الطفل الخمر فإن الذي يُحاسب على ذلك هو وليه ولكن لا يترك الطفل يشربها بحجة أنه غير مكلف بل يؤخذ

على يديه ويمنع منها؛ لأن المعصية يُطلب رفعها ودفعها وليس بالضرورة أن تكون تلك المعصية قد صدرت من عاصٍ أو مَن يُحكم عليه بالمعصية أو الفسوق، ومثال ذلك أن يأكل ويشرب في نهار رمضان ناسياً أنه صائم؛ فإنّ فعله هذا منكر لكن فاعله غير عاص، ومع ذلك فإن على من رآه يأكل ويشرب أن يذكره الصيام ولا يتركه بحجة أنه أطعمه الله وسقاه؛ لأن الأكل والشرب في نهار رمضان يعتبر منكراً.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه لا يصح أن يترك الصبي يسبل ثيابه أو يلبس بنطلون جينز ويظهر في هيئة منكرة بحجة أنه طفل صغير بل يؤمر أن يلبس فوق الكعبين ويمنع من لبس الأشياء التي يتشبه فيها بأعداء الله -عز وجل-؛ لأن وجود هذه الأمور منكر يجب رفعه ولو كان الطفل لا يزال صغيراً، والمحاسب على هذا هو وليه، والله أعلم.

{ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ} [(٥٤) سورة الأنعام] **أي: رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل.**

يقول: "أي: **رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود**" هذه قيود مهمة في التوبة الصادقة؛ وهي من علامات التوبة الصحيحة التي لا يكون فيها تردد.

قوله: "**وأصلح العمل في المستقبل**" أي أن عليه أن يصلح العمل بعد هذه التوبة، فإذا كان الذنب فيه إفساد متعدٍّ فإنه يصلح ما أفسده، بحيث إذا كان العمل بدعة نشرها أو مجوناً نشره أو ضلل الناس بأي طريق من طرق الشبهات أو الشهوات فعليه أن يصلح ما أفسده.

{فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(٥٤) سورة الأنعام] **روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي)) [أخرجاه في الصحيحين]**[4].

قوله: **{فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}** [(٥٤) سورة الأنعام] على هذه القراءة -بالفتح- وهي قراءة ابن عامر وعاصم تكون أن وما بعدها خبر مبتدأ محذوف، ويمكن أن يقدر فيقال: فأمْره أن الله غفور رحيم.

وعلى قراءة الكسر **(فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)** وهي قراءة بقية السبعة تكون جملة استئنافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب ما جاء في قول الله تعالى: **{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}** [(٢٧) سورة الروم] (٣٠٢٢) (ج ٣ / ص ١١٦٦) ومسلم في كتاب التوبة - باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥١) (ج ٤ / ص ٢١٠٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَات وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ* قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللّه قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ* قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّه يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ* قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ* وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} [(٥٥-٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد، {كَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ} [(٥٥) سورة الأنعام] أي: التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [(٥٥) سورة الأنعام] أي: ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل، وقُرئ: (وليستبين سبيل المجرمين) أي: وليستبين يا محمد أو يا مخاطب سبيل المجرمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [(٥٥) سورة الأنعام] هذه قراءة الجمهور برفع {سَبِيلُ} باعتبار أنه فاعل، أي لتظهر سبيل المجرمين، والسبيل هي الطريق تُذكَّر وتؤنث.

وقرأ نافع بنصب سبيل هكذا: (ولتستبين سبيلَ المجرمين) أي: ولتستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، يعني لتعرفها وتتبينها، والفرق بين القراءتين واضح.

وهناك قراءة أخرى بالياء (وليستبين سبيلُ المجرمين) والمعنى واحد في القراءتين باعتبار أن {سبيل} فاعل أي: تظهر وتتكشف بما يبينه الله -عز وجل- ويظهره فتكون لا خفاء فيها.

أما على قراءة (ولتستبين سبيلَ المجرمين) بمعنى ولتستبين يا محمد طريقَ المجرمين أي: لتعرفها، فـ{سبيلَ} على هذه القراءة تكون مفعولاً به.

وقوله: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليَّ {وَكَذَّبْتُم بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: بالحق الذي جاءني من الله.

قوله: {إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] قال ابن كثير: "أي: **بالحق الذي جاءني من الله**" والحق الذي جاء به هو القرآن، وبعضهم يقول: {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي: بربي الله، وبعضهم يقول: بالقرآن، وبعضهم يقول: بالبينة المذكورة في قوله: {إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: بالبينة،

وإن كانت البينة مؤنثة فإن الضمير رجع إليها مذكراً باعتبار المعنى أي أن البينة بمعنى البرهان وهو مذكر، ومعلوم أنه قد يعود الضمير مذكراً باعتبار المعنى، وبعضهم يقول: قوله: {وَكَذَّبْتُم بِهِ} أي: بالعذاب.

{مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: من العذاب {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عجَّل لكم ما سألتموه من ذلك وإن شاء أنظركم وأجَّلكم لما في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال: {يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده.

يقول: {يَقُصُّ الْحَقَّ} على قراءة نافع وابن كثير وعاصم بالصاد، ويمكن أن يكون المعنى {يَقُصُّ الْحَقَّ} من القصص كما قال تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} [(٣) سورة يوسف]، ويمكن أن يكون من قص الأثر بمعنى تبعه، أي: يتبع الحق فيما يحكم به بينكم.

وفي القراءة الأخرى المتواترة (يقضِ) بالضاد من القضاء بمعنى يحكم ويفصل، وهذا معروف.

وقوله: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(٥٨) سورة الأنعام] أي: لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك.

قوله تعالى: {وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [(٥٧) سورة الأنعام] أي: خير الحاكمين، وهذه الخاتمة قرينة على تفسير القصِّ بالاتِّباع، وإن كان هذا ليس بلازم، لكن يمكن أن يقول هذا من قال: إن القص هنا من الاتّباع أي: تبع أثره بمعنى يتبع الحق فيما يحكم بينكم فيه.

كما أنه يمكن أن تكون خاتمة هذه الآية قرينة على القراءة الأخرى (يقضِ) التي بمعنى يحكم فيقال: إن المعنى: إنه يحكم الحق وهو خير الحاكمين.

وعلى كل حال فالقاعدة أنه إذا كان للآية أكثر من قراءة وكان لكل قراءة معنى يخصها فإن تعدد القراءات بمنزلة تعدد الآيات.

وقوله: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [(٥٨) سورة الأنعام] أي: لو كان مرجع ذلك إليّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك {وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} [(٥٨) سورة الأنعام].

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: ((لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفس على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني، فنظرت فإذا فيها جبريل -عليه السلام- فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت، إن شئت

أطبقت عليهم الأخشبيْن)) فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)) وهذا لفظ مسلم[1].

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم وسأل لهم التأخير؛ لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئاً، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: {قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمينَ}؟ [(٥٨) سورة الأنعام]

فالجواب -والله أعلم- أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذي يطلبونه حال طلبهم له لأوقعه بهم، وأما الحديث فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبيْن -وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوباً وشمالاً-، فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم.

الجواب واضح، وهو أنهم في هذه الآية طلبوا العذاب فقال: لو أنه عندي لأتيتكم به، وأما في الحديث فإنه لقي منهم هذا الإعراض والتكذيب فأصابه الهم بسبب ذلك فجاءه الملك فعرض عليه أن يعجل العقوبة لهم أو يفعل بهم ما شاء فاستأنى بهم، أي أن الحديث كان لمّا لم يؤمنوا وليس عند طلبهم العذاب، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ} [(٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ}** [(٥٩) سورة الأنعام] المِفتح -بكسر الميم- يمكن أن تجمع على مفاتيح ومفاتح، وأما المَفتح -بفتح الميم- فلا تجمع إلا على مفاتِح، ولذلك يحتمل أن تكون المفاتِح هنا جمع مَفْتَح وعلى هذا فهي الخزانة فيكون قوله: **{وَعِندَهُ مَفَاتِحُ}** أي: خزائن الغيب، ويحتمل أن تكون جمع مِفْتَح وعلى هذا تكون مفاتح جمع مفتاح، وهذا كله معروف في كلام العرب، وبين المعنيين ملازمة لا تخفى؛ فإن مخازن الشيء قد لا يتوصل إليها إلا بفتحها بمفاتيحها، فالله -عز وجل- عنده مفاتح الغيب -بمعنى خزائن الغيب- وعنده مفاتيح الغيب، والله تعالى أعلم.

.روى البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله {إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [(٣٤) سورة لقمان]))[2].

وقوله: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٥٩) سورة الأنعام] أي: محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريِّها وبحريِّها لا يخفى عليه من ذلك شيء، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٥٩) (ج ٣ / ص ١١٨٠) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٥) (ج ٣ / ص ١٤٢٠).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥١) (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

وقوله: {وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا} [(٥٩) سورة الأنعام] أي: ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنُّك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [(١٩) سورة غافر].

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ* ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [(٦٠-٦٢) سورة الأنعام]

يقول تعالى: إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى: {إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [(٥٥) سورة آل عمران] وقال تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [(٤٢) سورة الزمر] فذكر في هذه الآية الوفاتين الكبرى والصغرى وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى.

سبق الكلام في غير موضع من التفسير أن الوفاة لها معنى لغوي وهو الاستيفاء، ولها معنى شرعي وهو الموت، ويكون الموت بالوفاة الكبرى أي بخروج الروح من الجسد، ويكون بالوفاة الصغرى أي بارتفاعها عن الجسد ارتفاعاً خاصاً غيبياً ينتفي معه الإدراك مع بقاء الحياة، وهذا هو المعنى الشرعي، وقد ذكرنا في قوله -تبارك وتعالى-: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} [(٥٥) سورة آل عمران] أن الأصل أن يحمل التوفي على المعنى الشرعي فإن لم يوجد فإنه يلجأ بعد ذلك إلى العرف أو اللغة، والذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- هنا هو المعنى الشرعي؛ لأن الله تعالى يقول: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ} [(٤٢) سورة الزمر].

وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

فسر الاجتراح هنا بالكسب، وأصل الاجتراح هو اكتساب الإنسان بالجارحة، أي: باليد أو بالرجل أو بالفم، فاكتسابه بالجوارح هو الاجتراح، ثم بعد ذلك تُوسِّع في استعمال هذه اللفظة فصار ذلك يطلق على كل اكتساب ولو كان بغير هذه الجوارح، وعلى هذا فقوله: {وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ما كسبتم بأي طريق كان.

وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى فقال: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم، في حال سكونهم وحال حركتهم كما قال: {سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [(١٠) سورة الرعد] وكما قال تعالى: {وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ} [(٧٣) سورة القصص] أي: في الليل، {وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ} أي: في النهار، كما قال: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا} [(١٠-

١١) سورة النبأ] ولهذا قال تعالى هاهنا: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ما كسبتم من الأعمال فيه.

يقول ابن كثير -رحمه الله-: "**وهذه جملة معترضة**" وعلى هذا يكون المعنى وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم ليُقضى أجل مسمى، وتكون الجملة المعترضة -أعني قوله: **{وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ}** [(٦٠) سورة الأنعام]- لتقرير هذا المعنى وتوضيحه وما إلى ذلك.

{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: في النهار.

قوله: "**أي: في النهار**" هذا قال به أيضاً كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وقال ابن كثير: قاله مجاهد وقتادة والسدي.

وبعضهم يقول: في الآية تقديم وتأخير، والتقدير يكون هكذا: وهو الذي يتوفاكم بالليل ثم يبعثكم بالنهار ويعلم ما جرحتم فيه بعد انقضاء الليل، فينتشرون في مصالحهم كما ذكر الله -عز وجل- بأنه جعل النهار معاشاً، وأما الليل فهو يسبتون فيه وينقطعون فيه عن الأشغال والأعمال ويخلدون فيه إلى الراحة.

وبعضهم يقول: إن قوله: **{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ}** [(٦٠) سورة الأنعام] أي: في المنام.

وقوله: {لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى} [(٦٠) سورة الأنعام] يعني به أجل كل واحد من الناس.

الأجل المسمى هنا يراد به الموت، وهو أحسن ما يفسر به، وهو اختيار ابن جرير -رحمه الله- وما عداه من الأقوال ففيها بعد.

{ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي يوم القيامة {ثُمَّ يُنَبِّئُكُم} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: فيخبركم {بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(٦٠) سورة الأنعام] أي: ويجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وقوله: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [(٦١) سورة الأنعام] أي: وهو الذي قهر كل شيء، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء.

{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً} أي: من الملائكة يحفظون بدن الإنسان.

سبق في قوله تعالى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}** [(١٨) سورة الأنعام] أن المراد بالفوقية فوقية الذات، وفوقية القدر والمنزلة، وفوقية القهر.

كقوله: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ} [(١١) سورة الرعد] وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كقوله: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ} الآية [(١٠) سورة الانفطار] وكقوله: {إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ* مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [(١٧-١٨) سورة ق].

يعني أنه لم يحدد هنا من ماذا يحفظونهم الحفظة حيث قال: **{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً}** وأحسن ما يفسر به القرآن القرآن، وقد جاء في القرآن أن هؤلاء الحفظة يحفظون جسده حيث قال تعالى: **{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ}** [(١١) سورة الرعد]، وجاء أيضاً في مواضع أخرى أنهم يحفظون عمله، قال تعالى: **{مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}** [(١٨) سورة ق] وقال تعالى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ}** [(١٠) سورة الانفطار].

وقوله: {حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} [(٦١) سورة الأنعام] أي: احتضر وحان أجله {تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [(٦١) سورة الأنعام] أي: ملائكة موكلون بذلك.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة.

هذا جواب على سؤال مقدر وهو أن الله -عز وجل- قال: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ}** [(١١) سورة السجدة] فهو واحد، وهنا قال الله -عز وجل-: **{تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}** [(٦١) سورة الأنعام] بالجمع فكيف الجمع بين الآيتين؟

يكون الجواب أن ملك الموت له أعوان من الملائكة، فأضيف ذلك الجمع إليهم بهذا الاعتبار، ولما قال تعالى: **{قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ}** [(١١) سورة السجدة] فهذا باعتبار أنه الموكل بهذا وهو كبيرهم ورئيسهم.

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: لملك الموت أعوان من الملائكة يُخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا انتهت إلى الحلقوم.

وقوله: {وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ} [(٦١) سورة الأنعام] أي: في حفظ روح المتوفى، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله -عز وجل-، إن كان من الأبرار ففي عليين، وإن كان من الفجار ففي سجين، عياذاً بالله من ذلك.

وقوله: {ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ} [(٦٢) سورة الأنعام].

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا تزال يقال لها ذلك حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله -عز وجل-، وإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول))[3].

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {ثُمَّ رُدُّواْ} [(٦٢) سورة الأنعام] يعني الخلائق كلهم {إِلَى اللّهِ} يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله، كما قال: {قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ* لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ} [(٤٩-٥٠) سورة الواقعة] وقال: {وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [(٤٧) سورة الكهف] إلى قوله: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [(٤٩) سورة الكهف] ولهذا قال: {مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [(٦٢) سورة الأنعام].

يقول: **{وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}** [(٦٢) سورة الأنعام] باعتبار أنه -تبارك وتعالى- لا يحتاج إلى عد ولا يحتاج إلى مدة يحسب فيها الأعمال على كثرتها وكثرة المحاسبين من الخلائق مع كثرة جرائمهم وأعمالهم، فحساب

---

3 - أخرجه أحمد (٨٧٥٤) (ج ٢ / ص ٣٦٤) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

هذه النفوس الكثيرة كحساب نفس واحدة، وهذا يدل على كمال قدرته -جل وعلا- وأنه لا يعجزه شيء ولا يتعاصاه شيء.

{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ* قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [(٦٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: **{قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** الظلمة معروفة وهي ضد النور، وفسرها بعض أهل العلم هنا بخفاء الطريق وانطماس معالمها، والمعنى إذا تاهوا في البر أو في البحر، وعلى كل حال فالعرب تعبر بالظلمات عن الشدائد فيقولون: يوم مظلم، وربما قالوا في اليوم الشديد: يوم ذو كواكب، بمعنى أن ذلك اليوم لشدة ظلمته يُحتاج فيه إلى الكواكب، يعني إذا لم يوجد القمر فإنهم يضطرون إلى الكواكب لشدة الظلمة، ويعبرون بذلك أو يكنون به عن اليوم الذي فيه كرب شديد.

وعلى كل حال فإن الله تعالى قال: **{مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** [(٦٣) سورة الأنعام] ثم قال بعده: **{قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ}** [(٦٤) سورة الأنعام] وهذا يكون كالتفسير لما قبله باعتبار أن ظلمات البر والبحر هي كروب البر والبحر، أي ما يحصل للإنسان فيها من الكرب سواء كان ذلك إذا ضل فيها فهذا يعني أنه قد وقع في شدة؛ لأن الهلاك ينتظره، ويمكن أن يكون المراد بذلك أيضاً هي الكروب كما فسره بعضهم، وليس بين هذه المعاني منافاة، بمعنى أنه إن غابت عنه العلامات التي يعرف بها الطريق فلم يهتدِ إليها وضل في طريقه، أو كان ذلك بشدةٍ تقع له بأي لون كان سواء أوشك على الغرق أو وقع في مَسْبَعة في البر، أو غير ذلك من الأمور فكل هذا من كروب البر والبحر.

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر أي الحائرين الواقعين في المَهامِه البرية وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له كقوله: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ} الآية [(٦٧) سورة الإسراء] وقوله: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} الآية [(٢٢) سورة يونس] وقوله: {أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [(٦٣) سورة النمل] وقال في هذه الآية الكريمة: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} [(٦٣) سورة الأنعام] أي: جهراً وسراً {لَّئِنْ أَنجَانَا} [(٦٣) سورة الأنعام] أي: من هذه الضائقة {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [(٦٣) سورة الأنعام]أي: بعدها.

قوله: **{لَّئِنْ أَنجَانَا}** [(٦٣) سورة الأنعام] هذه قراءة الكوفيين، وعلى قراءة أهل المدينة وأهل الشام **(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا)** [(٦٣) سورة الأنعام] والمعنى يرجع إلى شيء واحد، فإن قالوا: **{لَّئِنْ أَنجَانَا}** [(٦٣) سورة الأنعام] فالمقصود: الله، وإن قالوا: **(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا)** [(٦٣) سورة الأنعام] فباعتبار الخطاب.

وعلى قراءة {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} [(٦٣) سورة الأنعام] يكون هذا من قبيل الالتفات من الغائب إلى المخاطب كما في سورة الفاتحة: {الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ} [(٢-٣) سورة الفاتحة] يعني هو الرحمن الرحيم، ثم قال: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [(٤) سورة الفاتحة] يعني هو مالك يوم الدين، ثم قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] فهنا توجه الخطاب إليه، وفي قوله: {مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ} [(٦٣) سورة الأنعام] جاء الكلام بضمير الغيبة، ثم قال: {لَئِنْ أَنجَيْتَنَا} [(٢٢) سورة يونس] توجه بالخطاب إليه أيضاً، وهذا أسلوب معروف في القرآن وهو كثير، وهذا الالتفات سواء كان من الغائب إلى المخاطب أو العكس، أو بغير هذا من أنواع الالتفات كله معروف عند العرب، والله أعلم.

قال الله: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] أي: تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى.

الكرب بمعنى الغم، فقول الله -عز وجل-: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} [(٦٤) سورة الأنعام] أي: من كل غم وشدة وضيق كما قال عنترة:

ومكروب كشفت الكرب عنه ... بطعنة فيصل لما دعاني

يعني ومغتم كشفت الكرب عنه.

قوله تعالى: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ} [(٦٤) سورة الأنعام] المحترزات في القرآن تقع في كل موضع بحسبه، فقد يفهم من قوله: {قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا} [(٦٤) سورة الأنعام] أي أنه ينجيكم من ظلمات البر والبحر خاصة، لكنه بيّن أنه ينجيكم من جميع الكروب وليس من هذه التي ذكرت فقط.

وقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] لما قال: {ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] عقبه بقوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا} [(٦٥) سورة الأنعام] أي: بعد إنجائه إياكم، كقوله في سورة سبحان: {رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا* وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا* أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً* أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا} [(٦٦-٦٩) سورة الإسراء].

قوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] الخطاب {عَلَيْكُمْ} هل يرجع إلى المسلمين أو يرجع إلى غيرهم؟ ابن جرير -رحمه الله- يقول: إن هذا الخطاب متوجه إلى المشركين المكذبين، واحتج لذلك بما سبق من قوله -تبارك وتعالى-: {ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ} [(٦٤) سورة الأنعام] فيقول: هؤلاء الذين إذا ركبوا في البحر أو وقع لهم شدة في البر دعوا الله -عز وجل- وأفردوه بالعبادة فإذا حصلت لهم النجاة والخلاص رجعوا إلى تكذيبهم وشركهم، وعلى هذا فقوله: {أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] يعني يا أهل الإشراك ومن سلك سبيلهم في التكذيب ومعارضة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

روى البخاري –رحمه الله تعالى– في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [(٦٥) سورة الأنعام] {يَلْبِسَكُمْ}: يخلطكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً[4].

بمعنى أن الله –عز وجل– يجعلهم على أهواء مختلفة مختلطة حيث تختلف آراؤهم الاختلاف المذموم الذي يحصل به التدابر والتقاطع ثم القتال، فيكون العذاب واقعاً عليهم بهذا الاعتبار، أي أن قوله: **{وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ}** يعني يتسلط بعضهم على بعض وتقع بينهم العداوة والبغضاء فيكون الاقتتال والشر الذي يذوقون فيه هذا العذاب –نسأل الله العافية– كما هو الحاصل في حال هذه الأمة حيث صارت فرقاً وأهواء مختلفة، وحصل بينهم من العداوة والقتال ما لا يخفى، حيث كان ذلك قد وقع منذ أزمان متطاولة –منذ عهد الخلفاء الراشدين –رضي الله تعالى عنهم– بظهور رءوس الفرق، ثم لا زال هذا الأمر يتسع في الأمة وربما لقوا من هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام أشد مما يلقون من اليهود والنصارى وسائر طوائف الكفر والإشراك كما هو مشاهد في هذه الأيام، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

4 – صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

روى البخاري -رحمه الله تعالى- في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [(٦٥) سورة الأنعام] {يَلْبِسَكُمْ}: يخلطكم من الالتباس، يُلْبَسوا: يُخلَطوا، شيعاً: فرقاً[1].

عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما نزلت هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بوجهك)) {أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال: ((أعوذ بوجهك)) {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((هذه أهون أو أيسر)) وهكذا رواه أيضاً في كتاب التوحيد، ورواه النسائي أيضاً في التفسير[2].

حديث آخر:

روى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه- قال: أقبلنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى مررنا على مسجد بني معاوية فدخل فصلى ركعتين، فصلينا معه، فناجى ربه -عز وجل- طويلاً ثم قال: ((سألت ربي ثلاثاً: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها)) انفرد بإخراجه مسلم فرواه في كتاب الفتن[3].

حديث آخر:

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت -رضي الله تعالى عنه- مولى بني زهرة، وكان قد شهد بدراً مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: وافيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في ليلة صلاها كلها حتى كان مع الفجر فسلم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من صلاته فقلت: يا رسول الله، لقد صليت الليلة صلاة ما رأيتك صليت مثلها؟! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أجل إنها صلاة رغب ورهب، سألت ربي -عز وجل- فيها ثلاث خصال، فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي -عز وجل-

---

1 - صحيح البخاري (ج ٤ / ص ١٦٩٣).

2 - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٢) (ج ٤ / ص ١٦٩٤) وفي كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [(٨٨) سورة القصص] (٦٩٧١) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤) وأخرجه النسائي في السنن الكبرى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (١١١٦٤) (ج ٦ / ص ٣٤٠).

3 - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٩٠) (ج ٤ / ص ٢٢١٦).

أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم قبلنا فأعطانيها، وسألت ربي -عز وجل- أن لا يظهر علينا عدواً من غيرنا فأعطانيها، وسألت ربي -عز وجل- أن لا يلبسنا شيعاً فمنعنيها)) ورواه النسائي وابن حبان في صحيحه والترمذي في الفتن وقال: حسن صحيح[4].

وقوله: {أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً} [(٦٥) سورة الأنعام] يعني يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين.

وقال الوالبي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: يعني الأهواء، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة))[5].

وقوله تعالى: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ} [(٦٥) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: يعني يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل.

وقوله تعالى: {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(٦٥) سورة الأنعام] أي نبينها ونوضحها مرة ونفسرها.

{لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} أي: يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه.

{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ* لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ* وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٦-٦٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ} أي: بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فتصريف الشيء يعني أن يؤتى به في صور شتى، وقال في قوله -تبارك وتعالى-: {انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(٦٥) سورة الأنعام] "] أي نبينها ونوضحها" أي أن الله -تبارك وتعالى- يبيّن لهم ما يحتاجون إليه تارة بذكر العبر والعظات بالقصص، وتارة بذكر أحوال الآخرة، وتارة بإبطال شبهات الكافرين، وتارة بضرب الأمثال وما إلى ذلك مما صرفه الله -عز وجل- في هذا القرآن، وذلك كله من أجل حصول الفقه الذي هو بمعنى الفهم، وهو معرفة ما دق من العلم مما يحتاج إلى لطافة ذهن واستنباط.

يقول: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ} [(٦٦) سورة الأنعام] قال الحافظ: "يعني القرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان" وهذا هو الظاهر، والله تعالى أعلم.

ومن أهل العلم من قال: إن الضمير يعود إلى العذاب، أي: كذب قومك بالعذاب؛ وهذا مبني على أن الله -عز وجل- قال في الآية التي قبل هذه: {قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٦٣) سورة الأنعام] ثم قال: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ..} [(٦٥) سورة الأنعام] ثم قال: {وَكَذَّبَ بِهِ} [(٦٦) سورة الأنعام] يعني بالمذكور قبله وهو العذاب، لكن لعل حمْله على القرآن أقرب، والله تعالى أعلم.

---

4 - أخرجه النسائي في كتاب قيام الليل وتطوع النهار - باب إحياء الليل (١٦٣٨) (ج ٣ / ص ٢١٦) وأحمد (٢١٠٩١) (ج ٥ / ص ١٠٨) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح.

5 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن - باب افتراق الأمم (٣٩٩٣) (ج ٢ / ص ١٣٢٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٠٤٢).

{قَوْمُكَ} يعني قريشاً {وَهُوَ الْحَقُّ} [(٦٦) سورة الأنعام] أي: الذي ليس وراءه حق.

{قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [(٦٦) سورة الأنعام] أي: لست عليكم بوكيل ولست بموكل بكم، كقوله: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ} [(٢٩) سورة الكهف] أي: إنما عليَّ البلاغ وعليكم السمع والطاعة، فمن اتبعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن خالفني فقد شقي في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: **{قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ}** [(٦٦) سورة الأنعام] قال بعض أهل العلم: إن هذه من جملة الآيات التي نسخت بآية السيف، وقالوا: إنه أمَر بغير ذلك في آخر الأمر في الآية الخامسة من سورة براءة إذ قال: **{فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ}** [(٥) سورة التوبة] وقالوا: إن هذه الآية نسخت مائة وأربعة وعشرين آية، لكن الأقرب أن هذه لم تنسخ، والله أعلم.

ولهذا قال: {لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ} [(٦٧) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد: أي لكل نبإٍ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال: {وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ} [(٨٨) سورة ص] وقال: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [(٣٨) سورة الرعد] وهذا تهديد ووعيد أكيد؛ ولهذا قال بعده: {وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [(٦٧) سورة الأنعام].

النبأ في الأصل يطلق على الخبر الذي له شأن، وبعضهم يقول: إن النبيّ مأخوذ من هذا؛ لأنه منبأٌ من الله، أو لأنه يأتي بالنبأ من الله، فكل خبر له خطب وشأن يقال له: نبأ، ولا يقال للخبر الحقير أو الذي لا شأن له: نبأ، فلا يقال: جاءنا نبأ حمار الحجَّام -كما يقال- وإنما يقال: جاءنا نبأ المعركة، أو جاءنا نبأ الجيوش، وما أشبه هذا.

وقوله تعالى: **{لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ}** [(٦٧) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره: "**أي لكل نبإٍ حقيقة، أي: لكل خبر وقوع ولو بعد حين**" والمعنى أن له قراراً يستقر عنده ونهاية ينتهي إليها -كما يقول كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- والمعنى أن لكل نبإ مستقراً يستقر إليه ويصير إليه فيتبيّن حقه وصدقه من كذبه وباطله، ومن ذلك الأنباء التي جاء بها القرآن من الوعيد الذي قبل هذه الآية حيث إن الله -تبارك وتعالى- توعدهم بقوله: **{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً}** [(٦٥) سورة الأنعام] وقد وقع بعض ما توعدهم الله -عز وجل- به مما أراد إيقاعه بهؤلاء المكذبين كما حصل لهم في يوم بدر وكما حصل لهم قبل ذلك في مكة من الجوع لما دعا عليهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وغير ذلك مما توعد الله -عز وجل- به المكذبين وأراد إيقاعه بهم، وكذلك ما أخبر الله به من أمر فإنه واقع لا محالة في وقته المحدد فنبأ الآخرة هو من أعظم النبأ وقد أخبر الله عن وقوعها وعما يجري فيها من الأهوال والأوجال وما يحصل فيها من العذاب والنعيم، وكل ذلك سيكون له حقيقة واقعة في الوقت والحين الذي قضى الله -عز وجل- أن يكون فيه، ولهذا قال: **{وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ}** [(٦٧) سورة الأنعام] أي: سترون ذلك وتعرفون حقِّيَّته، والله أعلم.

وقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] أي: بالتكذيب والاستهزاء {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [(٦٨) سورة الأنعام] أي: حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب.

يقول تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] بعضهم يقول: أصله من الخوض في الماء، يعني في المحسوس، ثم استعمل في المعاني للتخليط والدخول في غمرات الأشياء التي لا يحسنها الإنسان ولا ينبغي له أن يدخل فيها سواء كان ذلك من ألوان الأباطيل أو الشبهات أو الأمور التي هي من قبيل المجاهل.

فقوله: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] بمعنى يخلطون ويستهزئون بآياته ويكفرون بها، فالله -عز وجل- نهى عن مجالسة الذين يستهزئون بآياته ويكفرون بها كما قال: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا} [(١٤٠) سورة النساء] فهذا معنى الخوض الذي في قوله: {يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [(٦٨) سورة الأنعام] يعني يستهزئون ويكفرون ويدخل فيه كل لون من ألوان الاستهزاء والكفر والتكذيب، فلذلك قال: {فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء].

{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ} [(٦٨) سورة الأنعام] والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها فإن جلس أحد معهم ناسياً {فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى} [(٦٨) سورة الأنعام] بعد التذكر {مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [(٦٨) سورة الأنعام] ولهذا ورد في الحديث: ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[6].

وهذه الآية هي المشار إليها في قوله: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} الآية [(١٤٠) سورة النساء] أي: إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك فقد ساويتموهم فيما هم فيه.

وقوله: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] أي: إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم.

يقول تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} قال ابن كثير: "أي: **إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم وتخلصوا من إثمهم**" كأنه يقول: وما على الذين يتقون الله من تبعة ووزر يحملونه من أوزار هؤلاء الخائضين إذا اتقوهم بالإعراض عنهم وعدم مجالستهم في هذا الخوض.

ومن أهل العلم من قال: إن المراد: وما على الذين يتقون مجالستهم عند الخوض، لكن ما ذكره ابن كثير -رحمه الله- أحسن من هذا.

ومن أهل العلم من قال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} أي: يتقون الخوض، يعني يجلسون معهم لكن لا يدخلون معهم في هذا الخوض ولا يرتضونه ولا يشاركونهم فيه، وهذا معنى بعيد؛ لأن الله -عز وجل- نهى عن مجالسة هؤلاء الخائضين فقال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء] ومقتضى إنكار المنكر بالقلب أن يفارقهم، فالإنسان ينكر بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ولا يكون منكراً بقلبه وهو جالس مع المنكر كما قال تعالى: {إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ} [(١٤٠) سورة النساء] فهو مشارك لهم بحضوره في مثل هذا المجلس.

---

[6] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٣) (ج ١ / ص ٦٥٩) وصححه الألباني في مختصر الإرواء برقم (٢٥٦٦).

والعجيب أن ابن جرير -رحمه الله- حمل قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] على هذا المعنى الأخير، أي: يتقون الخوض معهم والمشاركة، بمعنى أنهم إذا حضروا فليس عليهم من وزرهم شيء، ثم قال ابن جرير: ولكن ليعرضوا عنهم ذكرى لأمر الله لعلهم يتقون، أي: لو جلسوا معهم وتجنبوا هذا الخوض وما شاركوهم فيه، فليس عليهم من وزرهم شيء لكن ليفارقوهم لعل ذلك يحرك في نفوسهم شيئاً فيتركوا ما هم فيه من الباطل والخوض، وهذا المعنى بعيد؛ فلا يجوز الجلوس مع الخائضين، ومن جلس معهم فهو في حكمهم إلا أن يكون مكرهاً لا حيلة له، والله أعلم.

وبعضهم يقول: إن هذه الآية {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] منسوخة بالآية الأخرى {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [(١٤٠) سورة النساء] وقالوا: هذا كان في أول الإسلام حيث كان المسلمون ضعفاء ويحتاجون إلى مجالسة الكفار فكانوا يشتركون معهم في المجالس بل ربما يكونون معهم في بيوتهم؛ لأنهم من قراباتهم وما أشبه ذلك فخفف الله عنهم وقال: أنتم لا تحملون من أوزارهم إذا لم تشاركوهم في هذا الخوض، وقوموا عنهم ليتذكروا فقط وإلا فإن جلوسكم ليس فيه تبعة عليكم ما لم تشاركوا، قالوا: ثم نسخ هذا الحكم بقوله تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [(١٤٠) سورة النساء] لكن نقول: إن النسخ لا يثبت بالاحتمال والأصل عدم النسخ، وإذا أمكن توجيه الآيات والجمع بينها عُمل بذلك، ولا معارضة بين الآيات هنا فلا يقال: إنها منسوخة.

وكأن الذي حمل ابن جرير -رحمه الله- ومن قال بقوله: إنها منسوخة أن الله تعالى قال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] فقالوا: إذا كانوا منهيين عن مجالستهم أصلاً فقد صار هذا معلوماً ولا يحتاج أن ينبه عليه فيقال: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٦٩) سورة الأنعام] لكن ما ذكره ابن كثير هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] أي: ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ولا يعودون إليه.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} يعني لا يحملون تبعة حتى وإن قيل: إنه يرخص لهم بالمجالسة إذا جالسوهم لكن عليهم أن يذكروهم وأن يعظوهم أو ينهوهم عن ذلك لعلهم يتقون.

وبعضهم يقول: إن قوله: {وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [(٦٩) سورة الأنعام] يعني ولكن هذه ذكرى من أجل أن يتقوا ذلك.

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} أي: دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلاً فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الآية -{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا}- [(٧٠) سورة الأنعام] منسوخة بآية السيف التي تقول: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ} [(٥) سورة التوبة] يعني لا تتركوهم، لكن

الأقرب أنها غير منسوخة، وذلك أن قوله: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [(٧٠) سورة الأنعام] فيه معنى الوعيد كالذي في قوله تعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا} [(١١) سورة المدثر] وقوله تعالى: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر] وقوله تعالى: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [(٦) سورة الكهف] وما أشبه ذلك من الآيات، والمعنى : فلا تغتم بسبب كفرهم.

وابن جرير –رحمه الله– لا يقول –فيما أعلم– بأن آية السيف نسخت مائة وأربعة وعشرين آية –كما قال بعض أهل العلم– لكنه يقول: إنها نسخت بعض المواضع ومنها هذه الآية: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [(٧٠) سورة الأنعام]، ويقول: إن هذه الآية معناها اتركهم وذكرهم، وآية السيف أمر بمجاهدتهم.

ولهذا قال: {وَذَكِّرْ بِهِ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: ذكر الناس بهذا القرآن، حذِّرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة.

الضمير في قوله: {وَذَكِّرْ بِهِ} يرجع إلى القرآن، وهذا هو المتبادر، وهو الذي تدل عليه الآيات الأخرى، إلا أن من أهل العلم من يقول: إن الضمير يرجع إلى الحساب.

وقوله تعالى: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: لئلا تبسل.

يقول: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] **أي: لئلا تبسل**" أي: كراهة أن تبسل، فهذا فيه نفي معلوم من السياق.

قال الضحاك عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– ومجاهد وعكرمة والحسن والسدي: {تُبْسَلَ} تسلم، وقال الوالبي عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: تُفتَضح، وقال قتادة: تحبس، وقال مرة وابن زيد: تؤاخذ، وقال الكلبي: تجزى، وكل هذه الأقوال والعبارات متقاربة في المعنى وحاصلها الإسلام للهلكة.

قوله: "**وحاصلها الإسلام للهلكة**" أي يسلمه للهلكة، يعني وذكِّر به لئلا تسلم تلك النفوس للهلكة بتفريطها وإضاعة حظها من الله –عز وجل– وترك العمل الصالح؛ لأن الآخرة لا تصلح للمفاليس، ولهذا يقال فيمن سُلِّم أو رهن في دم: إنه أبسل، بمعنى أنه قدِّم لهلكة، بمعنى أنه إذا لم يؤتَ بالجاني فإن هؤلاء سيقتلون الذي في أيديهم، وهكذا كانت العرب تقول: أُبسل يعني سلِّم للهلاك.

وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب.

يرتهن يعني يحبس، فالرهن بمعنى الحبس، وكل هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد، ولذلك من مزايا هذا التفسير –تفسير الحافظ ابن كثير –رحمه الله– أنه يجمع بين المعاني بخلاف بعض التفاسير التي تشقق المعاني وتذكر خمسة معانٍ أو ستة أو أكثر من غير طائل سوى التكثير للأقوال، فالقارئ الذي لا يميز يتحير، بينما هذا الاختلاف الذي أورده ابن كثير هو من اختلاف التنوع، فتبسل وترتهن وتحبس وتسلم كل ذلك يرجع إلى شيء واحد فهي ألفاظ متقاربة، ولذلك يقال: {أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: أن تسلم لهلكتها وترتهن بجريرتها وتحبس بذنوبها وأعمالها السيئة.

والحبس عن الخير والارتهان عن درك المطلوب كقوله: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٨–٣٩) سورة المدثر]، وقوله: {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ} [(٧٠) سورة الأنعام] وقوله: {وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا} [(٧٠) سورة الأنعام] أي: ولو بذلتْ كل مبذول ما قبل منها.

قوله: **{وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا}** [(٧٠) سورة الأنعام] يعني وإن تقدم كل فدية لا يقبل منها.

أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها، كقوله: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا} الآية [(٩١) سورة آل عمران] وكذا قال هاهنا: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٧٠) سورة الأنعام].

قوله: **{أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ}** أي: سلموا للهلاك، وقوله: **{لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ}** [(٧٠) سورة الأنعام] الحميم هو الحار الشديد الحرارة كقوله: **{وَسُقُوا مَاء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ}** [(١٥) سورة محمد] وكقوله: **{شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ}** [(٧٠) سورة الأنعام].

{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [(٧١-٧٣) سورة الأنعام].

قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله -عز وجل-: {قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا} أي: في الكفر {بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ} فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد -صلى الله عليه وسلم- ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. [رواه ابن جرير].

قوله: **{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ}** يعني أنرجع القهقرى وننكص إلى الكفر والشرك بالله -عز وجل- بعدما عرفنا الإيمان والتوحيد وبطلان هذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى-؟ هذا لا يكون، وإنما هذا هو حال الإنسان المتذبذب الذي سمع داعي الله -عز وجل- ودعته الشياطين إلى الكفر والإشراك فهذا حاله كحال ذلك الإنسان الذي صور الله حاله **{لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا}** [(٧١) سورة الأنعام] والشياطين تدعوه إلى الكفر والشرك، فهو في حيرة لا يعرف كيف يتصرف.

وبالنسبة للكلام الذي نقله عن السدي -أعني قوله: "**فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض**"- هذا أيضاً هو كلام ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة، ورواية علي بن أبي طلحة من جهة الثبوت والإسناد جيدة -إن شاء الله- فهي من أحسن الطرق المروية عن ابن عباس.

وقوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ} هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه.

في قوله: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ}** [(٧١) سورة الأنعام] الكاف -مع ما بعدها- يمكن أن تكون نعتاً لمصدر محذوف تقديره: أي نرد على أعقابنا رداً كالذي استهوته الشياطين، ويمكن أن تكون أيضاً في محل نصب على الحال من فاعل نرد، أي: نرد حال كوننا مشبهين للذي استهوته الشياطين.

وقوله: **{اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ}** [(٧١) سورة الأنعام] السين والتاء للطلب، وهوى: تأتي بمعنى أسرع إلى الشيء، وبعضهم يقول: هذا يرجع إلى كلمة الهوى التي هي هوى النفس بمعنى زين له الشيطان هواه.

وفي هذه الآية قراءة لحمزة: **(كالذي استهواه)** وفي قراءات غير متواترة من قراءات الصحابة -كقراءة ابن مسعود وأبي بن كعب وهي قراءة الحسن البصري أيضاً-: **(كالذي استهواه الشيطان)**.

وقوله: {كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ} هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه، فيتبعها وهو يرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في هلكة، وربما أكلته أو تلقيه في مضلة من الأرض يهلك فيها عطشاً، فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تعبد من دون الله -عز وجل- [رواه ابن جرير].

ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ} [(٧١) سورة الأنعام] كما قال: {وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ} [(٣٧) سورة الزمر] وقال: {إِن تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٣٧) سورة النحل].

قوله: "**هم الغيلان يدعونه باسمه واسم أبيه وجدِّه فيتبعها وهو يرى أنه في شيء**" هذا من كلام ابن عباس من رواية علي بن أبي طلحة، والمعنى أن هذا تمثيل وتصوير لحال الإنسان الذي وصف الله حاله بأنه لمّا لم يستقر على الإيمان ويقبل على طاعة الله -عز وجل- وتوحيده وعبادته فهو كإنسان يمشي في البرية فتغولت الغيلان له لتضله عن الطريق كما قال ابن عباس، وقد كانت العرب تعتقد أن الغيلان تضل الناس في أسفارهم.

والمقصود بالغيلان جمع غول وهم الجن والشياطين حيث يتشكلون ويتصورون بصور شتى ويضلون المسافرين وذلك بأن يدعوا الشخص باسمه أو يظهروا له بصورة إنسان يرشده إلى طريق آخر أو نحو ذلك.

وجاء في الغيلان آثار وأحاديث منها ما هو ضعيف ومنها ما هو صحيح، وفي حديث العدوى يقول -عليه الصلاة والسلام-: ((ولا غول))[7] فبعض أهل العلم يقول: هذا نفي للغول وبيان أنه لا أصل ولا حقيقة له وإنما هو من خيال الناس ومن دعواهم، وهي من مختلقات العرب كاختلاقهم العنقاء كما في المراقي:

ومـــا ســـواه مثـــل عنقـــا مُغـــرب   في كل قطر من نـــواحي المغـــرب

يعني أن العنقاء تذكر ولا وجود لها، وكذلك غير مذهب الإمام مالك في أقطار المغرب يُذكر ولا وجود له.

وبعضهم يقول: إن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((ولا غول)) ليس نفياً لها، وإنما هو كقوله في نفس الحديث: ((لا عدوى))[8] فهذا ليس نفياً لأصل العدوى وإنما هو نفي لما كانوا يعتقدونه من تشكلها وتصورها بصور مختلفة.

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب الجذام (٥٣٨٠) (ج ٥ / ص ٢١٥٨) ومسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح (٢٢٢٠) (ج ٤ / ص ١٧٤٢).

8 - الحديث نفسه الذي أخرجه البخاري في كتاب الطب- باب الجذام (٥٣٨٠) (ج ٥ / ص ٢١٥٨) ومسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح (٢٢٢٠) (ج ٤ / ص ١٧٤٢).

وصح عن النبي –صلى الله عليه وسلم– أنه قال: ((إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان))[٩] والمقصود أنه توجد بعض الآثار الصحيحة وتوجد فيها أشياء لا تصح، وهنا يقول ابن عباس –رضي الله عنهما–: إن هذا المثل الذي في قوله تعالى: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ}** [(٧١) سورة الأنعام] مثل الله تعالى حال هذا الشخص بحال إنسان مسافر فتغولت الغيلان وجعلت تضله عن الطريق ليصل إلى مكان لا يستطيع الخروج منه فيتلف ويهلك وينقطع في سفره، وربما قتلته أو أكلته أو غير ذلك، هكذا قال ابن عباس.

ويمكن أن يقال –كما قال كثير من المفسرين–: إن قوله: **{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ}** [(٧١) سورة الأنعام] أي: في باب الضلال، بمعنى أنرجع بعد إذ هدانا الله –عز وجل– فنكون في حال نشبه فيها حال أولئك الذين هذه صفتهم في الحيرة حيث وجد من يدعوهم إلى الهدى ووجد من يدعوهم إلى الضلال من الشياطين فبقوا متحيرين لا يدرون كيف يتصرفون؟

هذه حال بائسة لا نكون عليها، وإنما نبقى على الحق الذي عرفناه ونلزمه ولا نبقى متحيرين بسبب هذه الشبهات والضلالات ودعاء الكافرين لنا بموافقتهم والرجوع إلى ديننا الذي كنا عليه من الإشراك بالله –عز وجل– وعبادة الأوثان، والله المستعان.

والله أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

---

[٩] – أخرجه النسائي في السنن الكبرى – كتاب عمل اليوم والليلة – الأمر بالأذان إذا تغولت الغيلان (١٠٧٩١) (ج ٦ / ص ٢٣٦) وأحمد (١٤٣١٦) (ج ٣ / ص ٣٠٥) وقال حسين سليم أسد: رجاله رجال الصحيح.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-:

وقوله: {وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(٧١) سورة الأنعام] أي: نخلص له العبادة وحده لا شريك له.

{وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ} [(٧٢) سورة الأنعام] أي: وأمرنا بإقامة الصلاة وبتقواه في جميع الأحوال.

{وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [(٧٢) سورة الأنعام] أي: يوم القيامة.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [(٧٣) سورة الأنعام] أي: بالعدل فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما.

وقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعـام] يعني يوم القيامة الذي يقول الله: كن، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب.

{وَيَوْمَ} منصوب، إما على العطف على قوله: {وَاتَّقُوهُ} وتقديره: واتقوا يوم يقول: كن فيكون، وإما على قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٣) سورة الأنعام] أي: وخلق يوم يقول: كن فيكون، فذكر بدء الخلق وإعادته، وهذا مناسب، وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول: كن فيكون.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الكلام قد تم في هذا الموضع، أي يكون الكلام هكذا: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يعني ويوم يقول: كن تُبدَّل السماوات والأرض، ثم ابتدأ في الكلام الجديد وهو الخبر عن القول فقال: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام] بمعنى أن وعده هذا الذي وعده هو الحق، يعني تبديل السماوات والأرض وعد حق لا شك فيه، وقيل بهذا الاحتمال؛ لأنه قال: **{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] أي ويوم يقول: كن يحصل تبديل السماوات والأرض، والمقصود أن الآية تحتمل هذا باعتبار أنه ذكر خلق السماوات والأرض، فيكون قوله: **{كُن}** متعلقاً بتبديلها يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون قوله تعالى: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام] متعلقاً بقوله: **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] وعلى هذا يكون المعنى: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يبدلها غير السماوات والأرض فيقول لذلك: كن، فيكون قولُه الحق، وعلى هذا يكون **{قَوْلُهُ}** مرفوعاً متعلقاً بـ**{يَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] يعني أن الذي يكون هو قوله الحق.

هذان وجهان تحتملهما الآية ذكرهما كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وأما الحافظ ابن كثير -رحمه الله- فيقول: "**وقوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام] يعني يوم القيامة الذي يقول الله:**

كن، فيكون..." وعلى هذا يكون فيه مقدر محذوف، والمقدر المحذوف هو التبديل والتغيير في نظام هذا الكون حيث تبدل السماوات والأرض يوم القيامة الذي يقول الله له كن فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب.

يقول الحافظ –رحمه الله–: "**{وَيَوْمَ} منصوب، إما على العطف على قوله: {وَاتَّقُوهُ} وتقديره: واتقوا يوم يقول كن فيكون**" يعني واتقوا يوم يقول: كن فيكون، لكن هذا المعنى لا يخلو من بُعد؛ لأنه قال: **{وَاتَّقُوهُ}** [(٧٢) سورة الأنعام].

يقول الحافظ –رحمه الله–: "**وإما على قوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ} [(٧٣) سورة الأنعام] أي: وخلق يوم يقول كن فيكون، فذكر بدء الخلق وإعادته وهذا مناسب**" يعني أن يكون مرتبطاً بقوله: **{خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}** [(٧٣) سورة الأنعام].

ثم قال: "**وإما على إضمار فعل تقديره: واذكر يوم يقول كن فيكون**" وهذا كثير في القرآن، ويذكره كثير من المفسرين في مثل هذا الموضع، أي أن قوله: **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] معناه: واذكر يوم يقول: كن فيكون، ويكون ذكر اليوم لأهميته وما يقع فيه من الأهوال والأوجال من أجل الحذر منه والعمل من أجل الخلاص من العذاب الذي يقع فيه للمفرطين المضيعين المكذبين، والله أعلم.

وقوله: {قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} [(٧٣) سورة الأنعام] جملتان محلهما الجر على أنهما صفتان لرب العالمين.

يقول: **{وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}** [(٧١) سورة الأنعام] ثم يقول: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام]، فجملة **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** في محل جر صفة، أي أن صفة هذا الرب أن قوله الحق.

ويحتمل أيضاً –كما سبق– أن يكون في محل رفع، ويكون متعلقاً بقوله: **{كُن فَيَكُونُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] والمعنى أن الذي يكون إذا قال: كن هو **{قَوْلُهُ الْحَقُّ}** [(٧٣) سورة الأنعام] وهذا هو المعنى الثاني الذي ذكره ابن جرير –رحمه الله– وعلى المعنى الأول يكون المعنى أن وعده من تبديل السماوات والأرض حق لا شك فيه، ثم ابتدأ كلاماً جديداً فقال: **{قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ}** [(٧٣) سورة الأنعام] إلى آخر الآية، والله أعلم.

وقوله: {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} [(٧٣) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون بدلاً من قوله: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ} [(٧٣) سورة الأنعام].

يعني أن الموعد الذي يقول فيه كن فيكون هو يوم ينفخ في الصور، وعلى هذا يكون الكلام هكذا: وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق ويوم يقول: كن فيكون وله الملك يوم ينفخ في الصور، ويكون بهذا الاعتبار **{يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ}** بدلاً من **{وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ}** أي أن يوم يقول: كن فيكون هو يوم القيامة وهو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور.

ويحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: {وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّوَرِ} [(٧٣) سورة الأنعام] كقوله: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [(١٦) سورة غافر].

وكقوله تعالى أيضاً: **{مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ}** [(٤) سورة الفاتحة] ويكون خص يوم القيامة بهذا –مع أن الملك لله –عز وجل– في الأولى والآخرة– لعظم ذلك اليوم وشدته، ولأنه لا يدعي الملك فيه أحد سواه، ولأنه اليوم الذي لا

يوم بعده، وما قبله فكأنه ساعة، وإذا كان له الملك في ذلك اليوم العظيم فإن الملك له فيما قبله في الدنيا من باب أولى.

كقوله: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [(٢٦) سورة الفرقان] وما أشبه ذلك.

والمراد بالصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل -عليه السلام-، فعن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ)) رواه مسلم في صحيحه[1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- قال: قال أعرابي: يا رسول الله، ما الصور؟ قال: ((قرن ينفخ فيه))[2].

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٤-٧٩) سورة الأنعام].

المقصود أن إبراهيم -عليه السلام- وعظ أباه في عبادة الأصنام وزجره عنها ونهاه كما قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [(٧٤) سورة الأنعام].

الله -تبارك وتعالى- هنا سمى أبا إبراهيم بآزر، وهكذا يجب أن يقال، لا أن نتعدى القرآن فهو أصدق الكلام.

والعجيب أن كثيراً من المفسرين ومن المؤرخين يقولون: إن اسم أبي إبراهيم هو تارَخ، وهذا إنما تلقوه من المرويات عن بني إسرائيل مع أن هذه الكتب -كما هو معلوم- قد دخلها من التحريف الشيء الكثير.

وبعضهم يقول: إن آزر هو عمه، ويزعمون أن القرينة في ذلك هو أنه ذكر الأبوة مع الاسم فقال: **{لأَبِيهِ آزَرَ}** [(٧٤) سورة الأنعام] يقولون: لو كان اسم أبيه آزر لقال: وإذ قال إبراهيم لأبيه، أو قال: وإذا قال إبراهيم لآزر، هكذا زعموا، وهذا غير صحيح، ولا حاجة إليه؛ لأن الله -عز وجل- ذكر أبوته وذكر اسمه.

وبعضهم يقول: إن اسمه تارخ وأن آزر هو لقب له، وهؤلاء كأنهم أرادوا أن يجمعوا بين هذا وهذا، ونحن نقول: إذا ثبت في القرآن شيء فلا يُشتغل بغيره، ولا نحاول أن نوفق بين ما جاء في القرآن وبين ما جاء في كلام الناس لا سيما أهل التحريف والتبديل والكذب على الله -عز وجل- وعلى الأنبياء -عليهم السلام-.

وزعم بعضهم أن الاسم هو تارخ وأن آزر للسب والذم، ويقولون: إن معناها معوج، وعلى هذا يكون الكلام هكذا في زعمهم: وإذ قال إبراهيم لأبيه معوج يعني قال له: أنت معوج أي: منحرف، ويقولون: إن هذه أشد كلمة قالها إبراهيم لأبيه، وهذا غير صحيح وليس هو المتبادر من القرآن.

وبعضهم يقول: إن آزر هذا اسم صنم وأطلق على أبي إبراهيم باعتبار أنه عابد له، وهذا من أعجب الأقوال.

---

1 - هذا الحديث ليس في صحيح مسلم وإنما أخرجه الترمذي في كتاب التفسير -باب تفسير سورة الزمر (٣٢٤٣) (ج ٥ / ص ٣٧٢) وأحمد (١١٠٥٣) (ج ٣ / ص ٧) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٧٩).

2 - أخرجه الترمذي في كتاب الزهد - باب ما جاء في شأن الصور (٢٤٣٠) (ج ٤ / ص ٦٢٠) وأحمد (٦٥٠٧) (ج ٢ / ص ١٦٢) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٥٦٨).

وبعضهم يقول: على تقدير محذوف هكذا: يا عابد آزر، وبعضهم يقول: على سبيل الاستفهام تقديره: أتعبد آزر؟

وهذا كله خلاف ظاهر القرآن، وإنما اسمه آزر، وأما لفظة تارخ فلا تثبت ولا نشتغل بمثل هذا ولا ينبغي أن نحاول التوفيق بين هذا وبين ما في القرآن، فليبحثوا لتارخ هذه عن تخريج، فإن صحت فليقولوا: هي لقب أو غير ذلك، أما آزر فلا نتعرض لها من أجل أن نبقي على ما ذكره هؤلاء، فهذا غير صحيح إطلاقاً، ولولا كثرة من ذكره لم نتعرض له، والله تعالى أعلم.

كما قال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: أتتألّه لصنم تعبده من دون الله {إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: السالكين مسلكك {فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ} [(٧٤) سورة الأنعام] أي: تائهين لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلالة بيّن واضح لكل ذي عقل سليم.

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا* يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا* يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا* يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا* قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا* قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا* وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا} [(٤١-٤٨) سورة مريم] فكان إبراهيم -عليه السلام- يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك وتبيّن إبراهيم -عليه السلام- ذلك رجع عن الاستغفار له وتبرأ منه، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} [(١١٤) سورة التوبة].

وثبت في الصحيح أن إبراهيم -عليه السلام- يلقى أباه آزر يوم القيامة فيقول له آزر: يا بني اليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: أي ربِّ ألم تعدني أنك لا تخزني يوم يبعثون وأي خزي من أبي الأبعد؟ فيقال: يا إبراهيم انظر ما وراءك، فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار.

قوله: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(٧٥) سورة الأنعام] أي: نبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله -عز وجل- في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

لعل من أحسن ما يفسر به الملكوت في قوله: {مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ} -والله تعالى أعلم- أي: ملْك السماوات وما فيها من أفلاك ومخلوقات عظيمة تدل على قدرة الله -عز وجل- وربوبيته للعالم وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى وحدانيته وأنه المعبود وحده لا يستحق العبادة أحد سواه.

وتكون الواو والتاء بهذا الاعتبار قد زيدت في هذه اللفظة للمبالغة، مثل ما يقال: رغبوت ورهبوت، وما أشبهها من الكلمات التي بنيت هذا البناء لهذا المعنى، والله تعالى أعلم، وقيل غير ذلك، لكن لعل هذا من أقرب ما يفسر به، وهذا هو معنى كلام الحافظ ابن كثير الذي قال فيه: "**أي: نبيّن له وجه الدلالة في نظره إلى خلقهما، على وحدانية الله -عز وجل- في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه**".

كقوله: {قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠١) سورة يونس] وقال: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ} [(٩) سورة سبأ].

وقوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: تغشاه وستره {رَأَى كَوْكَبًا} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: نجماً {قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ} [(٧٦) سورة الأنعام] أي: غاب {قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ} [(٧٦) سورة الأنعام] قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول.

قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- للنجم أو الكوكب ثم القمر ثم الشمس: هذا ربي، من أهل العلم من قال: إنه قاله ناظراً لا مناظراً، وهذا الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وجماعة من أهل العلم، وهذا بناء على أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- ربما يكون الواحد منهم على دين قومه قبل أن يوحي الله إليه -يعني على الشرك- وهذه المسألة فيها خلاف كثير بين أهل العلم، أعني هل كان الأنبياء على دين قومهم قبل أن يوحى إليهم؟ ومن يقولون بهذا يحتجون أيضاً بقوله -تبارك وتعالى-: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(١٣) سورة إبراهيم] وأجابوهم أيضاً بقولهم: **{إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا}** [(٨٩) سورة الأعراف].

والحاصل أنهم قالوا: إن التعبير بالعود يدل على أنهم كانوا على هذه الحال قبلُ، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا قط على الإشراك وعلى دين قومهم، وأما الاحتجاج بالتعبير بقوله: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(١٣) سورة إبراهيم] فيقال: إن العود في لغة العرب له معنيان -وهذا من خصائص هذه اللغة-:

المعنى الأول: هو أن الشيء يرجع إلى حاله الأولى، كما قال بعضهم:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي وعاد القار كاللبن الحليب

فقوله: عاد القار يعني رجع، وهذا المثال في هذا البيت يفيد الرجوع إلى غير حاله الأولى، وقول النبي -عليه الصلاة والسلام-: ((حتى يعود اللبن في الضرع))[3] هذا رجوع إلى حاله الأولى، والرجوع أو العود في الآية: **{أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}** [(٨٨) سورة الأعراف] يحمل على رجوعه إلى حال غير الأولى، ويفسر بمطلق الصيرورة، فيقال: وعاد القار كاللبن الحليب يعني صار، كما تقول: عاد الصبي شيخاً، يعني صار كبيراً، فهو لم يكن كذلك في السابق، وتقول: عاد الطين خزفاً أي صار خزفاً؛ لأنه لم يكن قبل خزفاً، وتقول: عاد الخشب كرسياً وهكذا، فرجع وعاد تأتي بمعنى العود إلى الحالة الأولى، وتأتي بمعنى مطلق الصيرورة.

---

[3] - الحديث بتمامه يقول فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا يلج النار رجل بكي من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جنهم)) أخرجه الترمذي في كتاب فضائل الجهاد - باب ما جاء في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣) (ج ٤ / ص ١٧١) والنسائي في كتاب الجهاد - باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه (٣١٠٨) (ج ٦ / ص ١٢) وأحمد (١٠٥٦٧) (ج ٢ / ص ٥٠٥) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٣٨٢٨).

وفي الحديث يقول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً))[4] فهذا يحتمل المعنيين، يحتمل أن يكون المعنى حتى تصير مروجاً وأنهاراً أي أنه لم يتعرض لحالها الأولى التي كانت عليها، ويحتمل أن يكون المقصود رجوع جزيرة العرب إلى حالها الأولى التي كانت عليها، والذين يشتغلون ويتكلمون في الإعجاز العلمي يذكرون هذا على أن المعنى الثاني هو المعنى الوحيد الذي لا يحتمل الحديث سواه، ويقولون: هذا من الإعجاز، وهذا الكلام غير صحيح، فالحديث يحتمل المعنيين ولذلك يقال: هذا على أحد الوجهين في تفسير الحديث.

والحاصل أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لم يكونوا على دين قومهم قط، والله -عز وجل- قال عن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** [(١٦١) سورة الأنعام] ونفْي الكون في الماضي يستغرق جميع الزمن الماضي، أي ما كان في وقت من الأوقات من المشركين، فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا على التوحيد ثم اختارهم الله -تبارك وتعالى- وأوحى إليهم.

وأما قوله تعالى عن نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم-: **{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى}** [(٧) سورة الضحى] فإنه يفسر بقوله تعالى: **{مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ}** [(٥٢) سورة الشورى] بمعنى: ضالاً عن الوحي والرسالة وتفاصيل شرائع الإيمان وما أشبه ذلك، وليس المراد أنه ضال عن الحق مائل إلى الباطل؛ لأن أصل كلمة الضلال بمعنى الذهاب، فكل من كان ذاهباً عن الشيء يقال له: ضال، كما قال الشاعر:

فآب مضلوه بعين جلية ... وغدر بالجولان حزم ونائل

قوله: آب مضلوه: أي رجع دافنوه لما ضلوه في الأرض.

وقوله تعالى: **{أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ}** [(١٠) سورة السجدة] يعني ذهبنا فيها، إذا ماتوا ودفنوا.

وقول أخوة يوسف -عليه الصلاة والسلام- لأبيهم يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: **{إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}** [(٩٥) سورة يوسف] لو كانوا يقصدون فيه الذهاب عن الحق مطلقاً لكانوا كفاراً بهذا القول؛ إذ كيف يقولون هذا الكلام لنبي من أنبياء الله تعالى؟ وإنما قصدوا بقولهم: **{إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ}** [(٩٥) سورة يوسف] يعني أنت ذاهب عن الحق في شأن يوسف -صلى الله عليه وسلم-.

والخلاصة أن هذه النصوص لا تدل على أن الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كانوا على دين قومهم بحال من الأحوال، والله تعالى أعلم، ولهذا يقال: إن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: **{هَذَا رَبِّي}** [(٧٦) سورة الأنعام] قاله مناظراً لا ناظراً، يعني قاله على سبيل التنزل.

وبعض أهل العلم يقول: إنه على تقدير الاستفهام **{هَذَا رَبِّي}** [(٧٦) سورة الأنعام] أي: أهذا ربي؟، وذلك أنه قد يحذف الاستفهام وهو مراد كما في قوله تعالى: **{أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ}** [(٣٤) سورة الأنبياء] أي: أفإن مت أفهم الخالدون؟.

ومن ذلك قول الهذلي:

---

[4] - وهذا جزء من قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدا يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً)) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة - باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (١٥٧) (ج ٢ / ص ٧٠٠).

رقوني وقالوا يا خويلد لم ترع   فقلت وأنكرت الوجوه همُ همُ؟

يعني أهمُ هم؟

ومنه قول عمر بن أبي ربيعة في الأبيات التي قالها في فاطمة بنت طلحة:

بَدَا لي مِنْها مِعْصَمٌ يَوْمَ جَمَّرَتْ   وَكَفٌّ خَضيبٌ زُيِّنَتْ بِبَنَانِ

فوالله ما أدري وإني لحاسبٌ   بِسَبْعٍ رَمَيْتُ الجَمْرَ أَمْ بِثَمانِ

فقوله: يوم جمَّرت يعني وهي ترمي الجمار.

وقوله: فوالله ما أدري وإني لحاسبٍ بسبع، أي أبسبع؟ ففيه استفهام مقدر معروف من الكلام هكذا: أبسبع رميت الجمر أم بثمان؟ وهذا معروف في كلام العرب حيث تَحذف الاستفهام، لكن الأقرب أن قوله هنا: **{هَذَا رَبِّي}** [(٧٦) سورة الأنعام] ليس فيه استفهام مقدر وإنما قال ذلك على سبيل التنزل مع الخصم في المناظرة شيئاً فشيئاً حتى أقام عليه الحجة، والله تعالى أعلم، وهذا الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير هنا، وهو اختيار جماعة من المحققين من أهل العلم، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله تعالى-.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} [(٧٧) سورة الأنعام] **أي: طالعاً {قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ* فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي}** [(٧٧-٧٨) سورة الأنعام] **أي: هذا المنير الطالع ربي {هَذَآ أَكْبَرُ} أي: جرماً من النجم ومن القمر وأكثر إضاءة {فَلَمَّا أَفَلَتْ}** [(٧٨) سورة الأنعام] **أي: غابت، {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ}** [(٧٨-٧٩) سورة الأنعام] **أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي {لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}** [(٧٩) سورة الأنعام] **أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق.**

يعني ابتدأ خلقهما على غير مثال سبق، يقول تعالى: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}** [(١) سورة فاطر] يعني المنشئ الأول على غير مثال يُحتذى.

{حَنِيفًا} [(٧٩) سورة الأنعام] **أي: في حال كوني حنيفاً، أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد.**

معنى الحنف هنا هو الميل من عبادة غير الله –عز وجل- إلى عبادة الله –تبارك وتعالى-، وذلك أن أصل معنى الحنف هو الميل، وقد سمي الأحنف بن قيس بذلك لميل في رجليه، ويقال: إن أمه كانت ترقصه وهو صغير وتقول:

والله لولا حنف في رجله   ما كان في فتيانكم من مثله

فالحنف هو الميل، وقوله: **{حَنِيفًا}** أي مائلاً.

ولهذا قال: {وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٩) سورة الأنعام] **والحق أن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام- كان في هذا المقام مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبيّن في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه.**

وبيّن في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، وأشهدهن إضاءة وأشرفهن عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة، فبيّن أولاً -صلوات الله وسلامه عليه- أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تملك لنفسها تصرفاً، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية.

ثم انتقل إلى القمر فبيّن فيه مثلما بيّن في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ} [(٧٨) سورة الأنعام] أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون.

{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(٧٩) سورة الأنعام] أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [(٥٤) سورة الأعراف].

قال الله في حقه: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ} [(٥١-٥٢) سورة الأنبياء] الآيات.

ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} [(٨٠) سورة الأنعام].

ومن القرائن الدالة على أنه قال هذا الكلام مناظراً لا ناظراً أن الله -عز وجل- عطف قوله: **{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ}** [(٧٦) سورة الأنعام] على قوله: **{نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [(٧٥) سورة الأنعام] وهذا يقتضي أن يكون قال ذلك مناظراً لا ناظراً -عليه الصلاة والسلام- والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

تفسير سورة الأنعام (١٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظراً لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظراً قوله تعالى: {وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ* وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ* الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ* وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٠-٨٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم -عليه السلام- حينما جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: {أَتُحَآجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ} أي: تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو، وقد بصَّرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟!.

وقوله: {وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظروني بل عاجلوني بذلك.

وقوله تعالى: {إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا} [(٨٠) سورة الأنعام] استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله -عز وجل-.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- لقومه: **{وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هذا الاستثناء -كما قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهو الذي عليه المحققون ومنهم الحافظ ابن القيم- منقطع باعتبار أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه، ويكون المعنى أنهم قالوا له: إن آلهتنا ستخبلك أو تمرضك أو تقتلك أو تُلحق بك ضرراً فقال لهم: إنه لا يخاف من هذه المعبودات أن تلحق به ضرراً **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** فقوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] لا يرجع إلى ما قبله باعتبار أنه يخاف أن توصل إليه ضرراً مما شاء الله -عز وجل- أن توصله، وإنما المقصود إلا أن يشاء ربي شيئاً من الضرر فيلحقني من مرض أو موت أو فقر أو غير ذلك مما لا تعلق له بهذه الآلهة، أي أنه يقول: أنا لا أخاف من آلهتكم ومعبوداتكم الباطلة ولا أخشى منها ضرراً فهي لا تضر ولا تنفع إلا أن يشاء ربي ضرراً يقع بي فيقع لكن لا يكون واصلاً إليَّ من جهة هذه الآلهة، وبهذا الاعتبار قيل: إن قوله: **{إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا}** [(٨٠) سورة الأنعام] هو من قبيل الاستثناء المنقطع.

{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى عليه خافية.
{أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ} [(٨٠) سورة الأنعام] أي: فيما بينتُه لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها؟.

وهذه الحجة نظير ما احتج به نبي الله هود -عليه السلام- على قومه عاد فيما قصَّ عنهم في كتابه حيث يقول: {قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ* مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ* إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٥٣-٥٦) سورة هود].

وقوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله {وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [(٨١) سورة الأنعام].

قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وغير واحد من السلف: أي حجة، وهذا كقوله تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ} [(٢١) سورة الشورى] وقوله تعالى: {إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ} [(٢٣) سورة النجم].

وقوله: {فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ} [(٨١) سورة الأنعام] أي: فأي الطائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟

قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون من تمام قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، أي أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- قال لهم: **{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}** [(٨١) سورة الأنعام] ثم أجاب فقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وإن كانت الآية تحتمل هذا إلا أن غير هذا القول قد يكون أولى منه، أي القول الذي عليه عامة أهل العلم وهو أن ذلك من قول الله -تبارك وتعالى-، قاله على سبيل الفصل بين الفريقين، وذلك أنه لما قال لهم إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- ما قال، حكم الله بينهم فقال: **{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وهذا مما يسمونه بالموصول لفظاً المقطوع معنىً، وله نظائر في القرآن ومن ذلك قول الله -عز وجل- فيما جرى من امرأة العزيز: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] فهذا الكلام يحتمل أن يكون من تمام كلام امرأة العزيز، فهي قالت: **{الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ}** [(٥١) سورة يوسف] ثم قالت: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ}** [(٥٢) سورة يوسف] فهذا يحتمل أن يكون من كلامها وتقصد به زوجها باعتبار أنها تقول: إنها حصلت مراودة فقط ولم تحصل خيانة بالغيب أكثر من ذلك، كما أنه يحتمل أن يكون من كلامها أيضاً لكن باعتبار أنها أرادت بقولها: **{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ**

بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] يوسف -صلى الله عليه وسلم- فهو -عليه الصلاة والسلام- كان في السجن، فحينما طُلب أبى أن يخرج حتى يظهر صدقه وبراءته ونزاهته أمام الناس، فقالت: {أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [(٥١) سورة يوسف] وعقبت بقولها: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] أي إنها تقول: لا أقول فيه إلا الصدق والعدل والحق ولا أفتري عليه في غيبته.

ويحتمل أن يكون قوله: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ} [(٥٢) سورة يوسف] من كلام يوسف -صلى الله عليه وسلم- والمعنى أنه يقول: {ذَلِكَ} يعني أنا طلبت هذا التحقيق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب، أي أني أُدخلت السجن بتهمة فلا يمكن أن أخرج من غير أن تظهر براءتي وينكشف الأمر على حقيقته، بل لا بد أن يعرف أني لم أخنه بالغيب، وعلى هذا القول يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً.

وهذا الأسلوب أنواع ففي قول الله -عز وجل- في سورة الأعراف: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} [(١٨٩-١٩٠) سورة الأعراف] فقوله: {فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء} إما أن يكون راجعاً إلى ما قبله باعتبار أن هذا حصل من آدم وحواء أو يكون من الموصول لفظاً المقطوع معنىً باعتبار أن الحديث انتقل إلى الذرية وما وقع عندهم من الإشراك، وأمثلة هذا كثيرة في القرآن، ومنه قوله تعالى هنا في سورة الأنعام: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام] فهذا يحتمل أن يكون من قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ويحتمل أن يكون من قول الله -عز وجل- باعتبار أنه حكم بين الفريقين، وهذا هو الأقرب وهو الذي عليه عامة المحققين كابن جرير وابن القيم والشنقيطي، وأبعد الأقوال أن هذا من قول الكفار الذين ناظرهم إبراهيم كما يقول بعض المفسرين.

روى البخاري عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان][1].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- قال: لما نزلت هذه الآية: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: ((إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [(١٣) سورة لقمان] إنما هو الشرك))[2].

هذا وقع للصحابة -رضي الله عنهم- حينما استشكلوا قوله تعالى: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] فقالوا ما قالوا باعتبار ما فهموه من لغتهم وذلك أن لفظة "ظُلم" نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي للعموم، فقوله: {وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام] أي بأي نوع من أنواع الظلم سواء كان ذلك كبيراً أو صغيراً، هذا الذي يفهم من ظاهر الكلام وهو مقتضى لغة العرب، ولكن بيّن لهم النبي -صلى

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الإيمان – باب ظلم دون ظلم (٣٢) (ج ١ / ص ٢١).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب قول الله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ} [(١٢) سورة لقمان] (٣٢٤٦) (ج ٣ / ص ١٢٦٢) ومسلم في كتاب الإيمان – باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤) (ج ١ / ص ١١٤) وأحمد (٣٥٨٩) (ج ١ / ص ٣٧٨) واللفظ لأحمد.

الله عليه وسلم- أن هذا من قبيل العام المراد به الخصوص، أي: أنه نوع خاص من الظلم وهو الشرك، ففسرها لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا من قبيل التفسير النبوي الذي فسر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن بالقرآن، حيث فسره بآية لقمان، والقاعدة أن التفسير إذا ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فإنه لا يلتفت إلى قول أحد بعده.

والتفسير النبوي نوعان: نوع منه يدخله الاجتهاد وهو ما لم يتعرض فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، فهذا قد يخطئ المفسر وقد يصيب بتفسيره به، ونوع لا يدخله الاجتهاد وهو الذي ذكر فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- الآية وفسرها كما في هذه الآية، فهذا من أجلى صوره إذا صحَّ فلا مجال للنظر في قول أحد سواه، وبهذا نعرف جرأة الزمخشري حينما قال عند هذه الآية: إن تفسير الظلم بالشرك مع لفظ اللبس في الآية لا يتأتى -نسأل الله العافية- فهو فهم أن اللبس هو مجرد الخلط وأنه لا يجتمع الشرك مع الإيمان وأن الشرك إذا حدث أفسد الإيمان ولم يُبقِ منه شيئاً، وهذا الكلام غير صحيح؛ لأنه يمكن أن يبقى إيمان مخروم لا ينفع صاحبه كما قال الله -عز وجل-: **{وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ}** [(١٠٦) سورة يوسف] فيوجد في الإنسان إيمان وشرك، وإيمان ونفاق لكن قد يكون هذا الشرك أو النفاق من النوع الأكبر، فهذا من هذا النوع، والله أعلم.

والحافظ ابن القيم -رحمه الله- في تفسير قوله: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ}** [(٨٢) سورة الأنعام] ذكر كلاماً جيداً فقال: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قال: ولم يظلموا أنفسهم؛ لأنه لو قال: لم يظلموا أنفسهم فإن ذلك سيتطرق إلى أي نوع من أنواع الظلم ولكن قال: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم}** ولبس الشيء بالشيء تغطيته وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به ويلبسه إلا الكفر، كما قال الله -عز وجل-: **{بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ}** [(٨١) سورة البقرة] فالخطيئة التي تحيط بالإنسان إنما هي الشرك، فلا يحيط شيء من الذنوب بالإنسان فيكون هالكاً إلا الإشراك بالله -تبارك وتعالى-، فهذا هو القول الذي لا ينبغي العدول عنه بحال من الأحوال، إلا أن يقول قائل: إن هذا المعنى متحقق بلا مرية، لكن قد يكون في الآية أيضاً دلالة على معنىً آخر أعني قوله تعالى: **{وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ}** [(٨٢) سورة الأنعام] وذلك فيما يتعلق بالنجاة وتحقق الخلاص ووجود شيء من الأمن للإنسان في الدنيا والآخرة وأن هذا يحصل للإنسان بالإيمان الصحيح المنجي ولو وُجد عنده ذنوب إذ لا ينتفي عنه الإيمان بالكلية إلا إذا وجد عنده ما يخرم هذا الإيمان من الكفر الأكبر أو النفاق الأكبر أو الشرك الأكبر فهذا لا يبقى عنده شيء من الأمن لانتفاء الإيمان بالكلية، لكن الحكم المعلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فالحكم هنا أن لهم الأمن فهو معلق على وصف هو أنهم آمنوا إيماناً بهذه الصفة بحيث لم يخلطوه بظلم فهذا الحكم يزيد بزيادة الإيمان وينقص بنقصانه، فهو يزيد من أمن الإنسان في الدنيا ويوم القيامة ويزيد من اهتدائه بقدر ما حقق من الإيمان الذي لم يخالطه ظلم ولو بالمعاصي، وذلك أن المعاصي والذنوب تؤثر في أمن الإنسان، فالناس يأتون آمنين يوم القيامة بقدر ما عندهم من تقوى لله -عز وجل- ويكون لهم من الاهتداء بقدر ما عندهم من الإيمان والاستقامة على الصراط المستقيم، ومعلوم أن الذنوب والمعاصي متفرعة من شجرة الكفر، كما أن الطاعات متفرعة من شجرة الإيمان، فالإنسان إذا عمل المعاصي فإنه لا يكون

خارجاً من الإسلام بذلك كما يزعم الخوارج لكن عقيدة أهل السنة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا عمل الإنسان المعاصي نقص إيمانه وإذا ازداد من الطاعات ازداد إيمانه، فالناس يتفاوتون في الإيمان وبناء عليه يتفاوتون في الأمن والاهتداء، وقوله: **{أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}** [(٨٢) سورة الأنعام] يشمل الأمن والاهتداء في الدنيا والأمن والاهتداء في الآخرة، والاهتداء منه الاهتداء إلى معرفة الصواب والحق وما اختلف فيه الناس، والاهتداء على خير الخيرين، والاهتداء بالتوفيق إلى العمل الصالح، والاهتداء إلى العمل بالعلم، والاهتداء أيضاً إلى الثبات على الحق إلى الممات وأن يختم له بذلك، كل هذا من الاهتداء كما قال تعالى: **{اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}** [(٦) سورة الفاتحة] ومنه الاهتداء بعد الموت عند سؤال الملكين حينما يسألانه فهو يحتاج إلى هداية وتثبيت كما قال تعالى: **{يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ}** [(٢٧) سورة إبراهيم] وكذلك الاهتداء عند الحساب، والاهتداء إلى الصراط، ولهذا قال الله -عز وجل-: **{وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ* سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ}** [(٤-٥) سورة محمد] أي: يهديهم بعد ما قتلوا إلى الصراط وعلى الصراط، ويهديهم إلى الجنة ويهديهم إلى منازلهم في الجنة، فهذه هدايات في الآخرة.

كما أن أهل الإيمان يحصل لهم الأمن في الدنيا بقدر إيمانهم وأما المشرك أو الكافر أو العاصي فإنه يختل أمنه واهتداؤه بقدر ما اختل إيمانه، ولذلك فهو يعيش في قلق وتساوره الهموم والأوهام ويعيش في حال من النكد والكدر والتخوف على مستقبله وعلى مستقبل أولاده ولا يدري ما ينتابه، وأما المؤمن فإنه مطمئن النفس قرير العين، وإن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

والخلاصة أن الأمن والاهتداء ينتفيان تماماً من الإنسان إذا وجد عنده الإشراك، وينقص من أمنه واهتدائه بقدر ما نقص من إيمانه، هذا تفصيل لو قال به قائل فإن ذلك لا يُعدُّ تكذيباً ورداً لتفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للآية، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: وجهنا حجته عليهم، قال مجاهد وغيره: يعني بذلك قوله: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ} الآية [(٨١) سورة الأنعام].

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يرى أن الحجة التي آتاها اللهُ إبراهيم على قومه هي قوله: **{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ}** [(٨١) سورة الأنعام] يعني: أنتم ما خفتم من الله الملك الجبار حيث أشركتم به واجترأتم عليه -عز وجل- غاية الجرأة فكيف تريدون مني أن أخاف من أصنام لا تنفع ولا تضر؟ هذا غير معقول! وهذا القول هو الذي مشى عليه كثير من أهل العلم من المفسرين.

ومنهم من قال: إن الحجة في قوله: **{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا}** [(٨٣) سورة الأنعام] مفرد مضاف إلى معرفة وهي الفاعل **{حُجَّتُنَا}** فقالوا: إن الحجة هي ما ذكر الله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ...}** [(٧٥-٧٦) سورة الأنعام] الآيات وفيها أنه قال عن الكوكب والقمر والشمس هذا ربي على سبيل التنزل فاحتج عليهم حتى بيّن لهم بطلان معبوداتهم، فقالوا: هذه المجادلة التي دارت معهم وأوصلته إلى أن يحتج عليهم هي

المقصودة بهذه الآية: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [(٨٣) سورة الأنعام] وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي –رحمه الله تعالى–.

والصواب أن الآية تحتمل هذا وهذا، فقول إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [(٨١) سورة الأنعام] هو من جملة الحجة، وكلامه الذي قبل هذا المتعلق ببيان بطلان معبوداتهم من الأصنام هو أيضاً من جملة احتجاجه عليهم، فهو داخل في الحجة المذكورة في الآية، والله أعلم.

وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ} [(٨٢) سورة الأنعام].

يقول ابن كثير: "**وقد صدقه الله وحكم له بالأمن والهداية فقال: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ} [(٨٢) سورة الأنعام]**" معناه أن ابن كثير يعدُّ هذا من قول الله –عز وجل– في الحكم والفصل بين الفريقين، ولعل هذا هو الأقرب والله أعلم، وهذا اختاره الحافظ ابن القيم والشيخ محمد الأمين الشنقيطي وعامة أهل العلم، حيث قالوا: هذا من قول الله –عز وجل– وليس من قول إبراهيم، وذكرنا آنفاً أن أبعد الأقوال قول من قال: إن هذا من قول الكفار.

ثم قال بعد ذلك كله: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام] أي: حكيم في أقواله وأفعاله {عَلِيمٌ} أي: بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [(٩٦-٩٧) سورة يونس] ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(٨٣) سورة الأنعام].

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ* وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ* وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ* أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٨٤-٩٠) سورة الأنعام].

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق –عليهما السلام– بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: {يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ} [(٧٢-٧٣) سورة هود] فبشروهما مع وجوده بنبوته وبأن له نسلاً وعقباً كما قال تعالى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ} [(١١٢) سورة الصافات] وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة.

وقال: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ} [(٧١) سورة هود] أي: ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد؛ لبقاء النسل والعقب، ولمّا كان ولد

الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم -عليه السلام- حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهباً إلى عبادة الله في الأرض فعوضه الله -عز وجل- عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه؛ لتقر بهم عينه كما قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا} [(٤٩) سورة مريم] وقال هاهنا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا} [(٨٤) سورة الأنعام].

وقوله: {وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ} [(٨٤) سورة الأنعام] أي: من قبله، هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة.

قوله عن يعقوب -صلى الله عليه وسلم-: "**وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية**" هذا باعتبار أن يعقوب اسم عربي لكن إذا نظرنا إليه باعتبار أنه اسم أعجمي -كما هو الواقع- فلا يقال فيه مثل هذا، والله تعالى أعلم، وقد وُجد في كثير من الأحيان أن المفسرين يذكرون أشياء من هذا القبيل في أسماء الأنبياء وفي تعليلها ومعناها وما أشبه ذلك والواقع أنها أعجمية لا تعلل بمثل هذه التعليلات ولا ينبغي أن يُتكلف فيها هذا التكلف -والله تعالى أعلم- إلا إن قيل: إن هذا الاسم عربي ترجمة لاسم آخر، فربما يقال فيه ذلك لكن المعروف أن أسماء الأنبياء جميعاً أعجمية إلا أربعة وليس يعقوب منهم، لكن قد تكون بصفة في لغة العجم تختلف عن لغة العرب، فيوسف يقولون عنه بالأعجمية "جوزيف" ويعقوب باللاتينية يقولون عنه "جيكو" والحاصل أن العلماء يقولون: إن أسماء الأنبياء كلها أعجمية إلا أربعة، محمد -صلى الله عليه وسلم-، وصالح وشعيب وهود، وهنا ذكر ثمانية عشر نبياً، وإذا كانوا يقررون هذا الأصل ويقولون: إنها أعجمية وأن يعقوب اسم أعجمي، فلا يقال: إنه مشتق من العقب، وأما على قول من يقول بوجود أسماء مشتركة بين اللغات فإنهم لا يقولون ذلك في الأعلام كأسماء الأنبياء وإنما يقولونه في أسماء النكرات كإستبرق ومشكاة وما أشبه ذلك، وبالنسبة لأسماء الأعلام فإنها بالاتفاق تقال كما هي في اللغات وهذا لا إشكال فيه، ولذلك أجمعوا على أن أسماء الأعلام في باب المعرب ثلاثة أنواع: نوع من قبيل الأعلام، فهذا موجود بالاتفاق، ونوع من قبيل النكرة مثل إستبرق ومشكاة وهذا فيه خلاف، ونوع لا خلاف في أنه غير موجود وهو الكلام المركب، فلا يوجد كلام مركب أعجمي في القرآن ، ولهذا قال في المراقي:

ما كان منه مثل إسماعيل	ويوسف قد جاء في التنزيل
إن كان منه واعتقاد الأكثر	والشافعي النفي للمنكر

وأما ما ذكره هنا من أن الله عوضه لما هاجر فهذا المعنى من أراد أن يتوسع فيه فلينظر في مثل كتاب القواعد الحسان لابن سعدي حيث ذكر أمثلة على هذا، تدور على قضية أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فإبراهيم اعتزل قومه وهجرهم في الله -تبارك وتعالى- فعوضه الله -عز وجل- من العقب والذرية ما ينسيه الوطن والقرابة والعشيرة.

وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح -عليه السلام- فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به -وهم الذين صحبوه في السفينة- جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل

إبراهيم -عليه السلام- فلم يبعث الله -عز وجل- بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} الآية [(٢٧) سورة العنكبوت]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٦) سورة الحديد] وقال تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} [(٥٨) سورة مريم] قوله في هذه الآية الكريمة: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ} [(٨٤) سورة الأنعام] أي: وهدينا من ذريته {دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} الآية [(٨٤) سورة الأنعام] وعود الضمير إلى نوح؛ لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار ابن جرير، وعوده إلى إبراهيم؛ لأنه الذي سيق الكلام من أجله، حسن لكن يشكل عليه لوط فإنه ليس من ذرية إبراهيم بل هو ابن أخيه ماران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليباً، وكما قال في قوله: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [(١٣٣) سورة البقرة] فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليباً، وكما قال في قوله: {فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [(٣٠-٣١) سورة الحجر] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود وذُمَّ على المخالفة؛ لأنه كان في تشبه بهم فعومل معالمتهم ودخل معهم تغليباً وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار والملائكة من النور.

قوله تعالى: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [(٨٤) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى إبراهيم أي: من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، ويحتمل أن يكون من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- وهذا الذي اختاره ابن جرير واختاره الفراء وابن عطية وجماعة، واحتجوا لذلك بأمور، منها أن يونس -عليه الصلاة والسلام- لم يكن من ذرية إبراهيم وإنما هو من ذرية نوح وكذلك لوط -صلى الله عليه وسلم- هو ابن أخ لإبراهيم -عليهما السلام- وهذا معروف فهو ليس من ذريته.

والذين قالوا: إن الضمير يعود إلى إبراهيم كالزجاج أجابوا عن هذا بأن المحدّث عنه هو إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-، وإن كان نوح هو أقرب مذكور والقاعدة أن الضمير يعود إلى أقرب مذكور لكن السياق إنما هو في الحديث والثناء على إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- وما حصل له من إكرام الله -جل وعلا- ثم أجابوا عن أدلة أولائك بأن لوط -صلى الله عليه وسلم- عمه إبراهيم والعم يقال له: أب، ودليل ذلك قول يوسف -صلى الله عليه وسلم-: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٣٨) سورة يوسف] فإسماعيل -عليه الصلاة والسلام- عمه بالاتفاق وليس من أجداده ومع ذلك سماه أباً، وبعض أهل العلم يقول: الخال والد والعم والد، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الخالة بمنزلة الأم))[3].

وبعضهم خرج ذلك باعتبار التغليب فقال: هذا مثل قول الله -عز وجل- عن إبليس {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ* إِلَّا إِبْلِيسَ} [(٧٤) سورة ص] مع أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن لكن توجَّه الأمر إليه

---

3 - أخرجه البخاري في كتاب الصلح - باب كيف يكتب هذا ما صالح فلان بن فلان وفلان بن فلان وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٢٥٥٢) (ج ٢ / ص ٩٦٠).

معهم باعتبار أنه كان معهم ويتشبه بهم فدخل في هذا الأمر، لكن الأقرب أن الضمير في قوله **{وَمِن ذُرِّيَّتِـــهِ}** [(٨٤) سورة الأنعام] يعود إلى نوح -عليه الصلاة والسلام- والله تعالى أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وفي ذكر عيسى -عليه السلام- في ذرية إبراهيم أو نوح -عليهما السلام- على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل؛ لأن عيسى -عليه السلام- إنما ينسب إلى إبراهيم -عليه السلام- بأمِّه -عليها السلام- فإنه لا أب له.

روى ابن أبي حاتم عن أبي حرب بن أبي الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر فقال: بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي -صلى الله عليه وسلم- تجده في كتاب الله، وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده؟ قال أليس تقرأ سورة الأنعام: {وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ} [(٨٤) سورة الأنعام] حتى بلغ {وَيَحْيَى وَعِيسَى}؟ [(٨٥) سورة الأنعام] قال: بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب؟ قال: صدقت، فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته أو وقف على ذريته أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه أو وقف عليهم فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذا الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- من دخول أولاد البنات في الذرية يمكن أن يدخل في النوع المعروف عند الأصوليين من أنواع دلالة المنطوق بما يعرف بالإشارة، وهي كما قال في المراقي:

فأول إشارة اللفظ لما لم يكن القصد له قد عُلما

بمعنى أن الخطاب ما سيق من أجل تقرير هذا المعنى لكنه يستنبط منه ويفهم، أي: وإن لم يكن وروده ابتداءً من أجل بيان هذا الحكم، فهذه الآية ذكر الله -عز وجل- فيها فضائل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، ثم ذكر الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الذين أنعم عليهم، وذكر أن عيسى -صلى الله عليه وسلم- من ذرية إبراهيم -على أحد القولين أو من ذرية نوح -صلى الله عليه وسلم- على القول الآخر- وعيسى -صلى الله عليه وسلم- ليس له أب يرتبط به نسباً بهؤلاء الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وإنما نُسِبَ عن طريق الأم.

فالذرية هي ما تناسل من الإنسان، ويدخل فيها كل ما تناسل منه من جهة الذكور ومن جهة الإناث، وهذا هو الذي دل عليه القرآن بهذا النوع من الدلالة -دلالة الإشارة- وذلك كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة] وسبق الكلام على هذا المثال في سورة البقرة، وذكرنا أن الآية سيقت لبيان جواز الأكل والشرب والجماع في ليالي الصيام بعد أن كان محرماً، لكن يستنبط من الآية بدلالة الإشارة أنه يجوز للإنسان أن يصبح وهو جنب، ولا إشكال في ذلك؛ لأنه إذا جاز له أن يجامع في كل جزءٍ من أجزاء الليل **{حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ}** [(١٨٧) سورة البقرة] فمعنى ذلك أنه لن يبقى وقت للاغتسال إلا بعد الفجر، فهذا مثالٌ مفرد في دلالة

الإشارة، ومعنى مثال مفرد أي أن هذا الحكم يستخرج من دليلٍ واحد، وقد يستخرج من آيتين، أو أكثر كما سبق في قوله -تبارك وتعالى-: **{وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا}** [(١٥) سورة الأحقاف] مع قوله: **{وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}** [(١٤) سورة لقمان] فإذا خصمتَ العامين من الثلاثين شهراً فإنه يبقى للحمل ستة أشهر، فيُستنبط من الآيتين أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، فهذا من دلالة الإشارة.

والخلاصة أن هذه الآية دلت بدلالة الإشارة على أن أولاد البنات من جملة الذرية، ولا عبرة بقول الشاعر:

بنونـــا بنـــو أبنائنـــا وبناتُنـــا   بنـــوهن أبنـــاء الرجـــال الأباعـــد

فهذا قول شاعر لا عبرة به، ولا يفاضل بينه وبين كلام الله -عز وجل-.

وقوله: {وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ} [(٨٧) سورة الأنعام] ذكر أصولهم وفروعهم وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: {وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٨٧) سورة الأنعام] ثم قال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [(٨٨) سورة الأنعام].

من جملة الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في هذه الآيات إلياس واليسع -عليهما السلام- فإلياس -عليه الصلاة والسلام- هو من الأنبياء بلا شك، لكن بعضهم يقول هو من ولد إسماعيل وبعضهم يقول هو من ولد إسحاق، والمشهور أن إسماعيل -صلى الله عليه وسلم- لم يكن في عقبه نبي سوى النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- ولذلك يقول بعضهم إن إلياس من سبط يوشع بن نون أي من ولد إسحاق فهو من جملة أنبياء بني إسرائيل.

وأما اليسع ففي قراءة أخرى **(الليسع)**، فبعضهم يقول: هو إلياس، وهذا عجيب وغريب غاية الغرابة؛ لأن الله -عز وجل- ذكره بهذا السياق وذكر إلياس فلا يمكن أن يكون ذكره مرتين فهو نبيٌ آخر غير إلياس، وبعضهم يقول هو صاحب إلياس، وبعضهم يقول: إن إلياس هو إدريس، وهذا أيضاً غير صحيح، وبعضهم يقول: إلياس هو الخضر وهذا غير صحيح أيضاً، والخضر مختلف فيه هل هو نبي أو ليس نبياً، وبعضهم يقول: اليسع هو الخضر، وهذا كله غير صحيح أيضاً.

فالحاصل أن إلياس واليسع -عليهما الصلاة والسلام- من الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وليس عندنا تفاصيل كثيرة عن نسبهما وحياتهما وما يتعلق بهما، فالله تعالى أعلم، لكنهما من الأنبياء قطعاً، وليسا من المشكوك في نبوتهم كما هو الحال في الخضر فإنه مختلف فيه هل هو من الأنبياء أو لا؛ فهؤلاء ذكرهم الله في سياق الأنبياء، وقد قال الله تعالى للنبي -صلى الله عليه وسلم-: **{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}** [(٩٠) سورة الأنعام] وأخبر أنه آتاهم الكتاب والحكم والنبوة وذلك يرجع إلى جميعهم، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ} [(٨٨) سورة الأنعام] إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام].

النبوة -كما هو معلوم- هي منحة إلهية لا تُكتسب مهما كان عليه الإنسان من قُدر وإمكانات وذكاء وصلاح وتقوى، وهذا هو الذي لا يجوز أن يُعتقد سواه خلافاً للفلاسفة الذين يقولون: إن النبوة مكتسبة، فهي منحة إلهية، فعقيدة المسلمين تقوم على أن النبوة يمنحها الله -عز وجل- لمن شاء من عباده ممن يعلم أنهم يصلحون لذلك، قال تعالى: **{وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ}** [(٦٨) سورة القصص].

قوله تعالى: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] هذا حكم معلق على شرط وهو لا يقتضي الوقوع، وهذه قاعدة معروفة، أي أن المعلق على شرط لا يقتضي ذلك وقوعه أو جواز حصوله كما في قوله تعالى: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] أي: ولا يمكن أن يكون للرحمن ولد، وهنا: {وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] يعني حاشاهم من الشرك، فالمقصود أن هذا التعليق لا يقتضي جواز الحصول وإنما ذكر لبيان حكمٍ وهو أن هؤلاء الأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– على منزلتهم وشرفهم وقربهم من الله –تبارك وتعالى– واصطفائهم لو وقع منهم الشرك لحبطت عنهم الأعمال الصالحة التي عملوها، فكيف بغيرهم؟ فهو تحذيرٌ من الإشراك.

{وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(٨٨) سورة الأنعام] تشديد لأمر الشرك وتغليظ لشأنه وتعظيم لملابسته كقوله تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} الآية [(٦٥) سورة الزمر] وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع كقوله: {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} [(٨١) سورة الزخرف] وكقوله: {لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} [(١٧) سورة الأنبياء] وكقوله: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاء سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [(٤) سورة الزمر].

وقوله تعالى: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ولطفاً منا بالخليقة.

يقول تعالى: {آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [(٨٩) سورة الأنعام] المراد بالكتاب هنا جنس الكتاب، وقد أنزل الله –عز وجل– منه التوراة والإنجيل والقرآن، وأما الحُكم ففسره كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– بأنه الفهم بالكتاب ومعرفة ما فيه من الأحكام.

{فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: بالنبوة، ويحتمل أن يكون الضمير عائداً على هذه الأشياء الثلاثة الكتاب والحكم والنبوة.

وقوله: {هَؤُلاء} يعني أهل مكة، قاله ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما– وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد.

السورة –كما سبق– مكية، فقوله: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء} [(٨٩) سورة الأنعام] يعني من مشركي قومك {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام].

والحافظ ابن القيم –رحمه الله– حمله على هذا المعنى أي فيمن كفر من قومه أصلاً، وقال: ويدخل فيه تبعاً كل من كفر.

{فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين وكتابيين فقد وكلنا بها قوماً آخرين أي: المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة.

قوله: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} وكلنا بها قوماً أي ألزمنا بالإيمان بها وكلفنا ذلك وحمّلناهم هذه الرسالة والأمانة والتبعة فقاموا بها خير قيام، وحملوها للناس، ودعوا إليها، ونافحوا عنها، وذبوا عنها غاية الذب، وجاهدوا

في سبيل ذلك غاية المجاهدة، وهجروا في ذلك القريب والبعيد من أجل ما يعتقدون، فكان ذلك منهم من القيام بحق هذه النعمة على الوجه المطلوب ومعرفة حقها وقدرها، بخلاف هؤلاء الذين كفروا بها.

وهؤلاء الذين أشار الله -عز وجل- إليهم بقوله: **{فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ}** [(٨٩) سورة الأنعام] قال: هم المهاجرون والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة، وهذا وجهٌ حسن، وبعضهم يقول هم الأنبياء المذكورون، أي أن قوله: **{فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ}** [(٨٩) سورة الأنعام] يعني إن كفرتم بها أيها المشركون فقد وكلنا بها قوماً وهم هؤلاء الذين عدهم الله -تبارك وتعالى- وهذا هو اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: هم الملائكة، وهذا في غاية البعد، وبعضهم يقول: هم الصحابة ولا يخص ذلك بالمهاجرين والأنصار -رضي الله تعالى عنهم- وبعضهم يقول هي في كل مؤمن، وهذا يرجع إلى قول ابن كثير على كل حال حيث قال: هم المهاجرون والأنصار ومن تبعهم إلى يوم القيامة.

وبعضهم يخص ذلك بالأنصار، بمعنى أنه قد كفر بها أهل مكة فآمن بها أهل المدينة من الأوس والخزرج، وانتقل النبي -صلى الله عليه وسلم- إليهم.

ومثل الحافظ ابن القيم -رحمه الله- يرى أن ما ذكره كبير المفسرين ابن جرير -من أنها في الأنبياء الذين ذكرهم الله -عز وجل- صحيح و يدخل فيه من تبعهم من أهل الإيمان، فيدخل فيه من قام بدين الله -عز وجل- ونصره ودعا إليه وذب عنه، وأولى من يدخل بذلك الوصف هم المهاجرون والأنصار -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم- وسائر أهل الإيمان داخلون في ذلك تبعاً، ولابن القيم -رحمه الله- كلام جيد في هذا المعنى لعله يحسن قراءته.

قال ابن القيم -رحمه الله-:

"وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفْر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً، فإن لها أهلاً ومستحقاً سواهم، فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائهم الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإنكم وإن لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالى: {قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً} [(١٠٧-١٠٨) سورة الإسراء].

وإذا كان للملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره فنظر إليهم وقال: إن يكفر هؤلاء نعمي ويعصوا أمري ويضيعوا عهدي فإن لي عبيداً سواهم وهم أنتم تطيعون أمري وتحفظون عهدي وتؤدون حقي فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجباً لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان، وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل

الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتعهده ويحافظ عليه، و{بِهَا} الأولى متعلقة بـــ{وكَّلْنَا} [(٨٩) سورة الأنعام] و{بِهَا} الثانية متعلقة {بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام]، والباء في {بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] لتأكيد النفي، فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكَّلين إنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولي الله؟ قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما أن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال: خليفة الله؛ لقوله: {وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ} [(١٢٩) سورة الأعراف].

وقوله: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} [(٥٥) سورة النـــــور] فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم إنه خليفة الله؛ لأنه استخلاف مقيد.

ولما قيل للصديق -رضي الله تعالى عنه- يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وحسبي ذلك.

ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك كما قال تعالى: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} [(٨٩) سورة الأنعام] والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام به علماً وعملاً وجهاداً لأعدائها وذباً عنها ونفياً لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وأيضاً فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه، ولهذا قال بعض السلف: {فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا} [(٨٩) سورة الأنعام] يقول: رزقناها قوماً فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها إنه وكيل الله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة فإنها المحبة والقرب، فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال: وليه، والله تعالى يوالي عبده إحساناً إليه وجبراً له ورحمة بخلاف المخلوق، فإنه يوالي المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته؛ لذل العبد وحاجته، وأما العزيز الغني فلا يوالي أحداً من ذل ولا حاجة.

قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [(١١١) سورة الإسراء] فلم ينف الولي نفياً عاماً مطلقاً بل نفى أن يكون له ولي من الذل، وأثبت في موضع آخر أن له أولياء بقوله: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [(٦٢) سورة يونس]، وقوله: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ} [(٢٥٧) سورة البقرة] فهذا موالاة رحمة وإحسان وجبر والموالاة المنفية موالاة حاجة وذلّ.

ولما ذكر سبحانه في سورة الأنعام أعداءه وكفرهم وشركهم وتكذيب رسله ذكر في أثر ذلك شأن خليله إبراهيم -عليه السلام- وما أراه من ملكوت السماوات والأرض، وما حاج به قومه في إظهار دين الله وتوحيده، ثم ذكر الأنبياء من ذريته وأنه هداهم وآتاهم الكتاب والحكم والنبوة، ثم قال: {فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] فأخبر أنه سبحانه كما جعل في الأرض من يكفر به ويجحد توحيده ويكذب رسله كذلك جعل فيها من عباده من يؤمن بما كفر به أولئك ويصدق بما كذبوا به ويحفظ من حرماته ما أضاعوه، وبهذا تماسك العالم العلوي والسفلى وإلا فلو اتبع الحق أهواء أعدائه لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه وبيته ودينه والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب

المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها وتمانعها، ولو كان اسم الحليم أدخل في الأوصاف واسم الصبور في الأفعال..." انتهى.

هذا الكلام في غاية النفاسة ولا تكاد تجد مثله في كتب التفسير، ولذلك نقول: من أراد أن ينمِّي ملكته وأن يوسِّع مداركه في التفسير فينبغي أن يدمن قراءة كلام شيخ الإسلام وكلام ابن القيم، وكلام الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وتفسير ابن جرير الطبري، ولا يستغني عن تفسير ابن كثير -رحمهم الله جميعاً- بل عليه أن يكثر من القراءة في هذه الكتب.

{لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ} [(٨٩) سورة الأنعام] أي: لا يجحدون منها شيئاً، ولا يردون منها حرفاً واحداً بل يؤمنون بجميعها محكمها ومتشابهها، جعلنا الله منهم بمنِّه وكرمه وإحسانه.

ثم قال تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: {أُوْلَئِكَ} [(٨٩) سورة الأنعام] يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه {الَّذِينَ هَدَى اللّهُ} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: هم أهل الهدى لا غيرهم.

قوله: "**مع من أضيف إليهم من الآباء والذرية والإخوان وهم الأشباه**" يعني بذلك قوله تعالى: **{وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ}** [(٨٧) سورة الأنعام] فالأشباه أو المتشبهون بغيرهم هم إخوان للمتشبه بهم كما هو أحد المعاني في قوله تعالى: **{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ}** [(٢٧) سورة الإسراء] حيث قيل: يعني أشباه الشياطين؛ لأنهم تشبهوا بهم في هذا، وكل من سار على سنة غيره واتبعه واقتفى أثره أو اشترك معه في العاقبة فإنه يقال له ذلك، والله أعلم.

{فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: اقتدِ واتبع، وإذا كان هذا أمراً للرسول -صلى الله عليه وسلم- فأمته تبعٌ له فيما يشرعه ويأمرهم به.

روى البخاري عند هذه الآية أن مجاهداً سأل ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أفي "ص" سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ} [(٨٤) سورة الأنعام] إلى قوله: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [(٩٠) سورة الأنعام] ثم قال: هو منهم، زاد في رواية عن مجاهد: قلت: لابن عباس فقال: نبيكم -صلى الله عليه وسلم- ممن أمر أن يقتدي بهم[١].

بمعنى أن داود -صلى الله عليه وسلم- سجدها، فسجدها النبي -صلى الله عليه وسلم- فهذا جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيقال يفعل اتباعاً للنبي -عليه الصلاة والسلام-.

وقوله: **{فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}** [(٩٠) سورة الأنعام] بعض أهل العلم حمل ذلك على عبادة الله -عز وجل- وطاعته والاستقامة على دينه وما أشبه ذلك.

وبعضهم يحتج بهذه الآية على أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم ينسخ، وهذه المسألة فيها قولان مشهوران لأهل العلم، منهم من يقول: هو شرعٌ لنا ما لم ينسخ، وبعضهم يقول: ليس بشرع لنا إلا ما ورد في شرعنا من موافقته وتقريره مثل سجدة "ص".

---

[١] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير -باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٦) (ج ٤ / ص ١٦٩٥).

والواقع أن هذا يكون من قبيل الاتباع للنبي -صلى الله عليه وسلم- وليس من اتباع شرع من قبلنا، وبناءً على هذا استنبط العلماء أشياء كثيرة مما ورد في قصص الأنبياء، ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{خَرَقَهَا}** [(٧١) سورة الكهف] أي: الخضر، قالوا: يؤخذ منه جواز إفساد البعض لإبقاء واستصلاح الكل أو الباقي.

وفي قوله تعالى في قتل الغلام: **{فَقَتَلَهُ}** [(٧٤) سورة الكهف] ثم بين ذلك وعلله بأن الغلام له أبوان على الإيمان فقال: **{فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}** [(٨٠) سورة الكهف] فهنا هل يجوز للقاضي أن يحكم بعلمه، بمعنى أن القاضي إذا كان يعرف أن هذا الإنسان سيئ وسارق وفاجر فهل يحكم عليه بناء على هذه المعلومات التي عنده أو لابد أن يسمع البينات وكلام الشهود، ثم يحكم بناءً على ما يسمع؟

على كل حال إن جاء في شرعنا ما يوافق شرع من قبلنا فهذا لا إشكال في أنه يعمل به، وإن جاء في شرعنا ما يخالفه فهذا لا إشكال أنه لا يعمل به، لكن يبقى النظر فيما لم يأت في شرعنا ما يوافقه أو يخالفه هل يعمل به أو لا؟

وقوله تعالى: {قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً، أي أجرة، ولا أريد منكم شيئاً.

هذا يؤخذ منه أنه إذا كان هذا قاله الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- فكذلك الدعاة من بعده لا يأخذون أجراً على دعوتهم وما يقدمونه للناس، لا مباشرةً ولا بطريقٍ غير مباشر عملاً بقوله تعالى: **{قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ}** [(٤٧) سورة سبأ] فالدعوة تقدم وتبذل للناس مجاناً دون أن يطلب من المدعوين مقابلاً على ذلك، فالداعية إلى الله -تبارك وتعالى- ينبغي أن يكون أمره لله في كل شئونه، لا ينتظر من الناس شيئاً، ولا يأخذ على دعوته أجراً لا مباشرةً بأن يطلب مقابلاً على هذا ولا بطريق غير مباشر كأن يكلف الناس أشياء تحتاج إلى نفقات وما أشبه ذلك من أجل أن يتفضل عليهم بدرسٍ أو محاضرةٍ أو دورة أو نحو هذا، فهذا لا يليق، وكذلك الأمر أيضاً حينما يذهب معهم في حجٍ أو نحو ذلك لا ينبغي أن يطلب منهم شيئاً، أو يشترط عليهم شيئاً، وإذا أُعطي شيئاً لا يليق به أن يأخذه بحالٍ من الأحوال.

وهكذا أيضاً لا يصلح أن يبيع ما يبذله ويقدمه من محاضرات وأشرطة؛ فذلك يؤدي إلى أن تنطفئ نور الكلمة ويذهب أثرها وتبقى الكلمات ميتة تخرج من فم الإنسان ولا أثر لها ولا نفع -نسأل الله العافية- فالدعوة تبذل للناس مجاناً لا يؤخذ عليها مقابل وإلا فإن هذا يعني نهاية الداعية وذلك بأن يقبر وهو حي، بمعنى أنه يتكلم ويلقي، لكن كلامه لا يجاوز الأسماع ولا يكون فيه بركة ولا نفع مهما تأول في ذلك، نسأل الله العافية.

{إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ} [(٩٠) سورة الأنعام] أي: يتذكرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى ومن الغي إلى الرشاد ومن الكفر إلى الإيمان.

{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ* وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [(٩١-٩٢) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش، وقيل نزلت في طائفة من اليهود {قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام] كما قال: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ} [(٢) سورة يونس].

قوله: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}** [(٩١) سورة الأنعام] أي: ما عظموه حق تعظيه؛ لأنهم قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] فمن عرف الله -عز وجل- حق المعرفة وعرف حكمته وكمال عدله -سبحانه وتعالى- فإنه يحكم بأن الله -تبارك وتعالى- حكيم في غاية الحكمة، وأن مقتضى عدله أن يرسل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأن ينزل الكتب، وهذا أيضاً من كمال رحمته بالخلق.

يقول تعالى: **{وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] من نظر إلى أن السورة مكية وأن السياق السابق كان في المشركين، وأن السورة نزلت جملة واحدة، قال هذه الآية في المشركين من قريش، وهذا اختيار كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- قاله لهذا السبب، والله تعالى أعلم.

والقول الآخر إنها في اليهود، وهذا يؤيده سبب النزول الذي جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من طريق ابن أبي طلحة -وقد عرفنا أن هذا الإسناد إسناد جيد- وفيه أن اليهود قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] فأنزل الله: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ}** [(٩١) سورة الأنعام] وهذا القول يشكل عليه أن السورة مكية، فكيف تكون نزلت بسبب قول اليهود؟ كما أن القول بأنها نزلت في المشركين يشكل عليه ما ذكر بعده: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] فالذي فعل هذا هم اليهود قطعاً وليس مشركو قريش.

وهذا كله يذكِّر بما ذكرناه في أول السورة أن بعض أهل العلم استثنى بعض الآيات وقال: إنها مدنية نظراً لمثل هذا كما أنه يمكن أن يقال -كما سبق أيضاً- إن الآية قد تنزل مرتين.

وابن جرير -رحمه الله- كان يقرأ بالقراءة الأخرى **(يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً)** فعلى هذه القراءة يكون السياق حكاية عن اليهود هكذا: **(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدىً للناس يجعلونه قراطيس يبدونها)** وعلى هذه القراءة تكون الآية نازلة في المشركين دون إشكال، لكن قد عرفنا أن تعدد القراءات ينزَّل منزلة تعدد الآيات فإذا كان للآية أكثر من قراءة فهما بمنزلة الآيتين أو الآيات المتعددة.

ولهذا فإن ابن القيم -رحمه الله- في ظاهر كلامه يرى أن هذه الآية في كل من قال ذلك، أي قاله المشركون وقاله اليهود فيدخل فيه هؤلاء وهؤلاء.

وأجاب -رحمه الله- عن الإشكال في قوله: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] بأن هذا من باب الاستطراد، أي أن الله تعالى ذكر هذا لإيضاح قضية حيث استطرد من شيء إلى نظيره وشبيهه وما أشبه ذلك، بمعنى أنه قال: إذا كان قوله:**{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] في المشركين فمعنى ذلك أنه رد عليهم بهذا؛ لأنهم قد لا ينكرون أن الله أنزل على موسى كتاباً، فالمشركون من قريش يعرفون هذا، فهو احتج عليهم بما يعرفونه وما يسلمون به فقال: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ**

{الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [(٩١) سورة الأنعام]، وعلى فرض أنهم لا يؤمنون بهذا أو لا يرفعون له رأساً فالمعنى أنه يقول لهم: أنتم جهلة فاسألوا أهل الكتاب الذين لهم رسوخ في هذا ويعرفون الكتب والأنبياء –عليهم الصلاة والسلام– **{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}**؟ [(٩١) سورة الأنعام] ثم استطرد في ذكر اليهود فقال: تجعلونه أيها اليهود قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً.

وقال ابن القيم –رحمه الله–: إن هذا الأسلوب من الكلام موجود في القرآن ومنه قوله تعالى: **{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ}** [(١٢) سورة المؤمنون] أي آدم –صلى الله عليه وسلم– فالكلام في هذه الآية عن آدم الذي هو أصل الخلق، ثم قال: **{ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا}** [(١٣-١٤) سورة المؤمنون] فالمقصود هنا ليس آدم –صلى الله عليه وسلم– وإنما المقصود ذريته، وبمثل ذلك يقال في آية الأعراف: **{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً}** [(١٨٩-١٩٠) سورة الأعراف] فالحديث في البداية عن أصل الخلق آدم –عليه الصلاة والسلام– لكن قوله تعالى: **{فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا}** [(١٩٠) سورة الأعراف] فهنا بدأ يتحدث عن ذرية آدم وليس المراد آدم نفسه.

ومن أمثلة الاستطراد الذي يشبه هذا قوله تعالى: **{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}** [(٩) سورة الزخرف] ثم استطرد في ذكر صفته فقال: **{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا}** [(١٠) سورة الزخرف] فكان يسألهم من خلق السماوات والأرض ثم يحتج عليهم بذكر صفة هذا الخالق –سبحانه وتعالى– والخلاصة أن الحافظ ابن القيم يرى أن آية الأنعام يدخل فيها أهل الإشراك ويدخل فيها اليهود.

وكقوله تعالى: {وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً* قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاء مَلَكًا رَّسُولاً} [(٩٤-٩٥) سورة الإسراء] وقال هاهنا: {وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} [(٩١) سورة الأنعام].

قال الله تعالى: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: {مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [(٩١) سورة الأنعام] وهو التوراة التي قد علمتم وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران {نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويُهتدى بها من ظلم الشبهات.

هم نفوا نفياً مطلقاً أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الوحي إذ قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] فـــ"شيء" نكرة في سياق النفي، وأُكِّدت بـــ"من" التي تنقلها من حيز الظهور في العموم إلى حيز التنصيص الصريح في العموم، وفي باب الجدل والمناظرة يقال: أُبطل هذا الادعاء أو الاحتجاج بما يسمى بالنقض فهم لما قالوا: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] نقض الله –تبارك وتعالى– عليهم هذا بقوله: **{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ}** [(٩١) سورة الأنعام]،

والمعنى أن هذه قضية سالبة -أعني قولهم: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام]- فهو نقضها عليهم بقضية موجبة فقال: **{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ}** [(٩١) سورة الأنعام] وبعبارة أخرى يقال: إن قولهم: **{مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ}** [(٩١) سورة الأنعام] رُدَّ بقوله: **{مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ}** [(٩١) سورة الأنعام] فإن نفوه كفروا بكتابهم الذي يؤمنون به، وإن قالوا: إن الذي أنزله هو الله تكون مقولتهم الأولى كاذبة -أعني قولهم ما أنزل الله على بشر من شيء-، ولهذا فإن من وجوه الجدل والمناظرة التي وردت في القرآن النقض، ولذلك إذا استطعت أن تثبت شيئاً خلاف ما أنكره الخصم فإنك تكون قد أبطلت قوله ودعواه، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام] أي: تجعلون جملتها قراطيس، أي: قطع تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم، وتحرفون منها ما تحرفون، وتبدلون وتتأولون، وتقولون: {هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٩) سورة البقرة] أي: في كتابه المنزل {وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ} [(٧٨) سورة آل عمران] ولهذا قال: {تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} [(٩١) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: ومن أنزل القرآن الذي علَّمكم الله فيه من خبر ما سبق، ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك لا أنتم ولا آباؤكم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] مضت الإشارة إلى أنه على قراءة الياء **(يجعلونه قراطيس يبدونها)** يكون في اليهود، وذلك ظاهر من هذه القراءة والله تعالى أعلم، وأما على قراءة التاء **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] فمن قال: إن الآية من أولها في اليهود، قال: إنه رد عليهم بهذا، فقال مخاطباً لهم: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام]، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر السياق، ولكن يشكل على هذا كما سبق أن السورة مكية، وذكرنا توجيه الحافظ ابن القيم لهذا المعنى على قراءة **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] أن هذا من باب الاستطراد على قول من قال: إن الآية مكية وأن ذلك في المشركين من قريش، فلما ذكر الرد عليهم **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] استطرد في ذكر اليهود **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] وذكرنا نظائر ذلك.

وقوله: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** [(٩١) سورة الأنعام] سبق الكلام في موضعين من القرآن عن التحريف، وهل كان الذي قد حرف هو أصل الكتاب أو أن الذي حرف هي تلك القراطيس التي كانوا يبدونها للناس ولم يقع التحريف في أصل الكتاب؟، وقد ذكرنا قبل بأن الأقرب من أقوال أهل العلم -والله تعالى أعلم- أن التحريف وقع في أصل كتابهم؛ ويدل على هذا تلك النسخ المنتشرة في الآفاق التي تتناقض غاية التناقض، ولا يوجد ما يثبت في حال من الأحوال أنهم يحتفظون بأصل الكتاب الذي لم يحرف.

وقوله -تبارك وتعالى-: **{تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا}** يعني تظهرونها للناس **{وَتُخْفُونَ كَثِيرًا}** [(٩١) سورة الأنعام] هذه الآية أو ما قبل هذه الجملة من قوله: **{قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى}** [(٩١) سورة الأنعام] مندرج تحت قاعدة معروفة وهي أن القرآن إذا ذكر مقالة قائل فإنه إن لم يذكر معها ما يبطلها أو يدل

على بطلانها قبلها أو في أثناء ذكرها أو بعد أن يذكرها فإن ذلك يدل غالباً على صحتها، كما قلنا في قوله تعالى: {سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ} [(٢٢) سورة الكهف] فما رد على من قال بالعدد الأخير، فقد يؤخذ منه أن هذا هو القول الصحيح فيهم، وفي عامة المواضع في القرآن يذكر ما يدل على البطلان كما في هذه الآية: {مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ} فرد قائلاً: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى} [(٩١) سورة الأنعام] فرد هذه المقالة وأبطلها.

وقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: والحال أنكم علمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، ويحتمل أن تكون هذه الجملة استئنافية مقررة لمضمون الجملة التي قبلها {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام]، والذي عُلِّموه هو الذي أخبرهم عنه النبي -صلى الله عليه وسلم- من الأمور التي أوحى الله -عز وجل- بها إليه، فهي مشتملة على علم ما لم يعلموه من كتبهم إذا قلنا: إن ذلك يقصد به أهل الكتاب، أي: وعلمتم ما لم تعلموا مما أظهره النبي -صلى الله عليه وسلم- لكم وأبانه مما ليس في كتابكم.

وكذلك إذا قيل: إن الخطاب متوجه للمشركين -أعني قوله: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام]- فيعني عن طريق هذا الوحي الذي أنزله الله -عز وجل- على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

ويجوز أن تكون "ما" من قوله: {وَعُلِّمْتُم مَّا} يقصد بها ما علموه من التوراة؛ ليكون ذلك على وجه الامتنان عليهم بإنزال التوراة، أي: قل لهم: من الذي علمكم هذا، فهذا رد على اليهود وامتنان عليهم بذلك.

وبعضهم يقول: إن هذا الخطاب للمؤمنين، بمعنى أنه انتقل من الكلام على اليهود أو من الكلام على المشركين ثم قال: {وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ} [(٩١) سورة الأنعام] أي كنتم في جهالة وعماية ثم بعث الله -عز وجل- لكم هذا النبي فعلمتم من الوحي ما صرتم به بمنزلة عالية رفيعة من العلم والإيمان، فهو يمتن على المؤمنين بهذا، وهذا المعنى هو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وقد يقال -والله أعلم-: إن ظاهر السياق أن ذلك في اليهود، وأن الله -عز وجل- يرد عليهم ويذكر مننه وإنعامه وافضاله الذي كفروه ولم يقابلوه بالشكران، والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: {قُلِ اللّهُ} [(٩١) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: أي: قل الله أنزله.

وقوله: {ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} [(٩١) سورة الأنعام] أي: ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين فسوف يعلمون ألهم العاقبة أم لعباد الله المتقين؟.

وقوله: {وَهَذَا كِتَابٌ} يعني القرآن {أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى} [(٩٢) سورة الأنعام] يعني مكة {وَمَنْ حَوْلَهَا} من أحياء العرب، ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم، كما قال في الآية الأخرى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [(١٥٨) سورة الأعراف].

يقول تعالى: {وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [(٩٢) سورة الأنعام] أم القرى مكة، ومن حولها العالم بأكمله، وهذا من الأدلة الدالة على عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم-، ومن توهم غير هذا من هذه الآية فينبغي أن يضم

إليها سائر الآيات والأحاديث الدالة على عموم بعثته -صلى الله عليه وسلم- كقوله: **{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}** [(١٥٨) سورة الأعراف] وما شابه ذلك.

وقال: {لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [(١٩) سورة الأنعام] وقال: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [(١٧) سورة هود] وقال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [(١) سورة الفرقان] وقال: {وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [(٢٠) سورة آل عمران].

وثبت في الصحيحين أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي)) وذكر منهن: ((وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة))[1] ولهذا قال: {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ} [(٩٢) سورة الأنعام] أي: كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن {وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [(٩٢) سورة الأنعام] أي: يقومون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها.

{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ* وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٩٣-٩٤) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء أو ولداً أو ادعى أن الله أرسله إلى الناس ولم يرسله، ولهذا قال تعالى: {أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ} [(٩٣) سورة الأنعام] قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب.

ذكر هنا قضيتين: الأولى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا}** [(٩٣) سورة الأنعام] والثانية: **{أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ}** [(٩٣) سورة الأنعام] يعني ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، وكذلك من أظلم ممن قال أوحي إلي ولم يوحَ إليه شيء، وهذا داخل في عموم الذي قبله؛ لأن الذي يقول: أوحي إلي ولم يوحَ إليه هو مفترٍ على الله الكذب.

وقوله: **{وَمَنْ أَظْلَمُ}** أي: لا أحد أظلم؛ فهذا استفهام مضمنٌ معنى النفي كما سبق في نظائر هذه الآية كقوله تعالى: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا}** [(١١٤) سورة البقرة].

فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآيات، بمعنى أيهما أظلم الذي يمنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أم من افترى على الله كذباً؟ قلنا: يجاب عن هذا بجوابين أحدهما: أن أفعل التفضيل تمنع أن يزيد أحد الطرفين على الآخر ولكنها لا تمنع التساوي، أي أن هؤلاء وغيرهم كلهم قد بلغوا في الظلم غايته، فلا إشكال

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب التيمم (٣٢٨) (ج ١ / ص ١٢٨) وفي أبواب المساجد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)) (٤٢٧) (ج ١ / ص ١٦٨) وأخرجه أيضاً مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) (ج ١ / ص ٣٧٠).

أن يُذكرَ أصناف ويقال: إنهم أظلم الناس أو لا أحد أظلم منهم؛ لأن المراد أنه لا أحد يزيد عليه لكن يبقى من يشتركون معهم بقدر معين من الظلم الذي وصلوا إليه دون أن يزيدوا عليهم فيه.

الجواب الثاني: أن هذه الآيات تشترك في أن كل آية منها تقول: لا أحد أظلم ممن فعل هذا الفعل على أن كلاً منها تكون مختصة بباب معين، ففي باب الافتراء لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، وفي المنع من دخول المساجد لا أحد أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وهكذا كل واحدة مختصة بالباب الذي ذكرت فيه، والله أعلم.

يقول -رحمه الله-: "**قال عكرمة وقتادة: نزلت في مسيلمة الكذاب**" هذا عن عكرمة وقتادة من قبيل المراسيل، والمرسل من أنواع الضعيف كما هو معلوم، وقد جاءت روايات أخرى أنها نزلت في عبد الله بن أبي السرح في قصته المعروفة لكنها لا تصح أيضاً وذلك أنه قال في آخر الآية التي كان يمليها عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد كان من كُتَّاب الوحي، قال: فتبارك الله أحسن الخالقين، أي قال ذلك من عند نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((هكذا أنزلت)) فقال: إن كان محمد يختلق القرآن فقد قلت مثله، وإن كان يوحى إليه فقد أوحيَ إليَّ فارتدَّ ورجع إلى مكة[2] فلما جاء عام الفتح ذهب إلى أخيه من الرضاعة عثمان بن عفان -رضي الله تعالى عنه- فطلب له الأمان من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فالمقصود أن الروايات الواردة في أنه قال ذلك وأنه ارتد بسبب هذه القضية لا يثبت منها شيء، ولو ثبتت فمعلوم أن القرآن قد ينزل موافقاً لما جرى على لسان بعض الناس كما في موافقات عمر -رضي الله تعالى عنه- والله أعلم.

{وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول كقوله تعالى: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا} الآية [(٣١) سورة الأنفال].

قال الله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: في سكراته وغمراته وكرباته.

الغمرات جمع غمرة، وهي الشدة والكرب والحال الصعبة، وأصل ذلك كأنه مأخوذ مما يغمر الشيء ويغطيه، تقول: غمره الماء، فيقال: فلان في غمرة يعني في كرب وشدة.

{وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالضرب، كقوله: {لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي} الآية [(٢٨) سورة المائدة].

قوله: "**{وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام]** قال: أي: **بالضرب**"؛ لأن البسط يأتي بهذا المعنى كما قال تعالى: **{وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ}** [(٢) سورة الممتحنة] فالبسط يكون بإيصال الأذى بالقول أو بالفعل، يقال: بسط إليه يده ولسانه، بمعنى أنه آذاه بيده ولسانه.

[2] - هذه القصة أوردها الواحدي والقرطبي ونسباها لرواية الكلبي عن ابن عباس، والكلبي متهم بالكذب، وروايته ساقطة وللقصة أصل عند أبي داود والنسائي، انظر كتاب " تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن" (ج ١ / ص ١٣٣).

فقوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني بالضرب الوجيع وذلك عند نزع أرواحهم أو في اليوم الآخر، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن تفسر بما بعدها أعني بقوله: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] وإن كان يحتمل أن يراد بالبسط بسط اليد لاستلام الروح، لكن أحسن من هذا أن تفسر بالآية الأخرى وهي قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [(٥٠) سورة الأنفال] فهذا الضرب هو المراد بقوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] والله تعالى أعلم؛ وذلك أن خير ما يفسر به القرآن القرآنُ.

وإن كان قوله: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني في الآخرة وباسطو أيديهم يعني بالضرب والعذاب فإن قوله: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] يعني يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم وخلصوها مما أنتم فيه إن استطعتم، وإذا قلنا: إن هذا عند الموت فإن معنى {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي يضربونهم لينتزعوا منهم الأرواح ويقولون لهم: أخرجوا أرواحكم لنقبضها، وهذا هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ} الآية [(٢) سورة الممتحنة] وقال الضحاك وأبو صالح: {بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالعذاب كقوله: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ} [(٥٠) سورة الأنفال] ولهذا قال: {وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ} [(٩٣) سورة الأنعام] أي: بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ} [(٩٣) سورة الأنعام] وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمن الرحيم فتتفرق روحه في جسده وتعصى وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: {أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ} الآية [(٩٣) سورة الأنعام] أي: اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته والانقياد لرسله.

قوله: {عَذَابَ الْهُونِ} [(٩٣) سورة الأنعام] هذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، وعذاب الهون -بضم الهاء- يعني العذاب المهين، وأما الهَون -بفتح الهاء- فمعناه الرفق كما في قوله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً} [(٦٣) سورة الفرقان] يعني يمشون برفق.

وقد وردت الأحاديث المتواترة في كيفية احتضار المؤمن والكافر عند الموت، وهي مقررة عند قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} [(٢٧) سورة إبراهيم].

وقوله: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٤٨) سورة الكهف] أي: كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا يوم البعث.

المعنى الذي مشى عليه الحافظ ابن كثير في قوله تعالى: {جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} هو المعنى الأول، يعني منفردين، وهذه الآية هي كقوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] بمعنى أن الله كما ابتدأ خلقكم أعاده ثانية.

والمعنى الثاني الذي يحتمله قوله تعالى: {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] أن الإنسان يأتي يوم القيامة كما خلقه الله -عز وجل- حين خلقه كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً))[٣] أي غير مختونين، فيكون قوله: {كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] يعني كهيئة خلقكم الذي خلقكم الله عليه من غير شيء يغير ذلك.

فإن كانت الآية في سياق الاحتجاج على النشأة الثانية بالنشأة الأولى، فالمعنى أن الذي خلقكم أولاً قادر على أن يعيدكم ثانية، وهذا الذي قد يفهم من ظاهر الآية، لكن النبي -صلى الله عليه وسلم- حملها على المعنى الآخر حينما قرأها على المنبر حيث ذكر معها قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً)) ولذلك يقال: إن الآية تحمل على المعنيين وإن كان السياق في الاحتجاج على المشركين بالبعث، وما يقال في قوله -تبارك تعالى-: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(٩٤) سورة الأنعام] يقال أيضاً في قوله تعالى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ} [(١٠٤) سورة الأنبياء] ولهذا حملها ابن جرير وجماعة من أهل العلم ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على أن المراد حفاة عراة غرلاً لا ثياب ولا خدم ولا حشم ولا أموال، وإنما يأتي الإنسان متجرداً من ذلك كله، هكذا قالوا فيها، والحافظ كما رأينا جعلها من قبيل الاحتجاج على النشأة الثانية بالنشأة الأولى، والقرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، وهذا يوجد ما يشهد له في القرآن، ويوجد ما يشهد له أيضاً من السنة، والله أعلم.

وقوله: {وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ} أي: من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا {وَرَاء ظُهُورِكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام].

الخول هو ما يعطاه الإنسان من متاع الحياة الدنيا، فقوله: {وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: ما أعطيناكم من متاع الدنيا من الأموال والزينة والأولاد وما أشبه ذلك.

وثبت في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يقول ابن آدم مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس))[٤].

وقال الحسن البصري: يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج، فيقول الله -عز وجل-: أين ما جمعت؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك؟ فلا يراه قدم شيئاً، وتلا هذه الآية: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ} الآية [(٩٤) سورة الأنعام] [رواه ابن أبي حاتم].

يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج من الذل، والبذج هو ولد الضأن، والمعنى أنه يؤتى به وهو في غاية الضعف والذلّ بعد أن كان يشمخ بأنفه ولا يرى الناس شيئاً، وفي الحديث الآخر: ((يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان))[٥] نسأل الله العافية.

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الرقاق - باب كيف الحشر (٦١٦٢) (ج ٥ / ص ٢٣٩١) ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها - باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٩) (ج ٤ / ص ٢١٩٤).

[4] - أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٣).

[5] - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٧) (ج ١ / ص ١٩٦) والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ٤٧ (٢٤٩٢) (ج ٤ / ص ٦٥٥) وحسنه الألباني رحمه الله.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول ابن آدم مالي مالي))[٦] يعني أنه في الدنيا يتحدث فيقول: هذا مالي، وهذه أرضي، وهذا داري، وليس له إلا ما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذا هو الذي يبقى، ولو عقل الإنسان وفكر لعرف هذه الحقيقة جيداً، ولذلك لو نظرت إلى الناس فيما يملكون وما تحت أيديهم من الأموال فإنك ترى عجباً، فأحياناً قد ترى الإنسان فتظنه من الفقراء وهو يملك أموالاً طائلة لم تؤثر عليه فلم تُرَ نعمة الله عليه، وربما لا يتصدق ولا تراه يلبس لباساً حسناً، وهكذا إنما يشقى غاية الشقاء.

يقول أحد الإخوة المدرسين: كنت عند الصرافة فجاء شخص لا يعرف القراءة والكتابة وبالتالي لا يستطيع استعمال الصرافة، ورأيت ثيابه في غاية الرثاثة فاستغربت كونه يمتلك بطاقة مع أن شكله فقير حتى ظننت أنه يسأل!!

يقول: فقال لي: اسحب لي من الصرافة مائة ريال وإن كنت لست بحاجة إليها لكني أريد أن أعرف رصيدي! يقول: قلت له: يمكنك أن تعرف الرصيد دون أن تسحب مائة ريال، قال: إذن: انظر لي كم الرصيد، يقول: والله ما عرفت أن أقرأ الرصيد، فقلت له: لم أعرف، لكن أخرج لك ورقة من الآلة وخذها معك! هذه من القصص العجيبة، فهذا ماذا يستفيد من ماله؟ لا شيء إلا أنه سيحاسب عليه، نسأل الله العافية.

وقوله: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء} [(٩٤) سورة الأنعام] تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم إن كان ثَمَّ معاد، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضلّ عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب -جل جلاله- على رءوس الخلائق: {أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٦٢) سورة القصص] ويقال لهم: {أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ* مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ} [(٩٢-٩٣) سورة الشعراء] ولهذا قال هاهنا: {وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع أي: شملُكم.

قوله تعالى: {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع (بينُكم) أي: تقطَّع شملُكم باعتبار أن (بينُكم) فاعل، وهذه القراءة هي التي عليها عامة القراء عدا نافعاً والكسائي وحفصاً حيث قرأها هؤلاء بالنصب ليكون المعنى لقد تقطع ما بينكم، بل ورد هذا المعنى على أنها قراءة أحادية وهي قراءة ابن مسعود -رضي الله عنه-.

وعلى قراءة {لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] يمكن أن يكون النصب على الظرفية، فـ بينكم يكون منصوباً على الظرفية، ويكون فاعل تقطع محذوفاً تقديره تقطع ما بينكم أو تقطع الوصل بينكم أي: تقطع وصلكم وشملكم وتمزقت الأواصر والوشائج التي بينكم وبين معبوداتكم وأعوانكم ومن يشاركونكم في هذا الجرم ولو كانوا من قراباتكم، نسأل الله العافية.

{لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ} [(٩٤) سورة الأنعام] قرئ بالرفع: أي شملُكم، وبالنصب: أي: لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل {وَضَلَّ عَنكُم} [(٩٤) سورة الأنعام] أي: ذهب عنكم {مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [(٩٤)

---

[6] - قد سبق أنه في صحيح مسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٥٨) (ج ٤ / ص ٢٢٧٣).

سورة الأنعام] من رجاء الأصنام والأنداد كقوله تعالى: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ} [(١٦٦-١٦٧) سورة البقرة] وقال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} [(١٠١) سورة المؤمنون] وقال تعالى: {إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ} [(٢٥) سورة العنكبوت] وقال: {وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ} الآية [(٦٤) سورة القصص] وقال: {وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(٢٢) سورة الأنعام] إلى قوله: {وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(٢٤) سورة الأنعام] والآيات في هذا كثيرة جداً.

{إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ* فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٥-٩٧) سورة الأنعام].

يخبر تعالى أنه فالق الحب والنوى، أي: يشقه في الثرى، فتنبت منه الزروع على اختلاف أصنافها من الحبوب، والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى.

قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ} يعني يفلق الحب فيخرج منه النبات، ويفلق النوى فيخرج منه الشجر.

وبعضهم يفسر قوله: {فَالِقُ} بمعنى خالق، يعني خالق الحب والنوى، والمعنى الذي قبله هو الذي عليه عامة المفسرين وهو الأقرب -والله تعالى أعلم-.

وبعضهم يقول: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] المقصود أن الله -عز وجل- جعل صفتها وهيئتها مفلوقة أي مشقوقة من الوسط، فأنت ترى النواة مشقوقة من الوسط وترى حبة البر فيها هذا الشق أيضاً، فبعضهم يقول: إن هذا هو المراد بقوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] أي خلقه بهذه الهيئة، وبعضهم يقول: يفلق الحب عن السنبل ويفلق النواة من التمرة.

والأقرب -والله أعلم- أن قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: يفلق من الحب النبات فيخرج منه السنبلة، ويفلق النواة فيخرج منها الشجرة التي يخرج منها الثمر.

وعلى كل حال فالله -تبارك وتعالى- أخبر أنه فالق الحب والنوى فيدخل في هذا المعنى أنه يفلق الحب فيخرج منه النبات، ويفلق النوى فيخرج منه الشجر، ولا مانع أن يدخل فيه المعنى الآخر وهو أن الله خلقها بهذه الصفة فهو فالقها، والمعنى الثالث داخل في ذلك أيضاً وهو أنه خالقها فكل هذا يصدق عليه أنه فلق، ولهذا قال: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ} [(٩٦) سورة الأنعام] أي أن الله خلقه، أو أنه ينشق عمود الصبح عن الظلام فيظهر نور الصبح، وذلك يرجع إلى الخلق أيضاً، ولهذا يقال: إن قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] يمكن أن يدخل فيه أنه خالق وبهذه الصفة يفلق تعالى من الحب النبات ومن النوى السنبلة.

والنوى لا يختص بالتمر بل النوى يصدق على الخوخ والمشمش وما شابه ذلك مما فيه نوى، والله أعلم.

ولهذا فُسِّر قوله: {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] بقوله: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: يخرج النبات الحيَّ من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت.

الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- أن قوله: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}** من قبيل التفسير لفالق الحب والنوى، بمعنى أنك إذا قلت: ما معنى قوله: **{فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى}**؟ [(٩٥) سورة الأنعام] قال: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}** [(٩٥) سورة الأنعام] وهذا الذي مشى عليه ابن كثير تحتمله الآية وهو لا ينافي القول السابق، فالنواة تعتبر ميتة والحبة تعتبر ميتة فيخرج منها الحي وهي الشجرة الخضراء، أو النبتة الخضراء.

ويمكن أن يكون ذلك من قبيل عطف الأخبار فهو أخبر عن الله -عز وجل- أخباراً تدل على قدرته وعظيم شأنه -سبحانه وتعالى- ودقة خلقه وبديع صنعه، فأخبر أنه فالق الحب والنوى وأخبر أنه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، وعلى هذا يكون هذا خبراً جديداً يقرر فيه قضية جديدة تدل على قدرة الله تعالى هي قضية غير القضية الأولى.

كقوله: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ} [(٣٣) سورة يــــس] إلى قوله: {وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} [(٣٦) سورة يــــس].

وقوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام] معطوف على {فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى} [(٩٥) سورة الأنعام] ثم فسره، ثم عطف عليه قوله: {وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ} [(٩٥) سورة الأنعام].

وقد عبروا عن هذا وهذا بعبارات كلها متقاربة مؤدية للمعنى، فمن قائل: يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه، ومن قائل: يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها.

على القول بالمجاز نقسم الحي والميت إلى قسمين: حي حقيقة وحي مجازاً، وميت حقيقة وميت مجازاً، والقاعدة أن اللفظ إذا دار بين الحقيقة والمجاز فالأصل حمله على الحقيقة، وإذا حملناه هنا على الحقيقة يكون معنى الآية أن الإنسان الحي خلق من نطفة ميتة، ولا يقول قائل: اكتشف العلم الحديث أن الحيوانات المنوية تسبح، فالكلام الذي يقصده الفقهاء بلغة الكتاب والسنة أن الميت هو ما لا روح فيه، فيقولون: النطفة ميتة يعني لا روح فيها، فهذا لا ينافي كون النطفة فيها حيوانات منوية تسبح.. إلى آخره.

والخلاصة أن النطفة تخرج من الإنسان ميتة وهو حي، والفرخ الحي يخرج من الدجاجة الميتة، والبيضة ميتة تخرج من الدجاجة الحية، وهكذا، ويمكن أن ندخل في هذا القول أن النبات حي باعتبار أن الله -عز وجل- سمى ذلك إحياء وحياة كما في قوله تعالى: **{وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}** [(١٩) سورة الروم] فيقال أيضاً: يخرج النبات الحي من الحبة الميتة، والشجرة الحية من النواة الميتة، والنواة الميتة تخرج من الشجرة الحية، وهكذا، هذا هو المقصود بالموت والحياة إذا حملنا لفظ الموت والحياة على المعنى الحقيقي.

وإذا حملنا الحياة على المعنى المجازي فيدخل في الحياة والموت الهدى والضلال والإيمان والكفر، فالله -عز وجل- يقول: **{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ}** [(١٢٢) سورة الأنعام] فقوله: **{مَيْتًا}** يعني ضالاً، وقوله: **{فَأَحْيَيْنَاهُ}** يعني أحياه الله -عز وجل- فعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: **{يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ}** [(٩٥) سورة الأنعام] يعني يخرج المؤمن من صلب الكافر والمهتدي من الضال، وقوله: **{وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ}** [(٩٥) سورة الأنعام] يعني يخرج الكافر من المؤمن، والضال من المهتدي، ولهذا فالحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال: هي معان متقاربة، وهذا صحيح فالقاعدة أنه يمكن حمل الكلام على حقيقته ومجازه ما لم يوجد مانع يمنع من

ذلك؛ لأن القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، فتفسر الآية بهذا كله، والله -تبارك وتعالى- ما خص شيئاً دون شيء، فيخرج الحي من الميت أي: يخرج المهتدي من الضال، ويخرج الفرخ من البيضة، وهكذا، والله أعلم.

ثم قال تعالى: {ذَلِكُمُ اللّهُ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له {فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} [(٩٥) سورة الأنعام] أي: كيف تصرفون عن الحق وتعدلون عنه إلى الباطل، فتعبدون معه غيره.

وقوله: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام] أي: فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح فيضيء الوجود ويستنير الأفق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه كقوله: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا} [(٥٤) سورة الأعراف] فبيّن تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام].

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: **{فَالِقُ الإِصْبَاحِ}** [(٩٦) سورة الأنعام]: "**يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح، فيضيء الوجود ويستنير الأفق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه**".

وبعضهم يقول: أي أنه فالق عمود الفجر عن بياض النهار؛ لأن النهار يستنير بانفلاقه من عمود الفجر الذي يسمونه الفجر الصادق، فهو يبدو في أول ما يبدو مختلطاً بالظلام ثم بعد ذلك لا يزال ينبلج وينجلي حتى يصير أبيض خالصاً.

قوله: **{وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] أي: ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال تعالى: **{وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى}** [(١-٢) سورة الضحى].

وقوله: **{وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] فيه قراءة أخرى هكذا **(ساكناً)** والمعنى واحد؛ لأن سكناً يعني ساكناً أو محلاً للسكن، فالله جعل الليل مظلماً من أجل أن ينقطع الناس من أشغالهم وكدّهم وسعيهم وانتشارهم فيسكنون في الليل ويستريحون من الكد والتعب وأعباء النهار، فهو -عز وجل- يمتن بهذه الآية على خلقه أنه جعل الليل بهذه المثابة كما قال في الآية الأخرى: **{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا}** [(٦٧) سورة يونس] وقال أيضاً: **{وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ}** [(٧٣) سورة القصص].

وفي آية القصص هذه ذكر قضيتين ثم ذكر ما يتعلق بكل واحدة منهما على الترتيب الذي سبق، وهذا من باب ما يسمى باللف والنشر المرتب، فقوله: **{جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ}** [(٧٣) سورة القصص] أي: لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار، والله أعلم.

وقابل ذلك بقوله: {وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال: {وَالضُّحَى* وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} [(١-٢) سورة الضحى] وقال: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} [(١-٢) سورة الليل] وقال: {وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا* وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا} [(٣-٤) سورة الشمس].

وقوله: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: يجريان بحساب مقنَّن مقدر لا يتغير ولا يضطرب بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً.

في قوله: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] قال: "**يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير**" وهذا هو المعنى المتبادر -والله أعلم-، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-.

وبعضهم يقول: إن قوله: **{حُسْبَانًا}** مصدر حسبت، والاسم هو الحساب؛ لأنك تقول: حسبت حساباً، وبعضهم يقول: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] أي: ضياءاً، ويحتجون لهذا بقوله -تبارك وتعالى-: **{حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاء}** [(٤٠) سورة الكهف] يعني النار، وقيل لها ذلك لإضاءتها، لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن قوله: **{وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا}** [(٩٦) سورة الأنعام] أي: يجريان بحساب مقدر فيترتب على ذلك اختلاف الأوقات، وتحصل ألوان المنافع من الضياء، وبالتالي فإن من فسر ذلك بالضياء فكأنه فسره باللازم، وحساب الأوقات يكون عن طريق الشمس والقمر، والله أعلم.

كما قال: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} الآية [(٥) سورة يونس] وكما قال: {لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [(٤٠) سورة يـــس] وقال: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ} [(١٢) سورة النحل].

وقوله: {ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(٩٦) سورة الأنعام] أي: الجميع جارٍ بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف، العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر يختم الكلام بالعزة والعلم كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله: {وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(٣٧-٣٨) سورة يـــس]، ولما ذكر خلق السماوات والأرض وما فيهن في أول سورة {حم} السجدة، قال: {وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} [(١٢) سورة فصلت].

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٩٧) سورة الأنعام]، قال بعض السلف: من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه: أن الله جعلها زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

وقوله: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ} [(٩٧) سورة الأنعام] أي: قد بيّناها ووضحناها لقوم يعلمون، أي: يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل.

جعلها زينة للسماء ورجوماً للشياطين كما قال تعالى: **{وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا}** [(١٢) سورة فصلت] وكما قال: **{بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ* وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ* لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ* دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ}** [(٦-٩) سورة الصافات] وقال تعالى: **{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ}** [(٥) سورة الملك]، وكذلك أيضاً جعلها الله -عز وجل- للاهتداء بها كما قال هنا: **{لِتَهْتَدُواْ بِهَا}** [(٩٧) سورة الأنعام]، فهذه ثلاث فوائد للنجوم ذكرها الله تعالى في كتابه.

قوله: **{لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** [(٩٧) سورة الأنعام] الظلمات تشمل ما يصدق عليه هذا اللفظ ابتداء وهي الظلمة المعروفة، ويدخل فيها المعنى الآخر الذي ذكره طائفة من السلف، أي إذا اختلطت عليهم السبل

وخفيت عليهم الطرق وتاهوا فصاروا في عماية لا يهتدون، وكبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حملها على المعاني الثلاثة، وهي اشتباه الطرق، والتباس السبل بحيث لا يعرف كيف يهتدي، وظلمة الليل، وبعبارة أخرى يدخل في الظلمات ظلمة الخطأ، وظلمة الضلال، وظلمة الليل، ويقول: إن الله لم يخص شيئاً من هذه المعاني ولذلك دخلت فيها جميعاً.

وقوله: **{ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}** [(٩٧) سورة الأنعام] أي: ظلمة الأرض والماء، فظلمة البر يعني ظلمة الأرض وظلمة البحر يعني ظلمة الماء، وكونه أضاف الظلمات إلى البر والبحر يمكن أن يكون ذلك باعتبار ملابسة الظلمة لهما.

والله أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ* وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٨-٩٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ} [(٩٨) سورة الأنعام] يعني آدم -عليه السلام- كما قال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء} [(١) سورة النساء].

وقوله: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] قال ابن مسعود وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- وأبو عبد الرحمن السلمي وقيس بن أبي حازم ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والسُّدِّي وعطاء الخرساني وغيرهم: {فَمُسْتَقَرٌّ} أي: في الأرحام، قالوا -أو أكثرهم-: {وَمُسْتَوْدَعٌ} أي: في الأصلاب.

وعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- وطائفة: عكسه، وعن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أيضاً وطائفة: فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] ذكر القول الأول وهو أن المستقر أي في الأرحام وأن المستودع أي في الأصلاب، وهذا عزاه القرطبي -رحمه الله- إلى أكثر المفسرين، أي أن عامة المفسرين من السلف ومن بعدهم يقولون بذلك، والتقدير: فلكم مستقر، أي: على ظهر الأرض، ولكم مستودع أي: في الأصلاب، أو فلكم مستقر على ظهرها ومنكم مستودع في الرحم، يعني منكم من لم يخرج إلى الآن على وجه البسيطة بل هو لا يزال في الأرحام، أو {فَمُسْتَقَرٌّ} يعني على ظهر الأرض {وَمُسْتَوْدَعٌ} أي: منكم مستودع في بطنها قد ضمته بعد أن فارق الحياة، أو فمستقر على ظهرها، ومستودع في الأصلاب لم يخرج بعد إلى الحياة.

وبعضهم يقول: المستقر في الأرحام والمستودع في الأرض، وبعضهم يقول: المستقر في القبر، وبعضهم يقول: المستقر من خُلِق والمستودع من لم يخلق، إلى غير ذلك من المعاني التي ذكروها، وليس عندنا دليل

يحدد واحداً من هذه المعاني، والذي عليه عامة أهل التفسير هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، أي: مستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب.

وابن جرير -رحمه الله- حمل الآية على أعم معانيها فقال: هذه الأقوال التي ذكرت كلها جائز أن تكون مرادة بهذه الآية.

قوله: {فَمُسْتَقَرٌّ} هذه اللفظة فيها قراءة أخرى متواترة وهي قراءة أبي عمرو بن العلاء -بكسر القاف- أي: (فمستقِرٌّ) وفسرت بمعنى أن منكم مستقِرٌّ يعني على ظهر الأرض، والله أعلم.

وقوله تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [(٩٨) سورة الأنعام] أي: يفهمون ويعون كلام الله ومعناه.

وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغياثاً للخلائق رحمة من الله بخلقه.

{فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] كقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [(٣٠) سورة الأنبياء] {فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: زرعاً وشجراً أخضر.

يقول تعالى: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ} [(٩٨) سورة الأنعام] وحينما ذكر إخراج النبات وإنزال المطر قال: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٩) سورة الأنعام] وقبل هذه الآية قال: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [(٩٧) سورة الأنعام] ثم قال: {قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] فنوّع في أواخر هذه الآيات حيث ذكر العلم ثم ذكر الفقه ثم ذكر الإيمان، ومعلوم أن الفقه أخص من مطلق العلم، فالفقه علم خاص يحتاج إلى دقة واستنباط، فليس كل علم يكون فقهاً ولذلك تقول: علمت بنزول المطر ولا تقول: فقهت ذلك، وتقول: علمت أن الارتواء يحصل بالماء ولا تقل: فقهت ذلك، فلما كان هذا المذكور هنا هو الإنشاء من نفس واحدة واحتاج قوله: {فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ} [(٩٨) سورة الأنعام] إلى شيء من دقة النظر ولطافته لخفاء ذلك عُبِّر عنه بالفقه، وأما ما ذُكر قبله وبعده فإنه لا يحتاج إلى دقة في النظر ولذلك عبر بالتعبير المناسب، أعني في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] فهذا أمر يعلمه كل أحد، وهكذا الأمر في قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [(٩٩) سورة الأنعام] فهذا أيضاً يدركه أهل الإيمان ويقرُّون أن الله -عز وجل- هو الخالق المدبر المحيي المميت الذي ينزل الغيث ويحيي الأرض بعد موتها.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: "**كقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ}** [(٣٠) سورة الأنبياء] وقال: "**أي بقدر مباركاً ورزقاً للعباد وإحياء وغياثاً للخلائق**" تفسيره لهذه الآية بقوله: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ} [(٣٠) سورة الأنبياء] يكون باعتبار أن المعنى في قوله: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي أنه ينبت منه كل شيء، فتنبت منه أجسام الآدميين، وتنبت منه أيضاً الدواب بجميع أنواعها، وينبت منه النبات بجميع أنواعه، أي أن قوله: {فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] يعني ينبت منه كل شيء من

الأجسام وسائر الكائنات الحية وليس المقصود النباتات والزروع فقط، وهذا التفسير هو الذي اختـاره كبيـر المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أيضاً، لكن من أهل العلم أيضاً من فسره بالنبات المعـروف، أي: سـائر أنواع النباتات المختلفة من الثمار والزروع فكل ذلك يخرجه الله -عز وجل- بالماء الذي أنزله من السماء.

قوله: **{فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا}** [(٩٩) سورة الأنعام] أي: أخرجنا من هذا الماء الذي أنزلناه؛ لأن المُحدَّث عنه هو الماء وليس الإخراج من النبات وذلك أن إخراج الخضر ليس من النبات وإنما يكون من الماء الـذي يُـسقى منه.

قوله: **{فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا}** [(٩٩) سورة الأنعام] قال: "**أي زرعاً وشجراً أخضر**" ففسر الخـضر بالأخـضر، وبعضهم يقول: الخضر هو الرطب من البقول، وهو ما يتشعب من الأغصان الخارجة من الحبة، وبعـضهم يقول: المراد بالخضر سائر أنواع الحبوب كالبر والشعير والذرة وما أشبه ذلك، والله تعالى أعلم.

{فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي زرعاً وشجراً أخضر، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحـب والثمـر، ولهذا قال تعالى: {نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها.

{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: جمع قنو وهي عذوق الرطب، {دَانِيَةٌ} [(٩٩) سـورة الأنعام] أي قريبة من المتناول كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضـي الله تعـالى عنهمـا-: {قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ} يعني بالقنوان الدانية: قصار النخل اللاصقة عذوقها بالأرض [رواه ابن جرير].

قوله: **{نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا}** [(٩٩) سورة الأنعـام] أي كما نرى في السنبلة فإن الحبة فيها بهذه الصفة التـي ذكرها الله -عز وجل-.

قال: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] الطلع فُسِّر بالكُفُرَّى وهو الذي يسميه العامة "الكافور"، وهو الغلاف الذي يحوي الإغريض، وذلك أنه أول ما تطلع النخلة فإنه يخرج منها الكُفُـرَّى الـذي نـسميه الكافور؛ وهذه التسمية من الكَفر حيث يستر ما بداخله من الإغريض، والإغريض هو الشيء الأبـيض فـي أوله الذي يؤبَّر ثم بعد ذلك يخضر، ثم بعد ذلك تبدأ تنعقد منه أصول البُسر، وهو ما يسمى بعد ذلك بـالقنو أو العذق، أي عذق النخيل وهو بمنزلة عنقود العنب فإذا تطاول عليه الزمن وذهب ما فيه من البسر أو الرطـب قيل له: العرجون.

قال الله -تبارك وتعالى-: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] يعني يخرج من طلعها قنـوان، والقنوان جمع قنو، وهو العذق، وقد فسره بعضهم بهذا الكُفُرَّى أي الغلاف، وفسره بعضهم بنفس الإغـريض، وكل هذا يقال له: طلع في اللغة، فهذا الغلاف في الواقع يخرج منه الإغريض، ويخرج من هـذا الإغـريض -الذي في أوله ومبدئه بالهيئة المعروفة- حبات صغيرة جداً تتحول بعد ذلك إلى الرطب والتمر الذي يكـون في غاية الحلاوة.

قال تعالى: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] أي: قريبة من المتناول، وفي سـورة "ق" قال: **{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}** [(١٠) سورة ق] والباسقات هي الطوال، والثمر الأجود يكون في النخل النخلة القصيرة والسبب أن وصول الماء والغذاء في القصيرة يكون أسهل وذلك أنه كلما ارتفعت الشجرة إلى الأعلى كان وصول الغذاء والماء إلى ثمرها أصعب، ولذلك نجد أهل الزراعـة يقومـون بتـسميد النباتـات

بالنجاسات، ويقولون: إن ذلك يكون للشجر الطوال ولا يكون للزروع؛ لأن الزروع تتشرب ذلك وتتشبع بــه، ولذلك إذا نظرنا إلى زروع تسقى من هذه النجاسات كالكراث وأنواع البقول والنعناع، وما أشبه ذلك لرأيناها في غاية النضارة، أي تكون مترعرعة جيدة في مظهرها تستهوي الناظر، وذلك أنه يؤثر فيها تأثيراً ســريعاً مباشراً بخلاف الأشجار الطويلة.

ومما يذكر هنا أن الله -عز وجل- في سورة "ق" قال: **{وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ}** [(١٠) سورة ق] أي طويلة وهنا قال: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] أي قريبة لمن أراد أن يتناولها، ولهذا التفــاوت فــي الوصف وجه، فعلى قول بعضهم -كالزجاج- أن هذا من باب الاكتفاء فقال سورة الأنعام: **{وَمِنَ النَّخْلِ مِــن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] أي: وبعيدة، فاكتفى بأشرف النوعين ليدل به على الآخر.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: **{فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى}** [(٩) سورة الأعلى] على قول الفراء: أي: وإن لــم تنفــع فذكر، فاكتفى بأشرف القسمين ليدلل به على الآخر، ومن ذلك قوله تعالى: **{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ}** [(٨١) ســورة النحل] أي: والبرد، وهكذا، وهذا لا إشكال فيه.

لكن إذا قيل: إن دانية مقصود بالذكر فيكون هذا من باب الامتنان، ويكون قوله فــي ســورة "ق": **{وَالنَّخْــلَ بَاسِقَاتٍ}** [(١٠) سورة ق] من باب ذكر مظاهر العظمة والقدرة على الخلق، ومظاهر العظمــة والقــدرة علــى الخلق تكون في النخل الطوال، وفي الامتنان يكون بذكر النخل القصار التي تكون قنوانها في متنــاول اليــد بحيث لا يحتاج مريدها إلى كلفة وصعود وتعب، ولذلك فالمشاهد عند أهل النخيل أنهم ربما تركوا فيه الثمر؛ لأن مئونة إخراج هذا الثمر وقطافه أكثر من الانتفاع به عند بيعه والتصرف فيه حيث يكلفهم أكثر من قيمتــه فيتركونه ثم يصرمونه بعد ذلك للدواب في آخر الوقت، فهذا مشاهد، والخلاصة أن المنة تكون بالقصار أكثر من المنة في الطوال، والعظمة تظهر في الطوال أجلى من ظهورها في القصار، والله أعلم.

وفي قوله: **{قِنْوَانٌ}** [(٩٩) سورة الأنعام] القنوان هي العذق -وهذا هو المشهور- وبعــضهم فــسروا القنــوان بالجُمَّار، وهذا بعيد، والجمار هو الذي نسميه قلب النخلة، وهو مادة بيضاء تؤكل توجد في مكمن الحياة فــي قلب النخلة الذي يخرج منه الفروع الجديدة أو العُسُب الجديدة فإذا مات هذا انتهــت النخلــة، والمقــصود أن تفسير القنوان بهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: ونخرج منه جنات من أعناب، وهذان النوعــان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز.

قوله تعالى: **{وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ}** [(٩٩) سورة الأنعام] في قراءة عاصم بالرفع **(وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ)** [(٩٩) سورة الأنعام] والتقدير ولهم جنات من أعناب، وهذه القراءة -بالجر- على العطف.

وهنا سؤال مقدر هو لماذا اقتصر الله -عز وجل- على ذكر هذين النوعين من الثمار -النخيل والأعنــاب- مع أنه توجد ثمار أخرى؟ فالجواب هو قول الحافظ -رحمه الله-: "**وهذان النوعان هما أشرف الثمار عنــد أهل الحجاز**"؛ أي لأن هذين النوعين هما اللذان يعرفهما العرب وهما أفضل وأنفع ما عندهم من الثمار، فــالله يمتن على المخاطبين بما يعرفونه وقد جرت عادة القرآن أنه يخاطب العرب بمعهودهم، ولذلك لما ذكر ثمــار الجنة أيضاً لم يذكر لهم ألوان الثمار الأخرى الموجودة في الدنيا مما قد يكون أجود طعماً من التمر والعنــب

وإنما خاطبهم بمعهودهم، وكذلك لما ذكر لهم عجائب الخلق في الحيوان ذكر لهم الجمل ولم يذكر لهم الفيل ولا وحيد القرن ولا الزرافة، ولم يذكر لهم أيضاً بعض الحيوانات البحرية الضخمة كبعض الحيتان ونحو ذلك؛ لأنهم ربما ما رأوا ذلك ولا عرفوه، فخاطبهم بما يعرفون.

وهذان النوعان هما أشرف الثمار عند أهل الحجاز وربما كانا خيار الثمار في الدنيا، كما امتن الله بهما على عباده في قوله تعالى: {وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [(٦٧) سورة النحل] وكان ذلك قبل تحريم الخمر، وقال: {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ} [(٣٤) سورة يس].

هذا بناء على تفسير السكَر بالمسكِر -مع أن ذلك أباه جمع من أهل العلم، وقالوا: المقصود بالسكَر يعني العصير الحلو المستلذ- ومعلوم أنهم كانوا ينتبذون في الأسقية بأن يلقوا التمر أو الرطب في جرة ماء أو نحوها فيتحول لون الماء أو طعمه إلى لون من الشراب يقال له: النبيذ حيث يكون حلو الطعم، وربما ألقوا العنب ونحوه بدل التمر فيصير حلواً، فإذا مضى عليه مدة ربما اشتد وألقى بالزبد وصار مسكراً.

وقوله تعالى: {وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [(٩٩) سورة الأنعام] قال قتادة وغيره: متشابه في الورق والشكل قريب بعضه من بعض، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً.

يعني أن أشكالها في الظاهر ربما تتشابه، لكن الطعوم تتخلف، فالزيتون أنواع كثيرة جداً، والرمان كذلك، وهكذا سائر الثمار، والآن تقام معارض لبعض الثمار كما هو معروف ونجدها تتشابه بالشكل وتختلف في الطعم، وكل نوع له خصائصه، فالتمر متشابه في الظاهر ولكنه مختلف في أنواعه وطعومه وخصائصه وتركيبه، وهكذا يشتبه شجره في ورقه وأغصانه وفروعه ولكن ثماره تكون مختلفة، فهذه شجرة عنب وهذه شجرة عنب، وهذه نخلة وهذه نخلة، إلا أن هذه يخرج منها لون من الثمر وهذه يخرج منها لون آخر، تختلف ألوانه من أحمر إلى أصفر، وتختلف أيضاً طعومه وأنواعه.

وقوله تعالى: {انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} [(٩٩) سورة الأنعام] أي: نضجه، قاله البراء بن عازب وابن عباس -رضي الله تعالى عنهم- والضحاك وعطاء الخرساني والسدي وقتادة وغيرهم، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً، وغير ذلك مما خلق -سبحانه وتعالى- من الألوان والأشكال والطعوم والروائح، كقوله تعالى: {وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ} الآية [(٤) سورة الرعد].

قوله تعالى: {صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [(٤) سورة الرعد] يعني تجد النخلة أحياناً تشترك في أصل واحد ثم يخرج من جوانبها نخيل، وأحياناً تجد كل نخلة مستقلة عن الأخرى.

ولهذا قال هاهنا: {إِنَّ فِي ذَلِكُمْ} أيها الناس {لآيَاتٍ} أي: دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته {لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} أي: يصدقون به ويتبعون رسله.

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [(١٠٠) سورة الأنعام] هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره وأشركوا في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم.

فإن قيل: فكيف عُبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله: {إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا* لَّعَنَهُ اللّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا* وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا* يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [(١١٧-١٢٠) سورة النساء] وكقوله تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي} الآية [(٥٠) سورة الكهف].

وقال إبراهيم -عليه السلام- لأبيه: {يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا} [(٤٤) سورة مريم] وكقوله: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ} [(٦٠-٦١) سورة يس] وتقول الملائكة -عليهم السلام- يوم القيامة: {سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} [(٤١) سورة سبأ].

هذا التوجيه الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لعبادتهم للجن أحسن من تفسير من فسر الآية بأن المقصود بالجن الملائكة لاجتنانهم بمعنى أنهم لا يراهم الناس وإنما يجتنُّون بمعنى أنهم مستترون عنهم.

ومن العرب -وليس كل العرب- من عبدت الملائكة كما هو معلوم، وادعى طائفة منهم أن الملائكة بنات الله، وعلى كل حال فهذا التفسير -والله تعالى أعلم- الذي ذكره الحافظ لعله من أفضل ما يقال في معنى الآية، ويدخل في ذلك أيضاً صرف أنواع من العبادة مباشرة للجن، مثل الذبح للجن الذي كان موجوداً عندهم، ومن ذلك الاستعاذة بالجن حيث كان يقول قائلهم: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، ويدخل أيضاً ما أشبه ذلك من العبادات المباشرة التي يصرفونها للجن كما هو معروف، هذا كله داخل في قوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام].

والجن يحتمل هنا أن يكون بدلاً من شركاء أي: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء}** ثم فسره بقوله: **{الْجِنَّ}** أي أن المقصود بهؤلاء الشركاء هم الجن، والله أعلم.

ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ} [(١٠٠) سورة الأنعام] أي: وخلقهم، فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كقول إبراهيم -عليه السلام-: {قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ* وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [(٩٥-٩٦) سورة الصافات] ومعنى الآية أنه -سبحانه وتعالى- هو المستقل بالخلق وحده؛ فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له.

على هذا يكون قوله: **{وَخَلَقَهُمْ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] جملة حالية، يعني والحال أنه خلقهم، أو الحال أنهم علموا أنه خلقهم، أو **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] والحال أنهم قد علموا أنه خلقهم.

وقوله تعالى: {وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٠٠) سورة الأنعام] ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً، كما يزعم من قاله من اليهود في عزيرٍ -عليه السلام- ومن قاله من النصارى في عيسى -عليه السلام- ومن قال من مشركي العرب في الملائكة -عليهم السلام-: إنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ومعنى {وَخَرَقُواْ} أي: اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قاله علماء السلف، ولهذا قال: {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [(١٠٠) سورة الأنعام] **أي: تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء.**

بعض هذه المعاني التي ذكرها السلف والتي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أيضاً ترجع إلى شيء واحد، ولذلك ما احتاج إلى أن يرجح شيئاً منها، بل سرد جملة منها وقال: هذا كله داخل في معنى هذه الآية، أي أن قوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] يعني اختلقوا واخترعوا، وما أشبه ذلك. وقوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] قرأه نافع بالتشديد هكذا: **(وخرَّقوا له)** ومعلوم أن زيادة المبنى لزيادة المعنى، فقوله: **(وخرّقوا)** يدل على التكثير، أي لكثرة ما وقع من ذلك حيث زعم اليهود ما زعموا وزعم النصارى ما زعموا، وهكذا العرب حينما قال بعضهم: الملائكة بنات الله، والله تعالى أعلم.

وفي قوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** وقوله: **{وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] بيان أن هذه من مخازيهم وفظائعهم وجناياتهم العظيمة.

وبعضهم فسر قوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] بأن المراد بذلك الزنادقة الذين قالوا: إن الله والشيطان هما إلهان يختص كل واحد منهما بشيء من المخلوقات، فالله -عز وجل- هو الذي خلق الخير، والشيطان هو الذي خلق الثعابين والعقارب والهوام والدواب الضارة، والحشرات الضارة والنار وما أشبه ذلك، هذا قول الزنادقة، وهو يشبه قول بعض الزنادقة المعاصرين الذين يقولون: إن الله هو الشيطان وجهان لعملة واحدة -قبحهم الله-.

ومن أهل العلم من قال: إن المراد بقوله: **{وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ}** [(١٠٠) سورة الأنعام] أي مثل أولائك المجوس والمانوية الذين قالوا: إن في الكون إلهين اثنين أحدهما خلق النور والآخر خلق الظلام، وعلى كل حال ما ذكره الحافظ ابن كثير يكفي في بيان المراد، والله تعالى أعلم.

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} **[(١٠١) سورة الأنعام].**

{بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [(١٠١) سورة الأنعام] **أي: مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق، كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البدعة بدعة؛ لأنه لا نظير لها فيما سلف.**

{أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] **أي: كيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة؟!، أي: والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه؛ لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد، كما قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا* لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا}** [(٨٨-٨٩) سورة مريم] **إلى قوله: {وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}** [(٩٥) سورة مريم].

{وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [(١٠١) سورة الأنعام] **فبيّن تعالى أنه الذي خلق كل شيء وأنه بكل شيء عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذي لا نظير له، فأنى يكون له ولد؟! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.**

{ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ* لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٠٢-١٠٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ} أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة {لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ} [(١٠٢) سورة الأنعام] أي: فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا والد، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل.

{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} [(١٠٢) سورة الأنعام] أي: حفيظ ورقيب يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

وقوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا تدركه في الدنيا وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن، كما قال مسروق عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- أنها قالت: "من زعم أن محمداً أبصر ربه فقد كذب"[1] وفي رواية: "على الله، فإن الله تعالى قال: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام]"[2].

وثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً: ((إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه))[3].

وفي الكتب المتقدمة: إن الله تعالى قال لموسى لما سأل الرؤية: يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده، أي تدعثر.

وقال تعالى: {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [(١٤٣) سورة الأعراف] ونفْي هذا الأثر الإدراك الخاص لا ينفي الرؤية يوم القيامة لعباده المؤمنين كما يشاء، فأما جلاله وعظمته على ما هو عليه -تعالى وتقدس وتنزه- فلا تدركه الأبصار.

يقول تعالى: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] الإدراك غير الرؤية؛ فالإدراك يعني الإحاطة، فنحن نرى السماء لكننا لا ندركها، والله -عز وجل- قال لموسى -صلى الله عليه وسلم- ووعْده صدق وحق لا يتخلف-: **{لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى}** [(٧٧) سورة طـه] يعني أن فرعون لن يدركك، قال تعالى: **{فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى}** [(٧٧) سورة طـه] ومع ذلك قال الله -عز وجل- عن قول قوم موسى: **{فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ}** [(٦١) سورة الشعراء] يعني كل طائفة نظرت إلى الأخرى **{قَالَ**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٠٦٢) (ج ٣ / ص ١١٨١) ومسلم في كتاب الإيمان - باب معنى قول الله -عز وجل-: **{وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى}** [(١٣) سورة النجم] وهل رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- ربه ليلة الإسراء؟ (١٧٧) (ج ١ / ص ١٥٩) إلا أن لفظ البخاري: "فقد أعظم" بدل قولها: "فقد كذب" ولفظ مسلم: "فقد أعظم على الله الفرية".

[2] - سنن الترمذي في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (٣٠٦٨) (ج ٥ / ص ٢٦٢) وصححه الألباني.

[3] - أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب في قوله -عليه السلام-: "إن الله لا ينام" وفي قوله: "حجابه النور لو كشفه لأحرق سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (١٧٩) (ج ١ / ص ١٦١).

{أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ* قَالَ كَلَّا} [(٦١-٦٢) سورة الشعراء] لاحظ، فنفى الإدراك، أما الرؤية فتحققت مع أن الله -عز وجل- وعده بقوله: **{لَّا تَخَافُ دَرَكًا}** [(٧٧) سورة طـه] فرؤية الفراعنة لموسى ومن معه ليست من الإدراك؛ لأن الله وعده بأن لا يقع الإدراك، وبهذا نعرف الفرق بين الإدراك وبين الرؤية، فالله -عز وجل- قال: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا تحيط به **{وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: يحيط بها، فنظر الناظرين إليه واقع في الآخرة كما قال -سبحانه وتعالى-: **{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ}** [(٢٢) سورة القيامة] يعني من النضرة والحسن **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [(٢٣) سورة القيامة] يعني تنظر إلى الله -عز وجل-.

والنظر إذا عُدِّي بـ"إلى" فالمقصود به نظر العين، وإذا عدي بـ"في" فالمقصود به نظر القلب والتفكر، تقول: نظرت في كذا، سأنظر في أمرك، بمعنى التفكر، وهنا قال الله -عز وجل- في النظر إلى الله -تبارك وتعالى-: **{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}** [(٢٣) سورة القيامة] وفي الحديث: ((إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته))[٤].

وأحاديث الرؤية متواترة، فعقيدة أهل السنة والجماعة أن أهل الإيمان يرون الله -تبارك وتعالى- في الآخرة، أما في الدنيا فإن هذه الرؤية لا تكون، ولم يره لا النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا غير النبي -صلى الله عليه وسلم- ولهذا لما طلب موسى -صلى الله عليه وسلم- الرؤية قال له ربه: **{لَن تَرَانِي}** [(١٤٣) سورة الأعراف] ثم علق هذه الرؤية -أعني إمكانها- على أمر ممكن وليس مستحيلاً فقال: **{وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا}** [(١٤٣) سورة الأعراف] فكون الجبل يبقى وأن الله -عز وجل- يقويه على هذا هو أمر ممكن، فلما لم يعلقه بشيء مستحيل دل على أن الرؤية ممكنة ولكنها ممتنعة في الدنيا لضعف قوى الخلق عنها، وأما في الآخرة فإن الله -عز وجل- ينشئوهم نشأة أخرى، والله أعلم.

ولهذا كانت أم المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- تثبت الرؤية في الدار الآخرة وتنفيها في الدنيا، وتحتج بهذه الآية: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] فالذي نفته الإدراك الذي هو بمعنى رؤية العظمة والجلال على ما هو عليه فإن ذلك غير ممكن للبشر ولا للملائكة ولا لشيء.

وقوله: {وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها، كما قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٤) سورة الملك] وقد يكون عبَّر بالإبصار عن المبصرين، كما قال السدي في قوله: {لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ} [(١٠٣) سورة الأنعام]: لا يراه شيء وهو يرى الخلائق.

على هذا يكون معنى الأبصار أي: الناس، ويكون قوله تعالى: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] أي: لا يدركه الناس وهو يدركهم، لكن هذا القول لا حاجة إليه.

---

٤ - أخرجه البخاري في كتاب مواقيت الصلاة - باب فضل صلاة العصر (٥٢٩) (ج ١ / ص ٢٠٣) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٣) (ج ١ / ص ٤٣٩).

وقال أبو العالية في قوله تعالى: {وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [(١٠٣) سورة الأنعام] قال: اللطيف لاستخراجها، الخبير بمكانها، والله أعلم، وهذا كما قال تعالى إخباراً عن لقمان فيما وعظ به ابنه: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ} [(١٦) سورة لقمان].

أحد معاني اللطيف أي الرفيق، والمعنى الآخر أي: الذي يعلم دقائق الأشياء، فالخبير هو الذي يعلم بواطن الأشياء، واللطيف هو الذي يعلم دقائقها، فالله تعالى ذكر هنا اللطيف والخبير فقال: **{لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}** [(١٠٣) سورة الأنعام] أي هو الذي يعلم دقائق الأمور، ويعلم بواطنها، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسر قوله تعالى: {قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ* وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٤-١٠٥) سورة الأنعام] البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

{فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ} [(١٠٤) سورة الأنعام] كقوله: {فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [(١٠٨) سورة يونس] ولهذا قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} لما ذكر البصائر، قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} أي: إنما يعود وباله عليه، كقوله: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [(٤٦) سورة الحج].

{وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ} أي: بحافظ ولا رقيب، بل أنا مبلغ والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وقوله: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ} [(١٠٥) سورة الأنعام] أي: وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد وأنه لا إله إلا هو هكذا نوضّح الآيات ونفسرها ونبيّنها في كل موطن لجهالة الجاهلين، وليقول المشركون والكافرون المكذبون: دارست يا محمد من قبلك من أهل الكتاب وقارأتهم وتعلمت منهم، هكذا قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وغيرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فيقول -تبارك وتعالى-: {قَدْ جَاءكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ} [(١٠٤) سورة الأنعام] البصائر: جمع بصيرة، وهي نور القلب، فالبصر هو نور العين والبصيرة هي نور القلب، والمقصود بالبصيرة هنا الحجج والبراهين والبينات التي تدل على الحق وتوضحه.

يقول -تبارك وتعالى-: {وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] {وَلِيَقُولُواْ} يمكن أن تكون معطوفة على محذوف، أي: وكذلك نصرف الآيات لتقوم الحجة وليقولوا درست.

أو تكون علة لفعل محذوف يقدر متأخراً هكذا: وليقولوا درست صرفناها، وعلى هذا المعنى فاللام تكون للعاقبة أو للصيرورة، وعلى كل حال فهذان المعنيان يرجعان إلى شيء واحد -والله تعالى أعلم- أي سواء كان المعنى وليقولوا درست صرفناها أو وكذلك نصرف الآيات لإقامة الحجة وليقولوا درست، فعلى المعنى الأول تكون اللام لام التعليل التي تسمى لام كي، وعلى المعنى الثاني يمكن أن تكون للصيرورة، وعلى كل منهما يكون في عاقبة الأمر ونهايته أنهم يقولون: درست.

قال الحافظ ابن كثير: "**وليقول المكذبون: دارست يا محمد من قبلك**"، هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير، أي **(دارست)** من المدارسة، والمفاعلة غالباً تأتي لما كان بين طرفين فأكثر، والمعنى إنك دارست أهل الكتاب ودارسوك.

وعلى قراءة ابن عامر **(وليقولوا درَسَت)** أي أن الآيات درست بمعنى ذهبت واضمحلت وتقادم عهدها وعفت وانقطعت، وقيل غير ذلك لكن هذا هو الأقرب في تفسير هذه القراءة، والله تعالى أعلم، وهو الذي مشى عليه القرطبي وجماعة، ومن المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-.

وقرأ الباقون **{وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ}** [(١٠٥) سورة الأنعام] وهي بمعنى قراءة **(دارستَ)** أي درست على غيرك كما قال الله -تبارك وتعالى- أنهم قالوا: **{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ}** [(١٠٣) سورة النحل] وكما في قوله: **{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}** [(٥) سورة الفرقان] والمقصود أن هؤلاء زعموا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يدرس على غيره أو كان يتلقى القرآن من غيره.

وهذه القراءات الثلاث قراءات متواترة، والمعنى في القراءة الأولى والثالثة يرجع إلى شيء واحد، وأما القراءة الثانية فمعناها يختلف، ومعلوم أن القراءتين إذا كان لكل قراءة معنى يخصها فهما بمنزلة الآيتين، وخلاصة معنى القراءتين: أن الآيات عفت وتقادم عهدها، أو أنك تلقيت هذا القرآن ودرسته وتعلمته من غيرك وليس من الله -عز وجل-.

وروى الطبراني عن عمرو بن كيسان قال: سمعت ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- يقول: دارست تلوت، خاصمت جادلت، وهذا كقوله تعالى إخباراً عن كذبهم وعنادهم: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْمًا وَزُورًا* وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [(٤-٥) سورة الفرقان] **وقال تعالى إخباراً عن زعيمهم وكاذبهم: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ* فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ* ثُمَّ نَظَرَ* ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ* ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ* فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ* إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ}** [(١٨-٢٥) سورة المدثر].

وقوله: {وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] **أي: ولنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه والباطل فيجتنبونه، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى: {يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً}** الآية [(٢٦) سورة البقرة] **وكقوله: {لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ}** [(٥٣) سورة الحج] **{وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** [(٥٤) سورة الحج] **وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ}** [(٣١) سورة المدثر] **وقال: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا}** [(٨٢) سورة الإسراء] **وقال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ}** [(٤٤) سورة فصلت] **إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى أنزل القرآن هدى للمتقين وأنه يضلُّ به من يشاء ويهدي من يشاء.**

هذا الكلام يوضح فيه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وجه ما ذكر من أن الله يوضح الآيات ويبينها، أي أن قوله: {وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] معناه لكي يقولوا درست، -على القول بأن اللام في قوله: {وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] لام كي-، وهذه الآيات توضح هذا المعنى، فالله -عز وجل- يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وهؤلاء الذين هذه صفتهم يكون القرآن وسماع الآيات لهم عمى كما قال الله -عز وجل- عنهم: {وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى} [(٤٤) سورة فصلت].

وعلى القول الآخر بأن اللام للعاقبة فالمعنى أن الله -عز وجل- قد علم أنهم ليسوا بأهلٍ لفقه هذه الآيات والعمل بها والاهتداء بها، فصار سماع هذه الآيات لا يزيدهم إلا إعراضاً، ولهذا قال بعده: {وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(١٠٥) سورة الأنعام] مع أن القرآن بيان للجميع، ولكنه خص الذين يعلمون؛ لأنهم الذين ينتفعون به كما قال الله -عز وجل-: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [(٢) سورة البقرة] مع أنه هدى لجميع الناس، فصح أن يخص به المنتفع به دون غيره مع أنه هدىً لجميع الخلق.

{اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ* وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٦-١٠٧) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- ولمن اتبع طريقته: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ} أي: اقتدِ به واقتفِ أثره واعمل به فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه؛ لأنه لا إله إلا هو.

{وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] أي: اعف عنهم واصفح واحتمل آذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لجمعهم على الهدى {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام].

قوله: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] بعض أهل العلم يقول: إنه منسوخ بآية السيف، وممن ذهب إلى هذا كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله- وهذا على قاعدة أن كل آية فيها عفو وصفح وإعراض قالوا: إنها منسوخة بآية السيف، فلا صفح ولا إعراض، وهذا غير صحيح والله تعالى أعلم، لكن يقال: هذه الآيات غير منسوخة، لكن في مكة أمر بالإعراض ثم بعد ذلك أمر بالجهاد في المدينة، وهذه أحوال وأطوار، فإذا كانت الأمة في حال من الضعف فعندئذ يتأتى الإعراض والصفح، وإذا كانت الأمة قوية وممكنة فعندئذ تتأتى مجاهدة الكفار بالسيف، ثم إن النسخ لا يثبت بالاحتمال.

وقوله -تبارك وتعالى-: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] معناه لا تكترث بهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وليس عليك حسابهم كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: إنما عليك البلاغ، فإذا فعلت ذلك فليس من شأنك الوقوف مع هؤلاء، والله تعالى أعلم.

{وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [(٢٣) سورة الأنبياء].

وقوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: حافظاً تحفظ أقوالهم وأعمالهم {وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: موكل على أرزاقهم وأمورهم {إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} [(٤٨) سورة

الشورى] كما قال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ} [(٢٢) سورة الغاشية] وقال: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [(٤٠) سورة الرعد].

{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٠٨) سورة الأنعام].

يقول الله تعالى ناهياً لرسوله -صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين عن سبِّ آلهة المشركين وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسبِّ إله المؤمنين وهو الله لا إله إلا هو، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: قالوا: يا محمد لتنتهينَّ عن سبك آلهتنا أو لنهجونَّ ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم فيسبوا الله عدواً بغير علم.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسبُّ الكفار الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ} [(١٠٨) سورة الأنعام] ومن هذا القبيل -وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها- ما جاء في الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ملعون من سب والديه)) قالوا: يا رسول الله، وكيف يسب الرجل والديه؟ قال: ((يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه))[1] أو كما قال -صلى الله عليه وسلم-.

أمر الله -تبارك وتعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- باتباع ما أوحي إليه وجعل هذا هو الواجب عليه، وقال: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [(١٠٦) سورة الأنعام] أي: حسابهم ليس عليك كما قال: {فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [(٨) سورة فاطر].

ثم قال: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ} [(١٠٧) سورة الأنعام] وقال في الآية الأخرى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١١٢) سورة الأنعام] فالله -تبارك وتعالى- له الحكمة البالغة، لكن المؤمن مأمور بالاتباع ولزوم الحق، فلا يميل مع أهل الباطل لأي سبب من الأسباب ويكون متنازلاً عن الحق مضيعاً له بموافقة هؤلاء المبطلين، ولا تذهب نفسه أيضاً حسرات وتصيبه أنواع الأمراض بسبب شدة ما يجد مما يقوله هؤلاء أو يبينون عنه من شر وافتراء ونفاق، أي: لا يكون المؤمن بهذه المثابة؛ ولهذا يقول سبحانه: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} [(١٠٧) سورة الأنعام] أي: أنت مأمور بالاستقامة على أمر الله -عز وجل- وتبليغ دين الله -عز وجل- وهؤلاء لو شاء الله ما أشركوا، فلله الحكمة البالغة حيث أراد الله -عز وجل- إضلالهم فكانوا بهذه المثابة، {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} [(٩٩) سورة يونس] فهذا أصل كبير يحتاج إليه الدعاة إلى الله -عز وجل- والمصلحون، وإلا فإذا تتبع الإنسان ما يقوله القائلون ويكتبه الكاتبون ويفسده المفسدون فإنه قد يصيبه العجز والعِيُّ من كمد ما يجد ومن كثرته، ومن جراءة أولئك الصنف من الناس على الله -تبارك وتعالى-.

ثم ذكر أيضاً قضية مهمة جداً لمن أراد أن يصلح حال الناس أو يدعو إلى الله -عز وجل- {وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٠٨) سورة الأنعام] فهذا أصل في المصالح والمفاسد

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب لا يسب الرجل والديه (٥٦٢٨) (ج ٥ / ص ٢٢٢٨) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الكبائر وأكبرها (٩٠) (ج ١ / ص ٩٢).

فالمآلات معتبرة في الشريعة فلا يجوز للإنسان أن يقدم على علم صالح إذا كان يترتب عليه مفسدة أعظم من الصلاح الذي يحصل من جرائه، فهذا العمل يتحول من كونه عملاً صالحاً إلى أن يصير عملاً سيئاً فاسداً يأثم عليه ويكون من معصية الله -عز وجل- وهو في الظاهر من الأعمال الصالحة، ولذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لعن الله من لعن والديه))[2] حيث إنه لما كان متسبباً بلعن والديه صار بمنزلة من لعن والديه، وهكذا من تسبب في سب الدين أو سب الله -عز وجل- فإنه يصير بمنزلة من سب الدين أو سب الله -عز وجل-؛ لأنه قد ارتكب من الحماقات ما أثر هذا التأثير بحيث جعل الناس يتصرفون بهذه الطريقة.

وقوله: {كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار، كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه، ولله الحجة البالغة والحكمة التامة فيما يشاؤه ويختاره.

{ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: معادهم ومصيرهم {فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

يقول تعالى: **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] هذا ظاهره العموم، وقد راعى هذا كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فقال: هذا في الخير وفي الشر، أي: كذلك زينا لكل أمة تعمل عملها إن كانت أعمالاً صالحة طيبة كأعمال أهل الإيمان، أو كانت أعمالاً فاسدة سيئة كأعمال الكفار بجميع صنوفهم وطوائفهم.

والذي مشى عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هو أن ذلك يختص بأعمال أهل السوء والفساد والشر من الكفار والمنافقين أخذاً من سياق الآية، حيث يقول تعالى: **{وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] وعلى كل حال فالتزيين لا شك أنه واقع للجميع؛ لأن الله -عز وجل- يقول في حق أهل الإيمان: **{وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ}** [(٧) سورة الحجرات] فالله أثبت الإيمان في قلوب المؤمنين وزين ذلك في قلوبهم ولذلك بذلوا في سبيل هذا الإيمان النفوس والمُهَج والأموال، وكذلك زُيِّن لغيرهم أعمالهم السيئة الفاسدة، ولذلك تجد أهل الباطل يتوارثون الباطل القرون المتطاولة، بل آلاف السنين حيث يلقنه الجيل لمن يأتي بعده من الأجيال ويتمسكون به، ويبذلون في سبيل نصرة باطلهم ويقاتلون دونه، ويقضي الواحد منهم جهده ووقته وماله وهو ينشر هذا الباطل فيكون قد زيِّن له، وهذه قضية عجيبة من صنع الله -عز وجل- في الخلق حتى العصاة منهم، حيث تستغرب أحياناً فتقول: هذا الإنسان المتدين الذي كان يطلب العلم كيف تحول إلى هذه الحال فصار يناضل عن الشر ويدافع عنه وينشره ويدعو إليه،؟ كيف تحول من داعية إلى الخير إلى داعية إلى الشر؟

الجواب أنه زاغ قلبه فصار الذي يفعله الآن قد زُيِّن في نفسه ويرى أن هذا شيء جيد لا إشكال فيه، أي أنه قد انقلبت نظرته حتى إنك ترى شكله قد تغير فإذا رأيته قد لا تعرفه وإن كان البدن هو نفس البدن الأول لكن القلب تغير -والعياذ بالله- وتحول هذا الذي كان يحمل هم الإسلام ويضيق صدره لما يرى ويشاهد ويسمع

---

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي - باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) (ج ٣ / ص ١٥٦٧).

من اعتداء على دين الله -عز وجل- وشرعه تحول إلى الفسق ومقارفة الفواحش وترك الصلوات، فأنت لا تقبل أن ترى من يجرؤ على معصية الله -عز وجل- كأن يصبح ويمسي على سماع الأغاني أو شيئاً من ذلك لكن هو لا، فما يحس في الغالب أن هذا منكر بل يتلذذ بهذا وهو يستمتع قد زُيِّن له هذا العمل كما قال تعالى: **{أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا}** [(٨) سورة فاطر] فهو لا يجد غضاضة بهذا.

ومن صور ذلك أن المرأة المتبرجة لا تجد غضاضة بتبرجها لكن لو أعطيت المرأة المحجبة الصالحة التقية ملء الدنيا ذهباً على أن تنزع حجابها وتخرج بصورة تلك المرأة السافرة النافشة لشعرها وما أشبه ذلك لتمنت الموت دون أن تفعل هذا، لكن من تغيَّر حاله فإنه يرى الأمور الحسنة سيئة، والسيئة حسنة، نسأل الله العافية، فهذه قضية مهمة جداً في معرفة نظر الإنسان واستحسانه للعمل الطيب أو السيئ، ولذلك ينبغي أن يدعو الإنسان ربه دائماً: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك؛ لأنه إذا تغير قلبه تغير نظره للأعمال وتقييم الأشياء، فينظر بمنظار آخر تماماً، نسأل الله العافية والسلامة.

{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ} [(١٠٨) سورة الأنعام] أي: ابتلاء وامتحاناً واستدراجاً أيضاً لهؤلاء الكافرين فيموتوا على كفرهم وباطلهم، وإلا فلو لم يزين لهم العلم السيئ لزهدوا فيه ولما بذلوا في سبيله، أو في أقل الأحوال إذا لحقهم به مشقات تركوه ومع ذلك تجد أهل الباطل عتاة في التمسك بباطلهم ونصرته والذب عنه، وتعينهم الشياطين من الجن ليقرروه ويثبتوا دعائمه وأركانه، ولا يألون جهداً في محاربة الله ورسوله، قد زُيِّن لهم عملهم، نسأل الله العافية.

وبقيت هنا قضية تحتاج إلى تنبيه وهي أنه في قوله: **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] أضاف التزيين إلى نفسه -تبارك وتعالى- مشيئة وخلقاً، فالله -عز وجل- خالق كل شيء، وفي الآية الأخرى: **{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}** [(٢٤) سورة النمل] أضافه إلى الشيطان، وذلك من باب إضافة الشيء إلى سببه، فسبب ميل قلوب هؤلاء الناس إلى هذا الباطل، ومحبته أن الشيطان زينه لهم وغرهم فيه وبهرجه حتى صار في صورة تتجذب نفوسهم إليه، صاروا يهوونه ويحبونه وربما يجدون لذة في مقارفته وتعاطيه، فلما جرى هذا التزيين على يد الشيطان أضيف إليه.

{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} **[(١٠٠-١١٠) سورة الأنعام].**

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم، أي: حلفوا أيماناً مؤكدة {لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: معجزة وخارقة {لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: ليصدقنها.

يقول تعالى: **{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] الجَهد -بالفتح- هو المشقة، والجُهد -بالضم- هو الوسع، تقول: بذلت جُهدي يعني بذلت وسعي، وتقول: هذا غاية الجُهد يعني غاية الوسع فلا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا، وتقول: بلغ مني الجَهد يعني المشقة، ومن أهل العلم من يقول: المعنى واحد سواء كان بالفتح أوبالضم، وقوله: **{وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: مجتهدين غاية الاجتهاد فيحلفون أشد الأيمان التي يقدرون عليها أنهم إذا جاءتهم آية يعني من الآيات التي اقترحوها، وإلا فقد جاءتهم

آيات كانشقاق القمر، بل انشقاق القمر كان آية ظاهرة حيث شاهدوها ومع ذلك لم يؤمنوا، وهذا القرآن أعظم آية، لكنهم كانوا يقترحون الآيات كتحويل الصفا إلى ذهب وما إلى ذلك، فهم أقسموا على هذا الأساس.

{لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: ليصدقنها {قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد: إنما مرجع هذه الآيات إلى الله إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم.

وقوله تعالى: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] قيل المخاطب بما يشعركم المشركون، وإليه ذهب مجاهد، وكأنه يقول لهم: وما يدريكم بصدقكم في هذه الأيمان التي تقسمون بها، وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر "إنها" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان.

هذه قراءة أبي عمرو وابن كثير **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** أي هم اقترحوا الآيات وأقسموا أنها إذا جاءتهم الآيات فإنهم سيؤمنون بها، فالله -عز وجل- يخاطب المشركين فيقول: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: تقولون: إنكم تؤمنون إذا جاءت وما يشعركم؟ ثم بدأ بكلام جديد يقرر فيه حقيقة غيبية فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وهذا مثل قوله تعالى: **{وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ}** [(٢٨) سورة الأنعام] فهم طلبوا الرجعة فأخبر الله -عز وجل- أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وهنا يقول: لما اقترحوا الآيات وأقسموا أنهم سيؤمنون بها قال: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] يعني وما يدريكم، ثم بيّن ما سيكون في المآل لو جاءت الآيات فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وعلى هذا يكون الخطاب **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] للمشركين، ثم جاء بجملة جديدة يقرر فيها مسألة غيبية فقال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)**.

وعلى هذا فالقراءة (إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر "إِن" على استئناف الخبر عنهم بنفي الإيمان عند مجيء الآيات التي طلبوها، وقيل: المخاطب بقوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ} [(١٠٩) سورة الأنعام] المؤمنون، أي: وما يدريكم أيها المؤمنون، وعلى هذا فيجوز في قوله: {أَنَّهَا} الكسر كالأول، والفتح على أنه معمول يشعركم.

على القول الثاني يكون المخاطب بقوله: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] هم المؤمنون، وقد جاء به الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بصيغة التمريض وكأنه يضعفه وإن كان هذا هو قول كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-، وبه قال الفراء أيضاً، أي أن الخطاب لأهل الإيمان باعتبار أن المؤمنين تمنوا نزول آية من أجل إيمان هؤلاء الكفار، وذلك أنه لما أقسم الكفار الأيمان المؤكدة أنها إذا جاءت آية سيؤمنون تمنى أهل الإيمان لو نزلت آية من أجل أن يؤمن هؤلاء الناس الذين حلفوا هذه الأيمان المغلظة، يعني كأنهم يقولون: ليت آية تنزل من أجل أن يؤمنوا، فالله على كل شيء قدير، فردَّ الله عليهم فقال: **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ}** [(١٠٩) سورة الأنعام] يعني وما يدريكم؟ ثم قال: **(إنها إذا جاءت لا يؤمنون)** وعلى القراءة الأخرى **{وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [(١٠٩) سورة الأنعام].

وقراءة الفتح هذه هي قراءة أهل المدينة وحمزة والكسائي وعاصم وابن عامر، وبعضهم -كالخليل بن أحمد الفراهيدي- فسر **{أَنَّهَا}** بفتح الهمزة بمعنى التعليل، أي بمعنى "لعلها" فيكون المعنى وما يشعركم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون" وهذا صحيح في أصل اللغة، ويوجد ما يدل عليه من الشواهد في كلام العرب، وهذا

تحتمله الآية على قراءة فتح الهمزة، والمعنى الآخر وما يدريكم أن ذلك إذا وقع لا يحصل المقصود وهو إيمانهم؟ والله أعلم.

فتكون {لاَ} في قوله: {أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] صلة كقوله: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ} [(١٢) سورة الأعراف] وقوله: {وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} [(٩٥) سورة الأنبياء].

يقول: "**فتكون {لاَ} في قوله: {أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] صلة**" يعني وما يشعركم يا معاشر المؤمنين أنها إذا جاءت يؤمنون، فـ{لاَ} هذه قال: إنها صلة، ويقصد أنها زائدة، فهم يعبرون بصلة تأدباً، ويقصدون بقولهم: زائدة أي إعراباً، وإلا فهي لمعنى وهو التأكيد، ومنه قول طائفة من المفسرين في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ} [(١) سورة البلد] أي: أقسم بهذا البلد، وقولهم في قوله: {لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ} [(١) سورة القيامة] أي: أقسم بيوم القيامة -على أحد المعاني- وذكر -رحمه الله- هنا قوله تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} [(١٢) سورة الأعراف] أي أن معناها وما منعك أن تسجد؟، وعلى هذا لا يُفهم أن "لا" هنا نافية، بل هي صلة كما قال.

وبالنسبة للكلام على الزيادة هل يصح أن يعبر بها في القرآن مع العلم أن المقصود بالزيادة هي الزيادة إعراباً؟ هذا قال به طائفة من أهل اللغة مثل الكسائي والفراء، وردَّه آخرون مثل الزجّاج والنحّاس فقالوا: هذا كلام غير صحيح وإنما هذا من باب الاكتفاء، أي أن قوله: {وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٠٩) سورة الأنعام] أي: أو يؤمنون، لكن هذا القول أضعف من القول الذي قبله؛ لأن المقصود هنا هو أن الله -عز وجل- يقرر لهم أنه حتى لو نزلت الآية فإنهم لن يؤمنوا، هذا هو الأقرب في معنى الآية، والله تعالى أعلم، كما قال الله -عز وجل-: {وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ} [(٥٩) سورة الإسراء].

أي: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك؟، وحرام أنهم يرجعون، وتقديره في هذه الآية: وما يدريكم أيها المؤمنون الذين تودون لهم ذلك حرصاً على إيمانهم أنها إذا جاءتهم الآيات يؤمنون؟.

وقوله تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] قال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في هذه الآية: لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ورُدَّت عن كل أمر.

وقال مجاهد في قوله: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ} [(١١٠) سورة الأنعام] ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون كما حُلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: أخبر الله ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملَهم قبل أن يعملوه.

وقال: {وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} [(١٤) سورة فاطر] جل وعلا، وقال: {أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ} [(٥٦) سورة الزمر] إلى قوله: {لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [(٥٨) سورة الزمر] فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يكونوا على الهدى، وقال: {وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [(٢٨) سورة الأنعام].

وقال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ} [(١١٠) سورة الأنعام] وقال: ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى كما حُلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا.

يقول تعالى: **{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}** [(١١٠) سورة الأنعام] الأفئدة هي القلوب، والمقصود بالأبصار هنا نظر القلب، فمن قُلبَ فؤاده فقد انطمست بصيرته ولا يرى الحق حقاً بل يرى الأشياء على غير حقيقتها، فيرى الباطل حقاً والحق باطلاً.

وهذا التقليب في قوله تعالى: **{وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ}** [(١١٠) سورة الأنعام] المتبادر أنه ما ذكره الحافظ ابن كثير هنا، أي: أن الله -عز وجل- يصرّف قلوبهم وأبصارهم فلا تؤمن بالحق ولا تبصره -نسأل الله العافية- وهذا المعنى أصح خلافاً لمن قال: إن المراد أن هذا التقليب يكون بالنار في الآخرة عقوبة لهم، بمعنى أن قوله: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [(١١٠) سورة الأنعام] أي كما لم يؤمنوا به في الدنيا.

وقوله: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [(١١٠) سورة الأنعام] هذه الكاف يمكن أن تكون للتشبيه ولكنها مشعِرةٌ بالتعليل، فإن لم نقل: إنها للتعليل فيبقى فيها من معنى التعليل، ويكون المعنى يحتمل أمرين:

الأول: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [(١١٠) سورة الأنعام] أي أنهم في أول مرة طرق أسماعهم فلم يؤمنوا به، وكذلك في آخر الأمر لن يؤمنوا، وحتى لو جاءتهم الآيات التي اقترحوها سيحصل نفس الموقف السابق القديم، أي كحالهم في أول مرة حينما سمعوا هذا القرآن.

والمعنى الثاني: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ}** [(١١٠) سورة الأنعام] أي أن ذلك وقع لهم جزاء وفاقاً بمعنى أنهم لما أعرضوا عن الحق وكابروا غاية المكابرة أزاغ الله قلوبهم مجازاة وعقوبة لهم، فعلى هذا يكون قوله: **{كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ}** [(١١٠) سورة الأنعام] مشعراً بالتعليل والمكافأة، أي فكافأهم على كفرهم الأول وإعراضهم ومكابرتهم، فحتى لو رأوا الآيات فإنهم لن يؤمنوا؛ لأنهم كفروا أول مرة، والخلاصة أن الآية تحتمل المعنيين، أي إما أن يكون ذلك من باب المجازاة على الكفر الأول أو أنه يقرر هذا المعنى فيقول: هم باقون على كفرهم حتى لو نزلنا الآيات فهم كحالهم أول مرة، والقول بأنه مجازاة لهم استحسنه الحافظ ابن القيم -رحمه الله- وإن لم يصرح بترجيحه لكن قال: وهو معنى حسن، فالله أعلم.

وقوله: {وَنَذَرُهُمْ} أي: نتركهم {فِي طُغْيَانِهِمْ} قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- والسدي: في كفرهم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة: في ضلالهم.

{يَعْمَهُونَ} [(١٥) سورة البقرة] قال الأعمش: يلعبون، وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وأبو العالية والربيع وأبو مالك وغيره: في كفرهم يترددون.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٥)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [(١١١) سورة الأنعام].

يقول تعالى: ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمننَّ بها، فنزّلنا إليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا فقالوا: {أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً} [(٩٢) سورة الإسراء] و {قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا} [(٢١) سورة الفرقان].

{وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى} [(١١١) سورة الأنعام] أي: فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل {وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً} [(١١١) سورة الأنعام] قرأ بعضهم (قِبَلاً) -بكسر القاف وفتح الباء- من المقابلة والمعاينة، وقرأ آخرون بضمهما قيل: معناه من المقابلة والمعاينة أيضاً كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد: {قُبُلاً} أي: أفواجاً قبيلاً قبيلاً، أي: تعرض عليهم كل أمة بعد أمة، فيخبرونهم بصدق الرسل فيما جاءوهم به.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: "**قرأ بعضهم (قِبَلاً) بكسر القاف وفتح الباء**" هذه قراءة نافع وابن عامر، وذلك من المقابلة، والقراءة الأخرى -قراءة الضم- هي قراءة بقية السبعة.

وقوله: "**من المقابلة**" بمعنى أن القراءتين بمعنى واحد، أو أن المراد بذلك: أفواجاً أفواجاً، كما قال الحافظ -رحمه الله-: "**أفواجاً قبيلاً قبيـــلاً**".

وقال بعض أهل العلم: إن المراد بقراءة الضم أي: ضمناء وكفلاء، كما تقول: أنا قبيلي فلان، وفلان أنا قبيله، يعني أنا ضمينه وكفيله، وبهذا فُسِّرت أيضاً الآية التي استشهد بها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- وهي قوله -تبارك تعالى-: **{أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً}** [(٩٢) سورة الإسراء] أي: ضميناً وكفيلاً، ويحتمل أن يكون بمعنى المقابلة أيضاً، والله تعالى أعلم.

{مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ} [(١١١) سورة الأنعام] أي أن الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الفعَّال لما يريد **{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}** [(٢٣) سورة الأنبياء] لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته.

وهذه الآية كقوله تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ* وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ}** [(٩٦-٩٧) سورة يونس].

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ* وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [(١١٢-١١٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ويعادونك ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء فلا يحزنك ذلك، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ} الآية [(٣٤) سورة الأنعام]، وقال تعالى: {مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ} [(٤٣) سورة فصلت] وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} الآية [(٣١) سورة الفرقان]، وقال ورقة بن نوفل -رضي الله تعالى عنه- لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي".

وقوله: {شَيَاطِينَ الإِنسِ} [(١١٢) سورة الأنعام] بدل من {عَدُوًّا} أي: لهم أعداء من شياطين الإنس والجن. والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء قبحهم الله ولعنهم.

بعضهم يقول: قيل له شيطان لخروجه عن نظائره، ولهذا يفسره بعضهم بقوله: إنه مأخوذ من شطنت البئر إذا بعُد غورها وقعرها، وبعضهم يقول: قيل للشيطان ذلك لبعده عن طاعة الله -عز وجل- وعن الخير، وبعضهم يقول: إن الشيطان بمعنى العاتي المتمرد، فكل عاتٍ متمرد هو شيطان، ولهذا قال الشاعر:

أيام يدعونني الشيطان من غـزل ... وكنَّ يهـوينني إن كنـت شـيطانا

يحكي عن الغواني اللاتي أعرضن عنه حينما لاح الشيب في رأسه، فهو يذكِّر بما كان في زمن مضى أيام عتوه وشبابه وقوته حين كنَّ هؤلاء النسوة يسمينه بالشيطان، وقوله: من غزلٍ يعني كنَّ يتغزلن به ويطلقن عليه هذا.

فالشياطين ربما قيل لهم شياطين لعتوهم وتمردهم، ولهذا قال كثير من أهل العلم كابن جرير: الشياطين يعني المَرَدة، وهذا لا إشكال فيه، وبعضهم يقول ما ذكره الحافظ ابن كثير: "**كل من خرج عن نظيره بالشر**" وهذا أيضاً لا إشكال فيه؛ فهؤلاء إنما كانوا مردة لخروجهم عن صفة نظائرهم.

وهذه الآية نص صريح في أن الإنس فيهم شياطين، والنبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((الكلب الأسود شيطان))[1] وعلى كل حال فالمردة من الإنس والجن يقال لهم شياطين، وأعداء الرسل الذين ذكرهم الله -عز

[1] - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب قدر ما يستر المصلي (٥١٠) (ج ١ / ص ٣٦٥).

وجل- هم من النوعين -من شياطين الإنس وشياطين الجن- ولا يختص ذلك بزمان الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأيام حياتهم بل يبقون ما شاء الله في كل زمان ومكان.

قال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن قتادة في قوله: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [(١١٢) سورة الأنعام] قال: من الجن شياطين ومن الإنس شياطين، يوحي بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] أي: يلقي بعضهم إلى بعض القول المزيَّن المزخرف، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره.

يقول الحافظ -رحمه الله- في قوله: **{يُوحِي بَعْضُهُمْ}** "**أي: يلقي بعضهم لبعض**" الإيحاء أو الوحي أصح معانيه التي يفسر بها من كلام العرب هو كل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه، ولا يختص ذلك بالإلقاء السريع الخفي -كما هو المشهور- بل يكون بهذا وبغيره، فجبريل -صلى الله عليه وسلم- جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر.. إلى آخر الحديث[٢] والمقصود أنه لم يُلقِ الوحي بسرعة وخفاء، ولذلك يقال: لا يلزم في الوحي أن يكون بسرعة وخفاء بل يطلق على ما ألقي بسرعة ويطلق على غيره، كما يقال في الكتابة: إنها وحي، ولهذا يقولون: وحي في حجر، ويقال للرمز والإشارة أيضاً وحي، ويطلق على غير ذلك أيضاً، والله أعلم.

فقوله تعالى: **{يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ}** [(١١٢) سورة الأنعام] أي: يلقي بعضهم إلى بعض.

وقوله: **{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [(١١٢) سورة الأنعام] يعني ما تُموّه به الحقائق وتضلل به الأفهام سواء كان ذلك بتغيير الأسماء كما ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- كلاماً عن هذا في غاية الحسن والجودة حيث قال: يسمون الخمرة بغير اسمها، ويسمون الزنا بغير اسمه، ويسمون الربا بالفائدة، ويسمون الإفساد بالإصلاح، وقد قال تعالى: **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ}** [(١١) سورة البقرة] إلى غير ذلك من الأسماء المبهرجة التي يروجون بها الباطل فيستهوي ذلك بعض النفوس ويغتر به بعض أهل البلادة، فيرددون خلفهم هذه الألفاظ، ويتابعونهم في هذا التزيين والتضليل، فيقع بسبب ذلك مطلوبهم ومبتغاهم.

{وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ} [(١١٢) سورة الأنعام] أي: وذلك كله بقدر الله وقضائه وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء، {فَذَرْهُمْ} أي: فدعهم {وَمَا يَفْتَرُونَ} أي: يكْذِبون، أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم فإن الله كافيك وناصرك عليهم.

وقوله تعالى: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: ولتميل إليه، قاله ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-.

اللام في قوله: **{وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ}** [(١١٣) سورة الأنعام] لام التعليل، والمعنى أن هؤلاء يوحي بعضهم إلى بعض بإلقاء التلبيسات والوساوس والأباطيل من أجل أن يغروا غيرهم بذلك، ومن أجل أن تميل قلوبهم إلى تلك الأباطيل وترتاض عليها نفوسهم، ثم تفسد أعمالهم تبعاً لذلك.

---

[2] - جزء من حديث جبريل الطويل أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى (٨) (ج ١ / ص ٣٦).

ويحتمل أن يكون ذلك تعليلاً لفعل الله -تبارك وتعالى-، ويكون المعنى أن الله -تبارك وتعالى- جعل لكل نبي عدواً من شياطين الإنس والجن {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] أي وذلك بحكمته ومشيئته، ومن هذه الحكم والغايات البعيدة أن تصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون، فهذه حكمة مقصودة لغيرها، وهي أن ينقسم الناس إلى فريقين ويحصل الابتلاء ويظهر مقتضى الأسماء الحسنى، وأن الله -تبارك وتعالى- يضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويظهر معنى اسمه -تبارك وتعالى- المنتقم والعزيز والرحيم والحليم وما أشبه ذلك، ولذلك كان دفع الباطل بحاجة إلى مجاهدة وصبر على الحق، ولذلك كان للإيمان تبعة وكلفة، ولهذا الاعتبار -والله تعالى أعلم- صار أكثر الخلق على غير الهدى كما سيأتي بيان ذلك عند قوله تعالى: {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ} [(١١٦) سورة الأنعام]، وهذا الظن الذي يتبعونه هو من جملة ما زينه لهم شياطين الإنس والجن، ولو شاء الله -تبارك وتعالى- ما حصل شيء من ذلك، لكن أراد الله ذلك للابتلاء، كما قال تعالى: {وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [(٤) سورة محمد] فكل ذلك مما يقع على أيدي هؤلاء الشياطين إلى يوم الدين هو بإرادة الله وحكمته ومشيئته، وعلى أهل الإيمان الصبر والمجاهدة والمدافعة، قال تعالى: {وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [(٢٥١) سورة البقرة] ولنعلم أن مثل هذه الأمور يحصل بها التوازن في هذه الحياة، ويحصل بها الصراع بين الخير والشر فيظهر فيها حزب الله -عز وجل- على حزب الشيطان، وما يسمعه الإنسان وما يقرؤه وما يراه وما يشاهده من الكيد الكبّار لدين الله -تبارك وتعالى- وما ينفثُه بعض الأفاعي في كتاباتهم من السموم التي يطعنون فيها بدين الله -عز وجل- بحيث إذا قرأها الإنسان يكاد يتميز من الغيظ، كل ذلك لو شاء ربك ما فعلوه، لكن علينا أن نتمسك بالحق وندعو إليه ونرد الباطل قدر الاستطاعة، وهذا هو الواجب على الإنسان وإلا فهذا دين الله -تبارك وتعالى- وهو منصور -بإذن الله- والملك ملك الله والخلق خلقه، ولو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعاً.

{أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: قلوبهم وعقولهم وأسماعهم، وقال السدي: قلوب الكافرين، {وَلِيَرْضَوْهُ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: يحبوه ويريدوه.

الأفئدة هي القلوب، ويقال: إن الفؤاد قيل له فؤاد لكثرة تفؤده أي لكثرة توقده بالمعاني والخواطر والأفكار فالقلب تتحرك فيه الخواطر والإرادات فيمكن للإنسان أن يغمض عينه فلا يرى، وأن يسد أذنه فلا يسمع، أو يبقى في مكان لا يسمع فيه صوتاً، وما أشبه ذلك، لكن لا يستطيع أن يوقف قلبه فلا ترد عليه الخواطر والأفكار وما أشبه ذلك، وإذا كان الإنسان ينظر بعينه ففي الغالب أن القلب يتبع البصر، وإذا كان يسمع بأذنه فالغالب أن القلب يتبع السمع، لكن إذا كان لا يسمع ولا يبصر فالقلب يبقى في تحرك متواصل إما بأن يعيد شريط أشياء مضت أو يفكر بأشياء في المستقبل، أو غير ذلك.

{وَلِيَرْضَوْهُ} [(١١٣) سورة الأنعام] أي: يحبوه ويريدوه، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة كما قال تعالى: {فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ* مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ* إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ} [(١٦١-١٦٣) سورة الصافات]، وقال تعالى: {إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ* يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ} [(٨-٩) سورة الذاريات].

وقوله: {وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [(١١٣) سورة الأنعام] **قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما–: وليكتسبوا ما هم مكتسبون، وقال السدي وابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون.**

على هذا تكون اللام للتعليل يعني ولتصغى وليرضوه وليقترفوا.

{أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ* وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} **[(١١٤-١١٥) سورة الأنعام].**

يقول تعالى لنبيه –صلى الله عليه وسلم–: قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره {أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا} أي: **بيني وبينكم {وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً}** [(١١٤) سورة الأنعام] أي: **مبيناً.**

الهمزة للإنكار في قوله: **{أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا}** والحَكَم أبلغ من الحاكم –كما هو معلوم – وأصل الحكم معروف أنه يدور على معنى المنع في كل استعمالاته وذلك على قول كثير من أهل العلم، والله تعالى أعلم، فالحَكَم هو الذي يمنع أحد الخصمين من التعدي على الآخر أو من أخذ حقه، وقل ذلك كذلك في مثل موارد هذه اللفظة، فالحَكَمَة هي الحديدة التي توضع في فم الدابة لتمنعها من الانفلات، والحِكْمَة تمنع صاحبها من الشطط في القول والرأي والفعل، والله أعلم.

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ} [(١١٤) سورة الأنعام] **أي: من اليهود والنصارى {يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}** **أي: بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين.**

{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} كقوله: {فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [(٩٤) سورة يونس] **وهذا شرط، والشرط لا يقتضي وقوعه.**

من أهل العلم من يربط بين قوله: **{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** [(١١٤) سورة الأنعام] وبين ما قبله مباشرة، أعني قوله: **{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}** [(١١٤) سورة الأنعام] يعني أنهم يعلمون ذلك فلا تشك في هذا، والاحتمال الآخر أن قوله: **{فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}** يعني لا تكن من الشاكّين في حقيقة الأخبار التي أوحى الله –عز وجل– إليك بها في هذا الكتاب، فالله –عز وجل– أخبره في هذا القرآن عن أمور ومنها أن أهل الكتاب يعلمون أنه منزل من ربه بالحق، فإذا كان هؤلاء الجهلة من المشركين يكذبونه ويقولون: إنه أساطير الأولين فإن الذين أوتوا الكتاب من قبله يعلمون أنه منزل من ربه بالحق لما يعرفون من دلائل صدقه التي يجدونها في كتابهم، ولما يجدون من الموافقة والمطابقة بين هذه الحقائق التي يُبين عنها القرآن وبين ما في كتبهم من الأخبار الغيبية، سواء كان ذلك عن أمور مضت أو عن أمور مستقبلة، أو كان ذلك مما يتعلق بصفات الله –عز وجل– فهناك مطابقة كبيرة بين ما في القرآن وبين ما في التوراة، ولذلك فإن الصفات الإلهية في التوراة –إلا ما حرفوه بسبب كذبهم على الله وافترائهم عليه– نجد أن الله وصف نفسه فيها كما جاء في القرآن وفي سنة النبي –صلى الله عليه وسلم–.

وخبر الحبر الذي جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وذكر ما يكون في اليوم الآخر معروف، ومنه قوله: إذا وضع الله السماوات على ذه، والأرضين على ذه.. إلى آخره، فضحك النبي -صلى الله عليه وسلم-[٣]؛ إقراراً لما قاله الحبر.

وقوله: **{فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ}** [(٩٤) سورة يونس] يقول الحافظ: "**هذا شرط والشرط لا يقتضي وقوعه**" هذه قاعدة معروفة، ومن أمثلتها قوله تعالى: **{قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ}** [(٨١) سورة الزخرف] على أحد المعاني التي فسرت بها هذه الآية.

وقوله تعالى: {وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً} [(١١٥) سورة الأنعام] قال قتادة: صدقاً فيما قال وعدلاً فيما حكم.

يقول تعالى: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}** [(١١٥) سورة الأنعام] هذا على قراءة الكوفيين، وقرأ الباقون بالجمع: **(وتمت كلمات ربك)** والقراءة بالإفراد لـ**{كَلِمَتُ}** يمكن أن تحمل على معنى الجمع باعتبار أن المفرد إذا أضيف فإنه يكون للعموم مثل قوله تعالى: **{يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ}** [(٨٣) سورة النحل] يعني نعم الله، فـ**{نِعْمَتَ}** أضيفت إلى الاسم الظاهر -وهو الله- وكذلك إذا أضيف إلى الضمير كما في قوله تعالى: **{لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي}** [(١) سورة الممتحنة] يعني لا تتخذوا أعدائي، فـ"عدو" هنا أضيف إلى ياء المتكلم، ومنه أن يضاف إلى كاف الخطاب كقوله تعالى: **{أَوْ صَدِيقِكُمْ}** [(٦١) سورة النـــور] يعني أو أصدقائكم.

قوله: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}** [(١١٥) سورة الأنعام] أو **(وتمت كلمات ربك)** كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- فسر الكلمة أو الكلمات بأنها القرآن، وهذا مشى عليه كثير من المفسرين وإن اختلفت عباراتهم، وبهذا يكون المراد بالكلمة هنا الكلمات الشرعية.

قوله: **{صِدْقًا وَعَدْلاً}** [(١١٥) سورة الأنعام] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فأخبار هذا القرآن صدق وأحكامه في غاية العدل.

يقول: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الطلب، فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك.

قوله: "**عدلاً في الطلب**" المراد بالطلب يعني الأحكام -الأمر والنهي-؛ لأن الكلام إما أن يكون خبراً أو إنشاءً، والطلب من الإنشاء وهي الأحكام.

فكل ما أخبر به فحق لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة، كما قال تعالى: {يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ} [(١٥٧) سورة الأعراف] إلى آخر الآية.

{لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ} [(١١٥) سورة الأنعام] أي: ليس أحد يعقب حكمه تعالى لا في الدنيا ولا في الآخرة.

{وَهُوَ السَّمِيعُ} لأقوال عباده {الْعَلِيمُ} [(١١٥) سورة الأنعام] بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله.

قوله: **{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ}** [(١١٥) سورة الأنعام] فسر بالكلمات الشرعية، وقوله -تبارك وتعالى-: **{لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ}** [(١١٥) سورة الأنعام] يمكن أن يفسر أيضاً بالكلمات الشرعية، فيكون **{لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ}** [(١١٥) سورة

---

[3] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الزمر (٣٢٤٠) (ج ٥ / ص ٣٧١) وصـــححه الألباني.

الأنعام] بمعنى أنه إذا أخبر عن شيء فلا بد أن يقع، وقد أخبر عما يكون في يوم القيامة فلا بد أن يقع، وأخبر عما يكون للكافرين فوقع ما أخبر به، وأخبر عن ظهور دين الرسول -صلى الله عليه وسلم- فكان ذلك، وكذلك سائر الأخبار كما قال الله -عز وجل- مثلاً عن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك: **{قُل لَّن تَتَّبِعُونَا}** [(١٥) سورة الفتح] حيث أرادوا أن يبدلوا كلام الله فقالوا: **{ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ}** [(١٥) سورة الفتح] فتكون هذه مفسرة للآية التي بين أيدينا وهي قوله تعالى: **{لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ}** [(١١٥) سورة الأنعام]، والله أعلم.

وعلى كل حال فالكلمات تطلق على الكلمات الشرعية وتطلق على الكلمات الكونية القدرية، فإذا قال الإنسان: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، فهذا مقام استعاذة، فلو قصد بها الكلمات الشرعية فهذا يصح؛ لأن القرآن كلام الله، وكلامه صفة من صفاته، والاستعاذة بالصفة أمر جائز لا إشكال فيه، فتقول: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أعوذ بوجهك))[4] فهو استعاذ بالصفة، وهذا بخلاف الدعاء فإن الصفة لا تدعى، فلا تقول: يا عزة الله، وإنما تقول: يا الله.. يا صاحب العزة.. يا عزيز..، ففرق بين الاستعاذة وبين الدعاء.

كذلك يحتمل أن يكون معنى أعوذ بكلمات الله التامات، يعني الكلمات الكونية القدرية التي لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر، لكن أليق المعنيين وأنسب بالمقام -مقام الاستعاذة- الكلمات القدرية؛ لأنك تستعيذ من شر كل ذي شر، فكون ذلك يحمل على الكلمات القدرية أليق وأنسب وأكثر ارتباطاً بمقام الاستعاذة، والمقصود بالكلمات الكونية القدرية: كن فيكون من قوله تعالى: **{إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}** [(٤٠) سورة النحل] فهذه لا يجاوزها برٌّ ولا فاجر؛ لأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ* إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(١١٦-١١٧) سورة الأنعام].

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ} [(٧١) سورة الصافات] وقال تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [(١٠٣) سورة يوسف] وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم وإنما هم في ظنون كاذبة وحسبان باطل {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} [(١١٦) سورة الأنعام] فإن الخَرْص هو الحَزْر، ومنه خرْص النخل وهو حزْر ما عليها من التمر، وذلك كله عن قدر الله ومشيئته.

{هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ} [(١١٧) سورة الأنعام] فييسره لذلك {وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [(١١٧) سورة الأنعام] فييسرهم لذلك، وكلٌّ ميسرٌ لما خلق له.

قوله تعالى: **{وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ}** [(١١٦) سورة الأنعام] لا حاجة لحمله على زمان معين كأن يقال: أي في ذلك الوقت الذي نزلت فيه الآية، كما أنه لا حاجة إلى حمله على مكان معيّن كأن يقال: هذا في مكة باعتبار أن "أل" عهدية" في قوله: **{مَن فِي الأَرْضِ}** [(١١٦) سورة الأنعام] فهذا لا دليل عليه، بل هذا عام في كل زمان ومكان؛ لأن الله -عز وجل- قال: **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [(١٠٣) سورة

---

[4] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٢) (ج ٤ / ص ١٦٩٤).

يوسف] وقال الشيطان متوعداً بإضلال الناس: {وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [(١٧) سورة الأعراف] والله -عز وجل- يقول: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ} [(٢٠) سورة سبأ].

الحاصل أن أكثر الناس ضالون مضلون -بلا شك- ويبقى من هداهم الله -عز وجل- واصطفاهم واجتباهم، ممن يطيع ربه -تبارك وتعالى- ويتبع هذا الوحي المنزل فيكون بذلك مهتدياً، وكل من كان قائده غير الوحي من رأي وعقل وذوق ووجد، أو شياطين الإنس والجن فلا شك أنه في عماية وضلال يتخبط فيها ويتقلب ظهراً لبطن، وهذا هو حقيقة الأمر وإن ادعى المدعون أنهم مستنيرون، والله المستعان.

{فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ* وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [(١١٨-١١٩) سورة الأنعام].

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليها اسمه، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات وأكل ما ذبح على النصب وغيرها.

ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [(١١٩) سورة الأنعام] أي: قد بيّن لكم ما حرم عليكم ووضحه، قرأ بعضهم {فَصَّلَ} بالتشديد، وقرأ آخرون بالتخفيف، والكل بمعنى البيان والوضوح.

بعض السلف كعطاء حمل قوله تعالى: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] على العموم، يعني في سائر المطعومات، والذي عليه عامة أهل العلم، وهو الذي يدل عليه السياق ومقتضى الحال أن المقصود بذلك الذبائح، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ} [(٥) سورة المائدة] المقصود به الذبائح على قول عامة أهل العلم، وأما غير الذبائح فلا يختص ذلك بأهل الكتاب مما يصنعونه من خبز ونحوه، فهنا في قوله: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] أي في الذبائح، وهذا أمر مستلزم لمعنى النهي، ودلالة الالتزام هذه مصرح بها فيما سيأتي بعده من قوله: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام]، فقوله: {فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١١٨) سورة الأنعام] يعني ولا تأكلوا ما لم يذكر اسم الله عليه.

وإذا كانت هذه الآية في الذبائح فإن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على اعتبار حال الذابح يعني من يقوم بالتذكية ممن تحل ذبيحته، وهو المسلم الذي لا يذبح لغير الله -عز وجل- أو الكتابي الذي لا يذبح لغير الله أيضاً، بخلاف طوائف المشركين الذين يذبحون لأوثانهم وأصنامهم وما أشبه ذلك، ولهذا لا يرى -رحمه الله- وجوب التسمية عند الذبح، وغير ابن جرير حمل ذلك على أن المراد وجوب التسمية عند الذبح، وسيأتي الكلام على هذا عند قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ} [(١١٩) سورة الأنعام] فأين فصّل هذا؟ فصّله عند قوله تعالى: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ

رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] وبعض العلماء قال: فصّله في سورة المائدة، لكن هذا في غاية البعد؛ لأن سورة المائدة هي آخر ما نزل في الأحكام وهذه السورة مكية.

{إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [(١١٩) سورة الأنعام] أي: إلا في حال الاضطرار فإنه يباح لكم ما وجدتم.

ثم بيّن تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلال الميتات، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال: {وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} [(١١٩) سورة الأنعام] أي: هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم.

سيأتي أن من إضلالهم في هذا الباب ما ذكر الله -تبارك وتعالى- في قوله: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ} [(١٣٨) سورة الأنعام] إلى غير ذلك من الفِرى التي يفتيرها هؤلاء الجهلة الذين يقولون على الله -عز وجل- بغير علم، والله المستعان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٦)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

قال مجاهد: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} المعصية في السر والعلانية، وقال قتادة: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} أي: سرّه وعلانيته، قليله وكثيره، كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} الآية [(٣٣) سورة الأعراف].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}** [(١٢٠) سورة الأنعام] نقل هنا قول قتادة -رحمه الله- إنه قال: أي سره وعلانيته، وكذا قول مجاهد: **{ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ}** [(١٢٠) سورة الأنعام] إنه المعصية في السر والعلانية.

وبعضهم فسر الظاهر بأفعال الجوارح، والباطن بما خفي مما لا يطلع عليه إلا الله -تبارك وتعالى- وهو ما في القلب من أعمال القلوب، وبعضهم فسر ظاهره بنكاح المحارم وباطنه بالزنا، وبعضهم فسر ظاهره بالزنا مع البغايا المعلنات، وباطنه بالزنا سراً مع الخليلات، وبعضهم يقول غير ذلك، والأحسن -والله تعالى أعلم- أن يقال: إن هذه المعاني المذكورة داخلة تحت عموم هذه الآية، وإن ظاهر الإثم يدخل فيه كل ما يصدق عليه ذلك مما ظهر على الجوارح من زنا معلن أو من كلام بذيء فاحش يسمعه غيره أو من نكاح المحارم -لأن النكاح لا يخفى-، أو غير ذلك مما يظهر به الإثم ويعلمه الناس ويشاهدونه أو يتسامعون به، ويدخل في الباطن ما ينطوي عليه القلب مما لا يحبه الله -عز وجل- ولا يرضاه، وأعظم ذلك الشرك بالقلب، وكذلك يدخل فيه الزنا سراً، والخوف من غير الله -تبارك وتعالى- خوفاً لا يصلح إلا من الله، وكذلك سائر الأمور التي تكون خفية، وهذا الذي مشى عليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- حيث حمل الآية على العموم، وهذا يرجع إلى المعنى الذي ذكره مجاهد وقتادة: أي سره وعلانيته، فظاهر الإثم هو العلانية، والباطن هو السر، ومعنى ذلك أن يترك الإنسان جميع الآثام -يعني جميع الذنوب- فالإثم يطلق على الذنب لأنه متسبب عنه فتقول: الكذب إثم، ويطلق على جريرة الذنب وهي التبعة والعقوبة التي تكون على الذنب كما تقول: من أكل المال الحرام يأثم، من سمع المعازف يأثم، بمعنى أنه يلحقه تبعة وهي أنه يستحق العقوبة، وبعضهم يطلق الإثم على نوع من المعاصي وذلك راجع إلى عرف الاستعمال، يعني في بعض الأعراف قد يطلقون

الإثم على نوع خاص من المعصية، إما لكثرة ضرره وشره وما ينبني عليه من كثرة المعاصي كما تسمى الخمر التي هي أم الخبائث إثماً، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ... كذاك الإثم تفعل بالعقول

ولهذا قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ} [(١٢٠) سورة الأنعام] أي: سواء كان ظاهراً أو خفياً، فإن الله سيجزيهم عليه.

روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الإثم فقال: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه))[1].

كأن هذا معيار يرجع فيه الإنسان إلى نفسه عند التردد، بمعنى أن هناك أموراً واضحة مثل شرب الخمر والزنا فهذه لا يقال فيها مثل هذا؛ لأنه قد جاء النص الواضح الصريح في تحريمها، ولكن من الأمور ما قد يتردد فيه الإنسان فربما يجد من يسوغ له ذلك فيفتيه بالجواز، وربما وجد لنفسه المخارج أن هذا لا بأس به ونحو ذلك، فكيف يعرف في مثل هذه الحالات؟ عندنا هذا الحديث وعندنا الحديث الآخر: ((استفت قلبك))[2] وليس معنى استفت قلبك ترك العلم والحكم بما أنزل الله -عز وجل- وترك سؤال أهل العلم، وإنما المراد أن الإنسان أحياناً يسأل ومع ذلك لا يطمئن؛ لأنه لم يجد الدليل الكاشف الذي يدل على جواز هذا الشيء، فلا تطيب نفسه لفعله، وقد يفعله متتبعاً للرخص، فعندئذ يقال: استفت قلبك، يعني أن الإنسان يجد في قلبه أحياناً إنكاراً لهذا الشيء إذا كان القلب حياً نابضاً بالإيمان، أما القلب الميت فمثل هذا لا يستفتى؛ لأنه لا يشعر كما قال الشاعر:

من يهن يسهلِ الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

لكن القلب الحي يكون فيه نفور عن العمل السيئ وانقباض، فقد يحصل له مال بطريقة معينة قد يجد من يسوغ له أخذه ولكنه يجد في نفسه شيئاً، فهنا يقال له: استفت قلبك، ويقال له: ((الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس))[3].

ولذلك بعض الناس يتردد في بعض المسائل ويجد أن هذا الأمر غير سائغ فمثل هذا يقال له: دعها طالما أنك تجد في نفسك مثل هذا الحرج؛ لأنه ليس فيها نص واضح بيّن، والأمثلة على هذا كثيرة جداً في المكاسب وفي المعاشرة والنكاح وغير ذلك مما يفعله الإنسان، فإذا قال: أجد في نفسي شيئاً من هذا، نقول: دعه، وأعرض عنه؛ فالإثم ما حاك في الصدر.

{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] استُدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم

---

[1] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

[2] - أخرجه الدارمي في كتاب البيوع - باب دع ما يريبك إلى ما لا يريبك (٢٥٣٣) (ج ٢ / ص ٣٢٠) وأحمد (١٨٠٣٥) (ج ٤ / ص ٢٢٨) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٧٣٤).

[3] - أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تفسير البر والإثم (٢٥٥٣) (ج ٤ / ص ١٩٨٠).

يذكر اسم الله عليها، وإن كان الذابح مسلماً، وبقوله في آية الصيد: **{فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ}** [(٤) سورة المائدة].

قوله تعالى: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}** [(١٢١) سورة الأنعام] جاء في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة جداً، وكثير منها من المراسيل، فعامة هذه الروايات لا تخلو من ضعف، ومنها ما ورد عن ابن عباس -رضي الله عنهما- من بعض الطرق التي لا بأس بها، ويمكن من مجموع تلك المرويات -من المراسيل وغيرها- أن يتقوى الأثر الوارد في ذلك، وذلك أن المشركين احتجوا على المسلمين فقالوا: ما ذبحتم بأيديكم تقولون إنه حلال وما ذبحه الله أو ما قتله الله بيده الشريفة تقولون: إنه حرام؟ أأنتم أحسن من الله حتى يكون فعلكم أفضل من فعل الله بحيث صار فعلكم يحلها وفعل الله يحرمها؟

هذه شبهة ألقاها عليهم الشياطين من أجل مجادلتهم، فالله -تبارك وتعالى- رد عليهم فقال: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}** [(١٢١) سورة الأنعام] فالرد جاء بهذه الطريقة كما في قوله: **{وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا}** [(٢٧٥) سورة البقرة] لما قالوا: **{إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا}** [(٢٧٥) سورة البقرة]، وهذه الردود لم يذكر الله -عز وجل- فيها طرقاً في الاحتجاج والإقناع العقلي؛ لأن هؤلاء لا يؤمنون بالوحي أصلاً، وإلا فقد كان بالإمكان أن يرد على هؤلاء في بيان قبائح الميتة ومضارها الصحية وما يحصل في داخلها من التحولات، وأمور كثيرة قد تقنع السامع بأن هذه الميتة لا تصلح للأكل، لكن في مثل هذا اكتفى الله -تبارك وتعالى- بمثل هذا اللون من الرد، وطرق الرد متعددة فيمكن أن يرد على المبطل ويقال: هذا حكم الله -عز وجل- وانتهى الأمر، ويمكن أن يرد عليه بطريقة فيها تفصيل وذلك بمراعاة الجانب الذي يقر به، بمعنى أنه إن كان ينكر الوحي فيمكن أن يقتنع بأدلة العقول مثلاً، ولا مانع من ذكر الأدلة العقلية بإثبات أمر أو نفيه، وفي القرآن يوجد من هذا، ولذلك ذكر الشاطبي -رحمه الله- في أنواع الاستدلال أن هناك من الأدلة ما يستدل به على الموافق والمخالف، وهي الأدلة العقلية مثل قوله تعالى: **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** [(٢٢) سورة الأنبياء] وقوله: **{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ}** [(٩١) سورة المؤمنون]، وهناك أدلة يستدل بها على الموافق الذي يقر أن هذا نص أوحاه الله -عز وجل- وأنه معصوم فهذا يقال له: هذا حرام لا يجوز؛ لأن الله تعالى قال كذا وكذا، والله أعلم.

قال الله تعالى هنا: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ}** [(١٢١) سورة الأنعام] وقال في الآية الأخرى: **{فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ}** [(١١٨) سورة الأنعام] فمفهوم قوله: **{فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ}** [(١١٨) سورة الأنعام] أي: ولا تأكلوا غيره مما لم يذكر اسم الله عليه، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلماً سواء ترك ذلك عمداً أو نسياناً أخذاً بالظاهر، فالظاهر من قوله: **{وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ}** [(١٢١) سورة الأنعام] أنه إذا لم يذكر اسمه فإنه لا يحل للأكل، وبهذا المنع المطلق في كل الحالات، قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم كابن عمر ومولاه نافع والشعبي وابن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، وأحمد وبه قال داود الظاهري.

وقال بعض أهل العلم: إن التسمية تسقط في حال النسيان؛ لأن الله تعالى قال: {رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا} [(٢٨٦) سورة البقرة] وقال -صلى الله عليه وسلم-: ((وإن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان))[٤].

ومن أهل العلم كابن جرير -رحمه الله- من يقول: المراد بذلك اعتبار حال الذابح، يعني إن كان الذي ذبح من أهل الأوثان فهو المراد بمنع أكل ذبيحته، وأن ما ذكر اسم الله عليه معناه أن يكون الذابح ممن تحل ذبيحته ممن لم يذبح لغير الله.

ثم قد أكد في هذه الآية بقوله: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله.

يقول تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ} [(١٢١) سورة الأنعام] يعني الأكل أو المأكول، أي إن أكلكم منه لفسق، أو إن المأكول لفسق، والمعنيان بينهما ملازمة؛ فإذا كان ذلك الطعام من الفسق فإن تعاطيه وأكله من الفسق، إلا لعذر كما دل على ذلك قوله تبارك تعالى: {إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ} [(١١٩) سورة الأنعام] وإذا كان تعاطيه من الفسق فإن هذا يقتضي أنه فسق يعني أنه محرم.

والفسق هو الخروج عن طاعة الله -تبارك وتعالى-، وأصل مادة الفسق يرجع إلى معنى الخروج، سواء كان هذا الخروج من طاعة الله مطلقاً -الفسق الأكبر- أو كان جزئياً بالمعصية.

وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديث عدي بن حاتم وأبي ثعلبة -رضي الله تعالى عنهما-: ((إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك)) وهما في الصحيحين[٥].

في الحديث ذكر شرطين يحل بهما الأكل: الأول: ((إذا أرسلت كلبك المعلم)) أي لا بد أن يكون معلماً لا يصيد لنفسه، والثاني: ((وذكرت اسم الله عليه)) فإذا انتفت هذه الشروط أو انتفى بعضها انتفى المشروط، أي لا يحل الأكل من الصيد.

وحديث رافع بن خديج -رضي الله تعالى عنه-: ((ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه)) وهو في الصحيحين أيضاً[٦].

عدي بن حاتم -رضي الله تعالى عنه- من الصحابة ولا يرد عليه إطلاقاً ما ذُكر من أن الاعتبار بحال الذابح أو الصائد؛ فعدي بن حاتم -رضي الله عنه- لا يتقرب بشيء إلى غير الله -تبارك وتعالى- ومع ذلك قال: ((وذكرت اسم الله عليه)) فالمقصود هو ذكر التسمية باللسان، ومثله الأمر بالتسمية عند ذبح الهدايا حيث قال تعالى: {فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ} [(٣٦) سورة الحج] يعني عند نحرها، والأصل أن الأمر للوجوب.

---

[4] - أخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي (٢٠٤٣) (ج ١ / ص ٦٥٩) وصححه الألباني.

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الوضوء - باب الماء الذي يغسل به شعر الإنسان (١٧٣) (ج ١ / ص ٧٦) وفي كتاب الذبائح والصيد - باب صيد القوس (٥١٦١) (ج ٥ / ص ٢٠٨٧) ومسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان - باب الصيد بالكلاب المعلمة (١٩٢٩) (ج ٣ / ص ١٥٢٩) وفيه أيضاً برقم (١٩٣٠) (ج ٣ / ص ١٥٣٢).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الشركة - باب قسمة الغنم (٢٣٥٦) (ج ٢ / ص ٨٨١) ومسلم في كتاب الأضاحي - باب جواز الذبح بكل ما أنهر الدم إلا السن والظفر وسائر العظام (١٩٦٨) (ج ٣ / ص ١٥٥٨).

وحديث ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال للجن: ((لكم كل عظم ذُكر اسم الله عليه)) رواه مسلم[٧].

وحديث جندب بن سفيان البجلي -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله)) أخرجاه[٨].

من أهل العلم من حمل هذا الأمر بالتسمية على الاستحباب، واعتبروا الصارف هو حديث عائشة -رضي الله عنها- لما سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذبائح تأتي من أناس لا يدرون هل ذُكر اسم الله عليها أو لا فقال: ((سموا أنتم وكلوا))[٩] فقالوا: وهذا يدل على أنه لا يجب، وإلى هذا ذهب جماعة من أهل العلم، كالشافعي، وهو رواية عن مالك وأحمد، وبه قال جماعة من الصحابة ومن بعدهم كابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح، إضافة إلى قول من قال منهم: إن المقصود بهذه النصوص هو ما ذبح لغير الله -تبارك وتعالى-.

وذهب بعضهم وهو المشهور عن مالك وأحمد وبه قال أبو حنيفة وإسحاق بن راهويه إلى أنه تجب التسمية لكن يعفى عن النسيان؛ لقوله تعالى: **{رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا}** [(٢٨٦) سورة البقرة] وهذا مروي أيضاً عن جماعة من الصحابة والتابعين كعلي -رضي الله عنه- وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن وغيرهم -رحمهم الله- والقول بأنها تسقط مع النسيان لا يبعد؛ نظراً للأدلة الأخرى، لكن القول بأنها مستحبة لا يخلو من إشكال؛ لأن هذه نصوص صريحة تأمر بالتسمية وتنهى عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه، والأصل أن الأمر للوجوب والنهي للتحريم.

وقوله تعالى: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام].

الشياطين صنفان: شياطين الإنس وشياطين الجن؛ كما قال الله -عز وجل-: **{شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [(١١٢) سورة الأنعام] فيحتمل أن يكون المراد بقوله: **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ}** [(١٢١) سورة الأنعام] يعني شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الجن، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، أي أن الوحي يكون متبادلاً بين الطرفين.

ويحتمل أن يكون المراد أن شياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس، ويحتمل أن يكون المراد أن شياطين الإنس يوحون إلى إخوانهم ونظرائهم من شياطين الإنس بحيث كل واحد يلقن الثاني الحجج والشبهات من أجل إضلال الناس، فهذه المعاني تحتملها الآية إلا أن إيحاء شياطين الإنس لشياطين الجن قد لا يكون له وقوع؛ لأن العادة أن الإنس يتلقون من الجن، وشياطين الجن هم الذين يقذفون الشبهات في قلوبهم والوساوس وما أشبه ذلك، والله -عز وجل- قال: **{يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [(١١٢) سورة الأنعام] أي شياطين الإنس يوحون إلى شياطين الإنس، وشياطين الجن يوحون إلى شياطين الإنس والجن،

---

7 - أخرجه مسلم في كتاب الصلاة - باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن (٤٥٠) (ج ١ / ص ٣٣٢).

8 - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((فليذبح على اسم الله)) (٥١٨١) (ج ٥ / ص ٢٠٩٥) ومسلم في كتاب الأضاحي - باب وقتها (١٩٦٠) (ج ٣ / ص ١٥٥١).

9 - أخرجه ابن ماجه في كتاب الذبائح - باب التسمية عند الذبح (٣١٧٤) (ج ٢ / ص ١٠٥٩) والدارمي في كتاب الأضاحي - باب اللحم يوجد فلا يدري أذكر اسم الله عليه أم لا؟ (١٩٧٦) (ج ٢ / ص ١١٤) وصححه الألباني.

وهكذا، لكن الذي مال إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- أنها من الطرفين -من الجنسين-؛ لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام].

روى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال: قال رجل لابن عمر -رضي الله تعالى عنهما-: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه؟! قال: صدق، وتلا هذه الآية: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ} [(١٢١) سورة الأنعام].

ابن عمر -رضي الله عنه- متزوج بأخت المختار، والمختار معروف أنه من كبار قادة ابن الزبير، وجرى على يده قتل عامة الذين شاركوا في قتل الحسين -رضي الله عنه-، وكانت جيوشه تشرِّق وتغرب، ثم بعد ذلك فتن وزعم أنه يوحى إليه، وصار يخبر الناس بأشياء فيقول لهم: سيحصل كذا وسيحصل كذا، فإذا لم يحصل ما أخبر به قال -قبحه الله-: بدا لله في هذا الأمر كذا وكذا، يعني كما تقول: فلان غيَّر رأيه، ولذلك فإن مسألة البداء يقول بها الرافضة ويوغلون فيها، وقال بها هذا المتنبئ المختار الثقفي الكذاب، وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه يخرج من ثقيف مُبير يكثر القتل وهو الحجاج، ويخرج كذاب وهو المختار الثقفي وهو قائد من قادة ابن الزبير -نسأل الله العافية- وإذا كان قد حدث هذا في ذلك الزمان الشريف -زمان الصحابة- بل وحدث ذلك من قائد لابن الزبير حيث أتى بمثل هذه العجائب والغرائب دون حياء من الله ولا من الناس فلا غرابة أن يخرج في زماننا من يأتي بأعجب من هذا؛ وقد وُجد من يقول: إنه يوحى إليه وأنه المهدي أو أنه رسول، ويأتي بالمضحكات المبكيات، ثم تجد بعض البهائم الذين يصدقونه ويقبلون قوله بل ويستميتون في الدفاع عنه، نسأل الله العافية.

وعن أبي زُمَيْل قال: كنت قاعداً عند ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وحجَّ المختار بن أبي عبيد فجاءه رجل فقال: يا ابن عباس، زعم أبو إسحاق أنه أوحي إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فنفرت وقلت: يقول ابن عباس: صدق، فقال ابن عباس: هما وحيان، وحي الله ووحي الشيطان، فوحي الله إلى محمد -صلى الله عليه وسلم- ووحي الشيطان إلى أوليائه، ثم قرأ: {وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] وقد تقدم عن عكرمة في قوله: {يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} [(١١٢) سورة الأنعام] نحو هذا.

وحي شياطين الإنس لشياطين الإنس واضح، وذلك أنهم يلقنونهم الشبهات ويزينون لهم الباطل ويغرونهم به، ويشجعونهم ويثبتونهم ويقوون قلوبهم، ويتعاضدون على هذا ويتواصون عليه، وأما وحي شياطين الجن لشياطين الإنس فيكون بإلقاء الشبهات وإلقاء الوساوس في قلوبهم، وما أشبه ذلك، وقد يجرونه على ألسنتهم بطرق شتى، ومن ذلك أن الإنسان قد يكون فيه شيء من المسّ أو السحر أحياناً فتجري على لسانه أمور عجيبة جداً وربما كانت في غاية التلبيس والتدليس، ويستخرج عليها شبهات أو أدلة إذا سمعها الجاهل اغتر بها ولا يعرف الجواب عنها، أعني أنها تُجرى على ألسن هؤلاء فيغتر بهم كثير من الناس فيضللونهم.

وقد يأتونهم عن طريق الرؤى فيرى مثلاً مائة إنسان أن فلاناً هو المهدي المنتظر، فإذا رأوه قالوا: أنت الذي رأيناك على أنك المهدي، وقد يكون هذا الإنسان ليس من نسل النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد لا يكون اسمه محمد بن عبد الله، ومع ذلك يأتون لهم بألوان التلبيسات مما يقْنعون به أن هذا هو المهدي، ويجيبون

بتلبيساتهم عن كون اسمه ليس محمداً، وعن كونه ليس من نسل النبي -صلى الله عليه وسلم-، فالجاهل يظن أن هذه الإجابات حق، وخاصة أن مائة إنسان قد رأى هذه الرؤى فيقول: لا يعقل أن يرى هؤلاء كلهم هذا الأمر ثم لا يكون حقيقة.

ومن المعلوم أن الناس الذين عندهم مس أو سحر يلقي الشيطان على ألسنتهم أشياء عجيبة جداً قد لا تُتصور وقد يكون ذلك عن طريق الرؤى وقد يكون في اليقظة، ومن صور ذلك أنه بكل بساطة يقول: الآن سيتصل بي فلان، فيدق الهاتف وإذا هو فلان اتصل من بلدة أخرى، وقد لا يقصد التلبيس لكن لو أراد أن يلبس لاستطاع.

وقد يقول: الحمل الذي وقع لفلانة هو ولد، وقد يقول: ستحمل امرأتك وستأتي بولد ويكون هذا مما استرقوه من السمع!

وقد يكون هذا الإنسان من الرقاة فيضلل الناس ويلبس عليهم بقراءة القرآن، ويأتيهم بأشياء من هذا القبيل، ويخبرهم عن أشياء غيبية يتلقاها عن طريق الشياطين شعر بذلك أم لم يشعر، لكن الغالب أنه يشعر ويعرف ويضلل ويلبس عن طريق قراءة القرآن، ليظهر لهم أنه يرقي بالقرآن وهو دجال وقد يكون ساحراً، ولو علم الناس بحقيقة الأمر لوضعوا أيديهم فوق رءوسهم مستغربين أن يكون فلان ساحراً، وللعلم فإن هناك أموراً لا يمكن أن تفسر إلا بالسحر.

ومن أنواع التضليل أن بعضهم يستدل على بعض الأمور بنصوص أهل العلم كشيخ الإسلام وابن القيم فيقرأ كلاماً من كتبهم وهو من أجهل الناس لا يفهم كلام العلماء، بل قد يكون قسيساً ومع ذلك يأتي لك بنصوص من كلام شيخ الإسلام ومن كلام ابن القيم وغيرهما مع ذكر الصفحة والجزء فمن أين عرف هذا القسيس كلام شيخ الإسلام وأمثاله من أهل العلم إلا أن يكون ساحراً أو ممسوساً؟ مع أنه قد يأتي في البداية بكلام ممتاز ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لكن إلى حين، ثم يبدأ بالإفساد بصور وأساليب كثيرة وذلك إذا ظهر وصار متمكناً من قلوب الناس وعقولهم، فالله المستعان.

وقوله: {لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] روى ابن جرير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ} [(١٢١) سورة الأنعام] إلى قوله: {لِيُجَادِلُوكُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] قال: يوحي الشياطين إلى أوليائهم: تأكلون مما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله؟ وفي بعض ألفاظه عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أن الذي قتلتم ذكر اسم الله عليه، وأن الذي قد مات لم يذكر اسم الله عليه.

وقال السدي في تفسير هذه الآية: إن المشركين قالوا للمسلمين: كيف تزعمون أنكم تتبعون مرضاة الله فما قتل الله فلا تأكلونه وما ذبحتم أنتم تأكلونه؟، فقال الله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} [(١٢١) سورة الأنعام] فأكلتم الميتة {إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] وهكذا قاله مجاهد والضحاك وغير واحد من علماء السلف.

يلاحظ في قوله تعالى: **{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}** [(١٢١) سورة الأنعام] أن هذا شرك الطاعة والاتباع، وهو أحد أنواع الشرك، ولا يقال هنا: شرك دون شرك بل هو شرك أكبر، فإذا كانوا أطاعوهم في قضية واحدة هي تحليل الميتة فحكم الله عليهم بالشرك، فكيف لو بدلوا لهم كل شرائع الإسلام من أولها إلى آخرها وجاءوا لهم بشرع آخر؟ ذلك شرك من باب أولى، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- قد أطال

الكلام في هذه القضية في عدد من المواضع في دروسه التي سجّلت في المسجد النبوي –رحمه الله– في هذا الموضع وفي غيره من المواضع، وبين أن طاعتهم في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

وقوله تعالى: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] أي: حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره فهذا هو الشرك، كقوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ} الآية [(٣١) سورة التوبة].

وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدي بن حاتم –رضي الله تعالى عنه– أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال: ((بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم))[١٠].

{أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٢) سورة الأنعام] هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً أي: في الضلالة هالكاً حائراً فأحياه الله، أي: أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له ووفقه لاتباع رسله.

يعني أن المقصود بالموت هنا الكفر والضلال، وبالحياة الإيمان والهدى، والله –عز وجل– ذكر هذا المعنى في مواضع من كتابه، وهو معنى صحيح مشهور، وذلك أنه يعبر بالحياة عن حياة القلب واستنارته وإيمان العبد وهدايته.

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله	فأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرأ لم يحيَ بالعلم ميت	فليس له حتى النشور نشور

ولا حاجة أن يقال بما قاله بعض السلف –رحمهم الله– أنه كان ميتاً باعتبار أنه كان نطفة فأحياه الله –عز وجل– حيث نفخ فيه الروح.

يقول تعالى: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا} وفي القراءة الأخرى –وهي قراءة نافع–: {أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا} [(١٢٢) سورة الأنعام] بإسكان الواو وتشديد الياء.

{وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرف به.

هذا المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير هو مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً، يعني هالكاً في الضلالة فأحياه الله –عز وجل– بإحياء قلبه بالإيمان، وهذا هو المتبادر –والله تعالى أعلم– في معنى الآية.

وابن جرير –رحمه الله– حمل الآية على معنى آخر وهو أنها نهيٌ عن طاعة المشركين المجادلين وقال: {وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} [(١٢١) سورة الأنعام] وأمرٌ بطاعة المؤمن الذي كان كافراً فهداه الله، حيث إن طاعته أولى من طاعة ذلك الإنسان الضال الذي قد تحير وهو يتخبط في الظلمات لا يعرف كيف يخرج منها.

لكن المعنى المتبادر –والله تعالى أعلم– هو ما ذكره ابن كثير –رحمه الله–، أي أن هذه مقارنة بين المهتدي وبين الضال كما في قوله تعالى: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}

---

[10] – أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– باب تفسير سورة التوبة (٣٠٩٥) (ج ٥ / ص ٢٧٨) وحسنه الألباني.

[(٢٢) سورة الملك] وليس الكلام فيها متعلقاً بقضية الطاعة، والله تعالى أعلم، أي أن قوله: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا} ليس المقصود به أن طاعة من كان كافراً ثم آمن هي المطلوبة وأنها مقدمة على طاعة الكافر، والله أعلم.

والنور هو القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقال السدي: الإسلام، والكل صحيح.

هذه العبارات -الإسلام، الإيمان، الهدى، العلم- كلها ترجع إلى شيء واحد، وبعضهم يقول: إن هذا النور في قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] هو الذي يكون للمؤمن على الصراط، وهذا لا دليل عليه، لكن ذلك النور هو نتيجة لنور الهداية والإيمان والإسلام الذي يكون للعبد.

وقد تكلم الحافظ ابن القيم -رحمه الله- على هذه الآية بكلام جيد، وخلاصته أن الضلال بمنزلة الموت، والهداية والعلم بمنزلة الحياة، فهو يقول: إن الحياة التي عليها مدار النجاة للإنسان على قدر اهتدائه وبصره بما أنزل الله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فكلما عظمت هدايته واكتملت كلما كان ذلك أكمل في الحياة التي توهب له، وكلما نقص من هدايته ومن بصره بما أنزل الله كلما قلت هذه الحياة وضعفت، ولذلك فإن الإنسان كلما زاد إيمانه يشعر أن حياته أكمل وأعظم ولها معنى يعيش من أجله، ويجد من الروح واللذة والسرور والانشراح ما لا يقادر قدره، وكذلك من ارتاضت نفسه بالعلم يجد حياته في مجالس العلم، ويرتفع إيمانه، ويقوى يقينه، ويحصل له من أسباب الثبات ومعرفة معالم الطريق التي رسمها الله -عز وجل- لعباده وأمرهم بسلوكها، وتفاصيل الصراط المستقيم، ويعرف أموراً تخفى على غيره من الناس ممن لم تنشرح صدورهم لهذا، ولم تستنر قلوبهم بهذا العلم، فالعلم حياة، وعلى قدر ما عند الإنسان من العلم يكون عنده من الانشراح والبصيرة، وهذه هي الحياة الحقيقية.

{كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة، {لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: لا يهتدي إلى منفذ، ولا مخلص مما هو فيه.

وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم رشَّ عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل))[11] كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة] وقال تعالى: {أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [(٢٢) سورة الملك] وقال تعالى: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} [(٢٤) سورة هود]، وقال تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ* وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاء وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ* إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [(١٩-٢٣) سورة فاطر].

والآيات في هذا كثيرة، ووجه المناسبة في ضرب المثلين هاهنا بالنور والظلمات ما تقدم في أول السورة {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [(١) سورة الأنعام].

---

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان - باب ما جاء في افتراق الأمة (٢٦٤٢) (ج ٥ / ص ٢٦) وأحمد (٦٦٤٤) (ج ٢ / ص ١٧٦) وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٠١).

وقوله تعالى: {كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٢) سورة الأنعام] أي: حسّنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدَراً من الله وحكمة بالغة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

قوله تعالى: **{كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** [(١٢٢) سورة الأنعام] هو كقوله تعالى: **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] وقد سبق أن المعنى: أنه –تبارك وتعالى– زينه لهم قدراً وخلقاً، وأن ذلك جرى على أيدي الشياطين فنُسب إليهم كما في قوله تعالى: **{زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}** [(٤٨) سورة الأنفال]، وهذا التزيين حصل لحكمة من الله –تبارك وتعالى– علِمها وقدرها لينقسم الناس إلى فريقين ويتمايزون في الدنيا والآخرة، ويحصل بسبب ذلك ألوان المجاهدات، وتظهر معاني الأسماء الحسنى وما إلى ذلك.

والعجيب أنها ظلمات ومع ذلك زُيِّنت لهم، ولذلك نجد الكفار مهما كان كفرهم وضلالهم إلا أنهم يتوالدون ويربون أبناءهم على ذلك الكفر وينشئونهم عليه، وهكذا تعيش أمم تقتات على هذا الضلال والظلمات وليس عندهم غضاضة بهذا إطلاقاً؛ لأنهم قد زُيِّن لهم هذا العمل، نسأل الله العافية.

وهكذا تجد الرجل مع أنه في غاية الفقر طيلة حياته إلا أنك تراه يجمع بقرات أو عسلاً وأموالاً طائلة ويشرك بالله شركاً أكبر، حيث يعطيها لحجر أو شجر أو صاحب قبر كالسيد البدوي أو السيد الحسين أو السيدة نفيسة، يصنع ذلك وهو منبسط لا مشكلة عنده بل ويرى أنه قدم قرباه وأنه قد أراح ضميره وهو في الواقع يتخبط في الظلمات إلى النخاع، والمقصود أنه زُيِّن له سوء عمله ذلك، نسأل الله العافية.

وإذا جادلتهم رأيت العجب العجاب، حتى إن أحدهم لما نوقش وذكرت له آية من كتاب الله –عز وجل– حيث قيل له: إن الله –عز وجل– يقول: **{وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}** [(٦١) سورة العنكبوت] قال: يا أخي هذه آية وهابية!! وذلك أنه يسمي من يستدل بهذه الآية وهابيين، نسأل الله العافية، وهكذا يصنع التزيين، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٧)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [(١٢٣-١٢٤) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك، ثم تكون لهم العاقبة، كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} الآية [(٣١) سورة الفرقان] وقال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} الآية [(١٦) سورة الإسراء] قيل: معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمَّرناهم، وقيل: أمرناهم أمراً قدرياً، كما قال هاهنا: {لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} [(١٢٣) سورة الأنعام].

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "**وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك**" هكذا قال الحافظ -رحمه الله- أي: لست وحدك الذي تواجه هؤلاء العتاة من المكذبين المجرمين الماكرين.

وأما ابن جرير -رحمه الله- فإنه يربط هذه الآية بقوله تعالى: **{كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ}** [(١٠٨) سورة الأنعام] يعني يكون المعنى: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون كذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها.

والجعل في قوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا}** بمعنى صيرنا؛ لأن لفظة "جعل" تأتي لمعنيين في كلام العرب، فهي تأتي بمعنى صيَّر، كما في هذا الموضع، وتأتي بمعنى خَلَق، ومنه قوله -تبارك وتعالى-: **{وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا}** [(١٨٩) سورة الأعراف] أي: خلق منها زوجها، ومنه قوله تعالى: **{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}** [(١) سورة الأنعام] أي وخلق الظلمات والنور.

وقوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] يحتمل فيه أكثر من إعراب، فيحتمل أن تكون لفظة "أكابر" مضافة إلى لفظة "مجرميها" وعلى هذا يكون "أكابر" هو المفعول الأول لجعل؛ وذلك أن الفعل جعل الذي يكون بمعنى صيّر له مفعولان، والمفعول الثاني لـــ"جعل" يكون هو الجار والمجرور، أي أن قوله: **{فِي كُلِّ قَرْيَةٍ}** [(١٢٣) سورة الأنعام] في محل نصب مفعول به ثانٍ لـــ"جعل"، وعلى هذا الإعراب

يكون معنى الآية وكذلك جعلنا أكابر المجرمين في كل قرية، والجار والمجرور محله التأخير من الناحية الإعرابية.

والاحتمال الإعرابي الثاني أن مجرميها مفعول أول لـــ"جعل" و"أكابر" مفعول ثانٍ، وعلى هذا يكون المعنى: وكذلك جعلنا مجرميها أكابرها، وهذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- حيث يقول: أي: وجعلنا مجرميها عظماءها.

وعلى المعنى الأول يكون قوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] معناه أن كبار المجرمين هم في كل قرية أعداء الرسل، وعلى المعنى الثاني يكون قوله: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا}** [(١٢٣) سورة الأنعام] معناه: أنه جعل مجرميها أكابرها لحكمة وهي ابتلاء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وأتباعهم بهم، والله تعالى أعلم.

يقول الحافظ -رحمه الله-: "**كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} الآية [(٣١) سورة الفرقان] وقال تعالى: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا} الآية [(١٦) سورة الإسراء] قيل: معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمَّرناهم، وقيل: أمرناهم أمراً قدرياً**" إذا فسر قوله تعالى: **{أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا}** يعني بالفسق والمعصية فإن المقصود بالأمر هنا هو الأمر الكوني القدري؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالأمر الشرعي المتمثل بالإيمان والقسط والمعروف، وإذا فسر بالمعنى الثاني أي أنه الأمر الشرعي فالمعنى أنه أمرهم بالطاعة فكفروا فدمرهم وأهلكهم، والشاهد هنا في ذكر المترفين وليس في قوله: **{أَمَرْنَا}**، فالمترفون هم الأكابر كما قال تعالى: **{وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ}** [(١١) سورة المزمل].

وقوله تعالى: {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} [(١٢٣) سورة الأنعام] قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا} [(١٢٣) سورة الأنعام] قال: سلطنا شرارهم فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب، وقال مجاهد وقتادة: {أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا} عظماؤها، قلت: وهكذا قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ} [(٣٤) سورة سبأ].

هذا كله بيان بأن الأكابر المجرمين هؤلاء هم المترفون من النعمة، وهذا من بيان القرآن بالقرآن، فقوله: **{إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا}** يعني أكابر المجرمين.

{وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} [(٣٥) سورة سبأ] وقال تعالى: {وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} [(٢٣) سورة الزخرف] والمراد بالمكر هاهنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال، كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح -عليه السلام-: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا} [(٢٢) سورة نوح].

المكر هو الحيلة، وبعضهم يقول: أصله مأخوذ في اللغة من الفتل، فالماكر يدبر للإفساد، وهم يمكرون بمعنى يخططون لمحاربة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ولإفساد الخلق ونشر الباطل والصد عن سبيل الله -عز وجل-.

وقوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [(٣١) سورة سبأ].

في هذه الآية توضيح لمكر الأكابر هؤلاء، فلو قال قائل: كيف يمكرون؟ قيل: هذا ينكشف ويتجلى في مثل هذه الآيات، قال تعالى: **{قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [(٣٢-٣٣) سورة سبأ] ما هو مكر الليل والنهار؟ **{إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا}** [(٣٣) سورة سبأ] يعني يأمرونهم بهذا أمراً مباشراً وبكل ما يستطيعون من حيلة يتوصلون بها إلى هذا المطلوب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي قال: حدثنا ابن أبي عمر قال: حدثنا سفيان قال: كل مكر في القرآن فهو عمل.

يقول: "**كل مكر في القرآن فهو عمل**" يعني يعمل على كذا، لكن هذا يحتاج إلى استقراء، وهذه يقال لها: الكليات في القرآن، أعني قولهم: كل كذا فهو كذا، وهي مبنية على الاستقراء فإذا صح الاستقراء صحت، لكن نجد عند الاستقراء كثيراً مما يقولون فيه: إنه كذا، قد لا يثبت.

وقوله تعالى: {وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [(١٢٣) سورة الأنعام] أي: وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم، كما قال تعالى: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وقال: {وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ} [(٢٥) سورة النحل].

وقوله تعالى: {وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا: {لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة كما تأتي إلى الرسل، كقوله -جل وعلا-: {وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} الآية [(٢١) سورة الفرقان].

حمل الحافظ ابن كثير -رحمه الله- قوله تعالى: **{حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] على أن المراد به الرسالة، أي: حتى نؤتى الرسالة، وذلك باعتبار أن ما أوتيه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هي الرسالة، كما أنه -رحمه الله- نظر إلى قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: **{اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] وهذا المعنى مشى عليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، لكن الآية تحتمل معنى آخر رجحه ابن جرير -رحمه الله- وهو أن المراد بقوله: **{وَإِذَا جَاءتْهُمْ آيَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللّهِ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] يعني حتى نؤتى من الآيات والمعجزات مثل ما أوتي رسل الله، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا}** [(٢١) سورة الفرقان] فهذا من طلب رؤية الآيات وليس من طلب الرسالة، والله أعلم.

وقوله: {اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [(١٢٤) سورة الأنعام] أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كقوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ* أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} الآية [(٣٢) سورة الزخرف].

يعني على قول ابن كثير والشنقيطي ومن وافقهم أنهم طلبوا أن يُعطَوا الرسالة فردَّ الله -عز وجل- عليهم بقوله: **{اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] وهذا واضح.

وعلى قول ابن جرير -أنهم طلبوا آيات- يكون قوله تعالى: **{اللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}** [(١٢٤) سورة الأنعام] ردا عليهم بأن هذه الآيات إنما تكون للرسل -عليهم الصلاة والسلام- ولا تكون لغيرهم، فليس لكم أن تطلبوا ذلك وأن تقترحوا على الله -عز وجل- شيئاً لا يصلح لمثلكم.

يعنون: {لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ} [(٣١) سورة الزخرف] عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم {مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ} [(٣١) سورة الزخرف] أي: من مكة والطائف؛ وذلك أنهم -قبحهم الله- كانوا يزدرون بالرسول -صلوات الله وسلامه عليه- بغياً وحسداً وعناداً واستكباراً، كقوله تعالى مخبراً عنه: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا} [(٤١) سورة الفرقان] وقال تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} [(٣٦) سورة الأنبياء] وقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ} [(١٠) سورة الأنعام]، هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه -صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه- حتى إنهم كانوا يسمونه بينهم قبل أن يوحى إليه: الأمين، وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم: وكيف نسبه فيكم؟ قال: هو فينا ذو نسب، قال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته -عليه السلام- على صدق نبوته وصحة ما جاء به[1].

وروى الإمام أحمد عن واثلة بن الأسقع -رضي الله تعالى عنه-: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة واصطفى من بني كنانة قريشاً واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)) انفرد بإخراجه مسلم[2].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : ((بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه))[3].

وقوله تعالى: {سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ اللّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ} الآية [(١٢٤) سورة الأنعام] هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبَّر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا به، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار، وهو الذلة الدائمة؛ لما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [(٦٠) سورة غافر] أي: صاغرين ذليلين حقيرين.

وقوله تعالى: {وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ} [(١٢٤) سورة الأنعام] لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً، وهو التلطف في التحيُّل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً، ولا يظلم ربك

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الوحي - باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) (ج ١ / ص ٧) ومسلم في كتاب الجهاد والسير - باب كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) (ج ٣ / ص ١٣٩٣).

[2] - أخرجه مسلم في كتاب الفضائل - باب فضل نسب النبي -صلى الله عليه وسلم- وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٢٢٧٦) (ج ٤ / ص ١٧٨٢) إلا أنه دون قوله: ((إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل)) وأخرجه الترمذي بتمامه في كتاب المناقب - باب في فضل النبي -صلى الله عليه وسلم- (٣٦٠٥) (ج ٥ / ص ٥٨٣).

[3] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب صفة النبي -صلى الله عليه وسلم- (٣٣٦٤) (ج ٣ / ص ١٣٠٥).

أحداً، كما قال تعالى: {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ} [(٩) سورة الطارق] أي: تظهر المستترات والمكنونات والضمائر، وجاء في الصحيحين عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان))[٤].

والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل.

{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ} أي: ييسره له وينشطه ويسهله، لذلك فهذه علامات على الخير، كقوله تعالى: {أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} الآية [(٢٢) سورة الزمر]، وقال تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ} [(٧) سورة الحجرات].

وقال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ} [(١٢٥) سورة الأنعام] يقول تعالى: يوسِّع قلبه للتوحيد والإيمان به، وكذلك قال أبو مالك وغير واحد وهو ظاهر.

وقوله تعالى: {وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا} [(١٢٥) سورة الأنعام] قرئ بفتح الضاد وتسكين الياء، والأكثرون {ضَيِّقاً} بتشديد الياء وكسرها، وهما لغتان كهَيْن وهَيّن.

قوله تعالى: **{ضَيِّقاً}** بالتشديد هي قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى -بالإسكان- هي قراءة ابن كثير، والمعنى واحد، وفي الغالب أن القراءات إذا كانت ترجع إلى معنى واحد فإننا لا نقف عندها ولا نشير إليها.

وقرأ بعضهم (حَرِجَا) بفتح الحاء وكسر الراء.

وهذه أيضاً خلاف قراءة الجمهور، فقراءة الجمهور **{حَرَجًا}** بفتح الحاء والراء، و **(حَرِجَا) بفتح الحاء وكسر** الراء هي قراءة نافع، والحرِج يحتمل أن يكون معناه آثماً، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه من الحرج وهو بمعنى الضيق، يقال: هذا مكان حرِج يعني مكان ضيّق، ومعنى الآية على هذا أن صدر هذا الإنسان لم يشرح للإسلام ولم يفتح الله -عز وجل- قلبه لتقبّل الهدى الذي أنزله على رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

وعلى قراءة الفتح فهو يدل أيضاً على هذا المعنى، ولذلك يقال للشجرة -بين الشجر- التي لا يوصل إليها حَرَجة، وفي السيرة في قصة غزوة بدر نجد أن أبا جهل الملقب بأبي الحكم كانوا يقولون عنه: أبو الحكم في حرَجة، أو كأنه في حرجة، يعني أنه يحيط به لفيف من المقاتلين معهم الرماح والسلاح حماية وحراسة له حتى لا يوصل إليه، وكذلك الشجرة التي لا يوصل إليها لكثرة الأشجار التي حولها، يقال لها: حرجة.

فقوله تعالى **{يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] يعني لا يصل إليه الهدى ولا يقبل الموعظة ولا ينتفع بالتذكير، والله المستعان.

---

[4] – أخرجه البخاري في كتاب الفتن – باب إذا قال عند القوم شيئا ثم خرج فقال بخلافه (٦٦٩٤) (ج ٦ / ص ٢٦٠٣) ومسلم في كتاب الجهاد والسير – باب تحريم الغدر (١٧٣٨) (ج ٣ / ص ١٣٦١).

وقرأ بعضهم (حَرِجًا) بفتح الحاء وكسر الراء، قيل: بمعنى آثم، قاله السدي، وقيل: بمعنى القراءة الأخرى {حَرَجًا} بفتح الحاء والراء، وهو الذي لا يتسع لشيء من الهدى، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان، ولا ينفذ فيه، وقد سأل عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنه- رجلاً من الأعراب من أهل البادية من مدلج عن الحرجة فقال: هي الشجرة تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء، فقال عمر -رضي الله تعالى عنه-: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

قوله: "**لا تصل إليه راعية**" يعني كالإبل والغنم.

وقوله: "**ولا وحشية**" يعني كالوعول ونحوها.

{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [(١٢٥) سورة الأنعام] **من شدة ذلك عليه، وقال سعيد بن جبير: {يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا}** [(١٢٥) سورة الأنعام] **قال: لا يجد فيه مسلكاً إلا صُعُداً.**

يقول تعالى: **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ}** -بتشديد الصاد والعين، وفي قراءة ابن كثير بالتخفيف **(يصْعَد)** وزيادة المبنى لزيادة المعنى فقوله: **{يَصَّعَّدُ}** تدل على المعاناة، والذي يذكره المفسرون في معنى **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}** [(١٢٥) سورة الأنعام] أنه مثل الذي يحاول الصعود ولا يستطيع، فهو يتكلف أمراً لا يقدر عليه مما يتعذر فعله.

وأصحاب التفسير العلمي والإعجاز العلمي يقولون في هذه الآية: إن الإنسان كلما صعد إلى أعلى ضاق نفسه؛ لأن نسبة الأكسجين تقل كلما ارتفعنا عن سطح الأرض، لكن نحن نقول: لا بد من أن يُنظر إلى كلام السلف هل قال أحد منهم بمثل هذا المعنى، ولا أقصد هل يقولون: إن الأكسجين يقل أو لا، وإنما أقصد هل قالوا: إن الإنسان إذا حاول أن يصعد إلى السماء يضيق صدره أم أنهم قالوا فقط: إن قوله تعالى: **{كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}** [(١٢٥) سورة الأنعام] معناه أنه يحاول الصعود ولا يستطيع؛ لأنه لا يستطيع الصعود إلى السماء أصلاً، بغض النظر عن موضوع الأكسجين؟

وعلى كل حال فالآية لا شك أنها تدل على معنى المعاناة في الصعود، ولا يبعد أن يُضمَّ إضافة هذا المعنى إلى ما قاله السلف -رضي الله تعالى عنهم-، بمعنى أنه قد يحاول أن يصعد ولا يستطيع، وأن الذي يصعد أو يحاول الصعود ويحصل له بعض الصعود فإنه يعاني من ضيق الصدر إضافة إلى عجزه عن الصعود إلى السماء لبعدها، وإنما قلت ذلك؛ لأن الآية فيها قرينة تشعر بهذا المعنى، فالقضية في معرض ذكر شرح الصدر وضيقه، فالذي يحاول أن يقفز ليصعد إلى السماء، هل يحصل له ضيق الصدر بمجرد هذه المحاولة، هذا لا يظهر، وأما أن يقال: إنها من قضايا الإعجاز وأن العلم الحديث اكتشفها، فهذا غير صحيح؛ لأن هذه مسألة يدركها الناس مسبقاً، ولو سألنا كبار السن الذين لم يدرسوا الأكسجين ولم يعرفوه ولم يسمعوا به، لماذا لا تصعد إلى الجبل أو نحوه من المناطق المرتفعة لقال: أنا لا يناسبني ذلك؛ لأني إذا صعدت يحصل عندي ضيق، والمقصود أن هذا أمر موجود يدركه الجميع لكن لا يعرفون فلسفته.

ومن ذلك أننا ندرك أن الماء يحصل به الري وأن الأكل يحصل به الشبع، لكن لو جئنا بإنسان متخصص فإنه سيبيّن كيف يحصل الري بالماء وكيف يحصل الشبع بالطعام، بمعنى أن فلسفة ذلك ليست واضحة إلا عند أهلها، وقل مثل ذلك في كون الإبصار يكون بالعين، فلو أتينا بمتخصص فإنه سيبيّن كيف يحصل الإبصار بالعين، وهكذا، والخلاصة أنه ليس لنا أن نرد أقوال السلف ونثبت معنى جديداً يتعارض مع أقوالهم، لكن إذا

كان المعنى الجديد يمكن إضافته إلى أقوال السلف بحيث لا يتعارض معها فلا إشكال، والله أعلم، ولذلك نقول: قال السلف في الآية كذا ويدخل فيها المعاناة والضيق الذي يحصل للإنسان إذا حاول الصعود، والله أعلم.. وعلى كل حال فهذه مسألة تحتاج إلى زيادة مراجعة.

وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء} [(١٢٥) سورة الأنعام] يقول: فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه حتى يدخله الله في قلبه.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر في شدة ضيقه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثله في امتناعه من قبول الإيمان وضيقه عن وصوله إليه مثل امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنه ليس في وسعه وطاقته.

يلاحظ أن عباراتهم تدور على أن معنى **{يَصَّعَّدُ}**: أنه يحاول الصعود ويعجز.

وقال في قوله: {كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [(١٢٥) سورة الأنعام] يقول: كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله.

وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: الرجس: الشيطان، وقال مجاهد: الرجس: كل ما لا خير فيه، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرجس: العذاب.

وبعضهم يقول: أصل الرجس في كلام العرب النَّتن، ولذلك يقال للنجاسات الحسية: رجس ويقال لها: ركس أيضاً، ويقال ذلك أيضاً في النجاسات المعنوية، كما قال تعالى: **{إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ}** [(٩٠) سورة المائدة] تقول: هذا رجس، ونقول أيضاً عن الشيطان إنه رجس؛ لأنه محل للعمل السيئ -نسأل الله العافية- ويقال ذلك أيضاً للعلم السيئ والفساد والإفساد والشر والإغواء، ويقال عن أهل الفساد والشر: إنهم رجس.

والله -عز وجل- قال عن المنافقين: **{فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ}** [(٩٥) سورة التوبة] وقال عن المشركين: **{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}** [(٢٨) سورة التوبة] والنجس بمعنى الرجس، أي: نجاسة معنوية، والنجاسة نجاستان: حسية ومعنوية.

وقوله تعالى: **{كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}** [(١٢٥) سورة الأنعام] يعني يسلط عليهم الشيطان، ويدخل في معنى ذلك كل المعاني التي يمكن أن تصلح في هذا المقام، فهم أهل ومحل لهذه القاذورات من الكفر والأعمال السيئة، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: **{الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ}** [(٢٦) سورة النــــور] وقال -تبارك وتعالى-: **{وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ}** [(٢٦) سورة النــــور] قال ابن جرير -رحمه الله- وهو أحد المعاني الداخلة فيها-: الكلمات الطيبة للطيبين والعقائد الطيبة للطيبين والأعمال الطيبة للطيبين، والخبيثون هم محل للفواحش وللكلام السيئ الرديء وما لا يليق، فهم أهل لذلك وموطنه.

{وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ* لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [(١٢٦-١٢٧) سورة الأنعام] **لما ذكر تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادِّين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق، فقال تعالى: {وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا}** [(١٢٦) سورة الأنعام] **منصوب على الحال، أي: هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو صراط الله المستقيم.**

{قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ} أي: وضحناها وبيَّناها وفسرناها {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} [(٩٧) سورة الأنعام] **أي: لمن لهم فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله.**

{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **وهي الجنة {عِندَ رَبِّهِمْ}** [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: يوم القيامة، وإنما وصف الله الجنة هاهنا بدار السلام لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام.**

{وَهُوَ وَلِيُّهُمْ} [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: حافظهم وناصرهم، ومؤيدهم، {بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}** [(١٢٧) سورة الأنعام] **أي: جزاء على أعمالهم الصالحة، تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه.**

يقول تعالى: **{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ}** [(١٢٧) سورة الأنعام] إضافة الدار إلى السلام هنا يحتمل أن يكون المراد بالسلام أي: الله -تبارك وتعالى- فتكون الإضافة إلى السلام يعني لهم دار الله التي بناها لأوليائه وعباده المتقين، فهذا تحتمله الآية؛ لأن الله هو السلام، وهذا القول اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ويحتمل أن يكون المراد بالسلام التحية، فتحية أهل الجنة السلام، كما قال الله -عز وجل-: **{تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ}** [(٢٣) سورة إبراهيم] ويشمل المعاني الثلاثة التي ذكرها السلف، أي: أن الله يحييهم بذلك كما قال تعالى: **{سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ}** [(٥٨) سورة يــــس] والملائكة تحييهم بهذا كما قال تعالى: **{وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ}** [(٢٤) سورة الرعد] وكذلك يحيي بعضهم بعضاً كما قال تعالى: **{تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ}** [(٤٤) سورة الأحزاب] فيحتمل هذه المعاني الثلاثة وكلها حق، فعلى هذا تكون الإضافة في قوله: **{دَارُ السَّلاَمِ}** باعتبار تحية أهل الجنة.

والمعنى الثالث هو أن المراد السلامة من الآفات، وهذا المعنى هو الأقرب، فالجنة هي دار النعيم المقيم الذي لا تنغيص فيه، ولهم فيها المقام الكريم، فلا يجدون فيها شيئاً من المنغصات التي يجدها أهل الدنيا في دورهم ومساكنهم، كما أن هذه المعاني الثلاثة التي ذكروها متلازمة كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-، فمعنى السلام من أسماء الله -عز وجل- السالم من كل عيب ونقص وآفة، وهو الذي سلم عباده من أن يظلمهم، وهو الذي يسلمهم أيضاً من الآفات، وما أشبه ذلك، ولذلك إنما تطلب السلامة منه -سبحانه وتعالى-.

والسلام في التحية حينما تقول: السلام عليكم، هل المراد به أنك تلقي الاسم الكريم على هؤلاء الذين حييتهم بذلك؟ هذا يكون من قبيل الخبر وهو محتمل، ويحتمل أن يكون من باب الدعاء.

وأذكر لابن القيم -رحمه الله- كلاماً في هذا المعنى جمع فيه هذه الأشياء جميعاً، في التحية بالسلام، وذكر أنها معانٍ متلازمة وفصّل في هذا تفصيلاً حسناً.

والخلاصة أن قوله: **{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ}** [(١٢٧) سورة الأنعام] يمكن أن يكون معناه: لهم دار السلامة من الآفات، على أنه لا منافاة بين هذا المعنى والمعاني الأخرى بل بين هذه المعاني ملازَمة، باعتبار أن السلام سواء نظرت إليه باعتبار أنه من أسماء الله أو باعتبار التحية أو باعتبار السلامة فإن معناه السلامة من الآفات الحسية والمعنوية، ولذلك فإن الله -عز وجل- حينما يذكر الجنة يذكر الخلود معها غالباً؛ لأن الموت هو الذي ينغص على الإنسان لذته وراحته وسعادته، فمهما كان المكان الذي يقيم فيه مليئاً بالحبور والسعة والنعيم والراحة إلا أنه إذا تذكر الموت تنغص عليه ذلك، فالجنة لا يوجد فيها مثل هذا التنغيص بل هي مقام كريم، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٨)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [(١٢٨) سورة الأنعام].

يقول تعالى: واذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ} أي: ثم يقول: يا معشر الجن، وسياق الكلام يدل على المحذوف، ومعنى قوله: {قد استكثرتم من الإنس} أي: من إغوائهم وإضلالهم، كقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [(٦٠-٦٢) سورة يــس].

{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} [(١٢٨) سورة الأنعام] يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا.

قال الحسن: وما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرتْ وعملِت الإنس، وقال ابن جريج: كان الرجل في الجاهلية ينزل الأرض فيقول: أعوذ بكبير هذا الوادي، فذلك استمتاعهم، فاعتذروا به يوم القيامة، وأما استمتاع الجن بالإنس فإنه كان فيما ذكر ما ينال الجن من الإنس من تعظيمهم إياهم باستعانتهم بهم، فيقولون: قد سدنا الإنس والجن {وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] قال السدي: يعني الموت.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: {رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ} يشمل كل ما قاله السلف -رضي الله تعالى عنهم-، فاستمتاع الإنس بالجن له صور متعددة، والذي ذكره السلف -رضي الله عنهم- إنما هو من قبيل المثال، ومن ذلك أن الإنس يتحقق لهم بعض ما يطلبون عن طريق الجن -كالسحر الذي يتم عن طريق الشياطين، وكذلك ما يحصل للكهان من الأخبار الغيبية التي تأتي عن طريق استراق السمع فيضللون بها الناس ويلقون لهم أشياء من الأمور الغيبية التي يبحث عنها هؤلاء الناس.

ومن ذلك ما يحصل لهم من الانتفاع عن طريق تحصيل الضالة بتصرفات تقع من المشعوذين والدجالين الذين يستعينون بالشياطين.

ومن ذلك ما يحصل لهم من أنواع من الانتفاع المحرم من خلال ما يحصل من سرقات للأموال عن طريق الجن فيعطونها لأوليائهم، ومن ذلك ما يتوهمونه أيضاً من الحماية حيث إنهم إذا نزلوا وادياً قالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي، ومن ذلك ما يظنون أنهم يتداوون به.

وأما استمتاع الجن بالإنس فهذا أيضاً يقع على صور كثيرة، منها أنهم قد يذبحون لهم ويعظمونهم ويستعيذون بهم إلى غير ذلك مما يبذله الإنس للجن والشياطين، فيحصل لهم التذاذٌ بسبب ذلك، ويتعاظمون به ويحصل لهؤلاء الجن بسبب هذا بعض الانتفاع المحرم.

وعلى كل حال فإنهم يقولون: **{رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] قال الحسن: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرتْ وعمِلت الإنس، يعني عملت بما زينه لهم الجن –هذا أحد المعاني الداخلة فيه– بمعنى أن الشياطين يضلون الناس ويزيِّنون لهم الباطل والمنكر فيعمل به من شاء الله، فيحصل للشياطين التذاذٌ وفرح بإغوائهم للناس.

وقوله: **{وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا}** [(١٢٨) سورة الأنعام] قال: يعني الموت، مع أنهم قالوا هذا الكلام في اليوم الآخر، فيحتمل أن يكون الموت؛ لأن هذا الصراع وهذا الالتذاذ وهذا الإغواء كله يحصل في الحياة الدنيا فينتهي بموت الإنسان.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: **{وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا}** [(١٢٨) سورة الأنعام] هو المشار بقوله –تبارك وتعالى–: **{ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ}** [(٢) سورة الأنعام] فالأجل الأول هو الموت، والأجل الثاني هو البعث، وهذا اختاره ابن القيم –رحمه الله– أي: **{وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا}** بالموت وبالأجل الآخر الذي وقفنا فيه بين يديك للحساب، وهو أجل البعث.

وقولهم: **{رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا}** [(١٢٨) سورة الأنعام] يعنون أن ذلك الاستمتاع والاستلذاذ الذي وقع منهم قد انتهى، وقد يفهم من أسلوبهم هذا في الخطاب أنهم أرادوا استجلاب الرحمة كما قد يعبر عنه في كلام الناس بالاستعطاف، فهم يقولون إنما كان ذلك في وقت ثم تصرمّ وزال وصار خبراً بعد عين، والآن قد صرنا إلى هذه الحال بعيداً عن هذا الالتذاذ الذي تصرمّ وانقطع فلم يبقَ له أثر، فكأنهم يقولون: هذا الكفر كان في مدة محددة وقد مضت وانتهت فتجاوزْ عنا، وهذا ما فهمه ابن القيم –رحمه الله– والآية تحتمل هذا، والله أعلم.

{قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ} [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم {خَالِدِينَ فِيهَا} [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: ماكثين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله.

من أهل العلم من قال في قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام]: إن المستثنى هنا هو مدة الحشر من القبور والحساب، وبعضهم –ككبير المفسرين ابن جرير الطبري –رحمه الله– يقول: **{خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] أي: إلا مدة بقائهم في القبور إلى مصيرهم إلى جهنم، يعني ما بين الموت ودخول النار، وبعضهم يقول غير هذا، لكن هذه التأويلات لا تخلو من تكلف وبُعد؛ لأن الله –عز وجل– يخبر عن بقائهم في النار فيقول: **{خَالِدِينَ فِيهَا}** [(١٢٨) سورة الأنعام] يعني إذا دخلوها، فهم يبقون فيها أبداً بلا انقضاء كما قال الله –عز وجل–: **{وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ}** [(٧٧) سورة

الزخرف] وأخبر أن عذابهم لا يفتّر عنهم، وأنهم لا يموتون ولا يخفف عنهم من عذاب النار فقال تعالى: **{لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ}** [(٧٥) سورة الزخرف] وقال تعالى: **{لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا}** [(٣٦) سورة فاطر] وقال: **{وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}** [(١٦٧) سورة البقرة] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على الخلود.

فقوله تعالى: **{إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] أظهرُ الوجوه في تفسيره -والله تعالى أعلم- أن هذا التعليق على المشيئة إنما هو من قبيل التعليق على المشيئة في الأمر المتحقق دون أن يراد به مطلق التعليق، يعني هذا الاستثناء **{إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] على وجه التحقيق لا على وجه التعليق، ومعنى على وجه التحقيق يعني في الأمر الذي يكون قطعاً لكن تذكر المشيئة؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئة الله -عز وجل- كقوله -تبارك وتعالى-: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ}** [(٢٧) سورة الفتح] فهم داخلوه قطعاً ومع ذلك علقه على المشيئة.

والله -عز وجل- لما ذكر خلودهم في النار في سورة هود قال: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ}** [(١٠٧) سورة هود]، ولما ذكر خلود أهل الجنة قال: **{خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ}** [(١٠٨) سورة هود] فهذه الآية مثل هاتين الآيتين حيث ذكر فيهما الاستثناء في حق أهل الجنة وحق أهل النار مما يبيّن ويوضح أن الاستثناء هنا ليس المراد به -بحال من الأحوال- أن أهل النار يخرجون منها في وقت من الأوقات كما قد يفهمه من شذَّ في فهم مثل هذه النصوص.

وقد جاءت روايات أن النار تفنى وأنه ينبت على شفيرها أو على نواحيها أو جوانبها أو فيها ينبت الجرجير، وما أشبه ذلك، وهذه الروايات كلها لا تصح بحال من الأحوال، لذلك يقال: هذا الاستثناء كالاستثناء في نعيم أهل الجنة الذي لا ينقطع وكالاستثناء في قوله تعالى: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ}** [(٢٧) سورة الفتح]، ثم إن الأدلة كلها تدل على أن أهل النار لا يخرجون منها بحال من الأحوال، ولذلك يقال -والله تعالى أعلم-: إن الاستثناء هنا إنما هو من باب التحقيق، أي علق ذلك على مشيئة الله -عز وجل-؛ لأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته وليس المراد التعليق المطلق الذي قد يفهم منه أنهم قد يخرجون وأن عذاب أهل النار يفنى وينقطع.

وأما التأويلات التي ذكرها بعض أهل العلم في الاستثناء أنه مدة الحساب أو من الموت إلى دخولهم النار، هذه تأويلات بعيدة؛ لأن قوله: **{خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ}** [(١٢٨) سورة الأنعام] هو كلام عن بقائهم في النار فإذا قلنا: إن المقصود بالاستثناء أي من الموت إلى كذا أو أنه البقاء في القبور فإنهم ما دخلوا النار بعد، فكيف يكون ذلك مستثنى من خلودهم فيها؟ هذا لا يصح أن يقال، والله تعالى أعلم.

{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] وقال معمر عن قتادة في تفسير الآية: يولِّي الله بعض الظالمين بعضاً في النار، يتبع بعضهم بعضاً، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] قال: ظالمي الجن

وظالمي الإنس، وقرأ: {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ} [(٣٦) سورة الزخرف] قال: ونسلط ظلَمة الجن على ظلَمة الإنس.

القول الأول في تفسير قوله: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}** [(١٢٩) سورة الأنعام] هو رواية معمر عن قتادة: يولِّي الله بعض الظالمين بعضاً في النار يعني يتبع بعضهم بعضاً، أي يلي بعضهم بعضاً في الدخول إلى النار فكلما جاءت دفعة فدخلت النار جاءت الثانية بعدها والثالثة والرابعة وهكذا يدخلون النار دخولاً متتابعاً كما قال تعالى: **{كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاَهُمْ}** [(٣٨) سورة الأعراف] وهذا –والله تعالى أعلم– خلاف الظاهر المتبادر من الكلام.

والقول الثاني –وهو الأقرب– هو رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال: ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس، يعني نسلط بعضهم على بعض **{جَزَاء وِفَاقًا}** [(٢٦) سورة النبأ] أي: أن الله يعاقبهم في الدنيا بأن يأتي للظالم من هو أظلم منه فيتسلط عليه.

وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يد الله فوقها ... ولا ظالم إلا سيُبلى بظالم

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض ونهلك بعضهم ببعض، وننتقم من بعضهم ببعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.

ابن الزبير –رضي الله عنه– حينما كان في أيام إمارته بلغه خبر عمرو بن سعيد بن العاص الذي يلقب بالأشدق وقد كان معروفاً بأنه ظالم جبار حيث كان يرسل الجيوش من المدينة إلى مكة لقتال ابن الزبير، حتى ذَكر له بعضُ الصحابة حديثَ حرمة مكة فقال: نحن أعلم بهذا منك، وكان عبد الملك بن مروان قد وعد عمرًا هذا بالخلافة من بعده، لكن عبد الملك بن مروان لما تمكن جعل الأمر لأربعة من أبنائه، فلما خرج عبد الملك من دمشق يريد قتال مصعب بن الزبير وضع الأشدق يده على دمشق وحصنها ووضع الرجال على القلاع وعلى الأسوار وأغلق الأبواب، فعلم عبد الملك بذلك فرجع وحاصر دمشق ثم انتهوا إلى صلح واتفاق، وهو أن يكتب عبد الملك لعمرو بن سعيد بن العاص كتاباً أنه هو الخليفة من بعده وأن لا يُمَس بسوء وأن لا يتعرض له، فدخل عبد الملك دمشق وبينما هو جالس بين بني مروان بعث للأشدق أن يأتي إليه، فقال له بعض أصحابه: لا تذهب إليه، قال: وماذا عسى أن يصنع؟ –قالها؛ لأنه جبار لا يبالي!– فلبس درعاً تحت ثيابه وذهب مع خادمه ودخل عليه فلما رأى بني مروان قد اجتمعوا كأنه توجس الغدر، فقال لخادمه: اذهب إلى أخي وقل له يحضر، ثم تقدم وقال له: مرحباً، فقال له عبد الملك: تعال، فأجلسه عنده، ثم قال: إني قد نذرت نذراً أني إن تمكنت منك أن أضعك في كيس وأن أقبض مجامعه بيدي، قال له: اتق الله؛ لقد أعطيتني عهداً، فقال من حضر من بني مروان نحن شهود على ذلك لكن هذا نذر أمير المؤمنين ماذا عليك أن يفي بنذره، فأخرج عبد الملك الكيس من تحت سريره وبسطه فأدخله فيه فلما شده تلَّه تلَّةً فضربت ثنيته بالسرير فانكسرت، فقال له عمرو وهو في الكيس: اتق الله يا أمير المؤمنين، لا يحملنك زهوق عضو مني على إزهاق نفسي، ثم أُذِّن للصلاة فبدأ الناس يطرقون الباب، وعهد عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز بن

مروان –والد عمر بن عبد العزيز– وهو أخوه لأبيه عهد به إليه ليقتله ويخرج هو إلى الصلاة، فقال له الأشدق: دع قتلي بيد غيرك –لما بينه وبينه من الرحم–، فتركه، فدخل عبد الملك بن مروان ووجده لم يُقتل، فعيَّر عبد العزيز بأمه، وأخذ الرمح وضرب بها الأشدق، فما نفذت فيه، فقال: ودارعٌ أيضاً، فأخذه وذبحه ذبحاً، ثم قال: ما رأيت طالب دنيا ولا طالب آخرة مثل هذا، يعني ما رأيت أحداً من طلاب الدنيا ولا من طلاب الآخرة مثل هذا في بأسه وشدته.

المهم أن ابن الزبير بلغه الخبر وهو في مكة، فقال على المنبر يلمز عبد الملك بن مروان: إن فلاناً قد قتل فم الذئاب –يعني الأشدق– وقرأ قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}** [(١٢٩) سورة الأنعام] أي أنه استشهد بهذه الآية على تسليط الظالم على الظالم.

والآية تحتمل معنى ثالثاً: هو أن ذلك من الولاية، بمعنى أن قوله: **{نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}** أي: يكونون أولياء بعض، كما قال الله –عز وجل– عن المؤمنين: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}** [(٧١) سورة التوبة] وقال عن المنافقين: **{الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ}** [(٦٧) سورة التوبة] وقال عن الكافرين من اليهود والنصارى: **{بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ}** [(٥١) سورة المائدة] فالله –تبارك وتعالى– قال قبل هذه الآية: **{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا}** [(١٢٨) سورة الأنعام] ثم قال: **{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا}** [(١٢٩) سورة الأنعام] أي: يكونون أولياء لبعض يتناصرون على باطلهم، وما أشبه ذلك، وهذا المعنى اختاره كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– بقرينة الآية التي قبلها **{وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ}** ولكن السياق قد يشعر بغير هذا والله تعالى أعلم، وذلك أن الله –عز وجل– قال: **{وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَليمٌ* وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}** [(١٢٨-١٢٩) سورة الأنعام] فالباء للسببية والتعليل في قوله: **{بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ}** فكأن ذلك من باب أن الله يسلط بعضهم على بعضهم بكسبهم السيئ وعلمهم السيئ، وعلى قول ابن جرير يعني بأعمالهم السيئة صار بينهم مجانسة وصار بعضهم ولي لبعض، لكن التعليل قد يكون أدل على المعنى الذي قبله وهو تسليط بعض الظالمين على بعض، والله أعلم.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(١٣٠) سورة الأنعام]، **وهذا أيضاً مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة، حيث يسألهم –وهو أعلم–: هل بلغتهم الرسل رسالاته؟ وهذا استفهام تقرير.**

قد يكون الكلام فيه مقدر محذوف يعلم من السياق، فذلك جائز كما قال ابن مالك:

وحذف ما يعلم جائز كما ... تقول زيدٌ بعدَ من عندكما

يعني يكون الكلام في قوله: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ}** [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: يوم نحشرهم نقول لهم: **{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ}** [(١٣٠) سورة الأنعام].

ويحتمل أن يكون هذا شروعاً في حكاية ما سيكون في المحشر، أي أنه انتهى من القضية الأولى التي في قوله: {وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [(١٢٩) سورة الأنعام] ثم شرع في ذكر ما يحصل في المحشر من سؤالهم سؤال تبكيت ليقروا على أنفسهم بالظلم والتمرد والعتو على الله -عز وجل-.

{يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي من جملتكم، والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل.

يقول تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} [(١٣٠) سورة الأنعام] يعني من مجموعكم الصادق على الإنس، أي يكون ذلك في بعضهم من الإنس، وأما الجن فليس منهم رسل بل منهم نُذُر كما قال تعالى: {وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} [(٢٩) سورة الأحقاف].

وبعض أهل العلم يقول: {رُسُلٌ مِّنكُمْ} أي: ممن هو مجانس لكم في الأمور المشتركة كالخلق والتكليف وتوجه الخطاب إليهم، فالجن مكلفون بهذا الخطاب، ومتعبدون لله -عز وجل- بالشرائع، فقوله: {يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ} يعني من جملة أهل التكليف ممن يتوجه إليهم الخطاب.

وربما يكون هذا من باب التغليب، يعني غُلِّب الإنس على الجن كما يُغلَّب الرجال على النساء في الذكر.

وبعضهم يقول: إن المراد بالرسل في قوله: {رُسُلٌ مِّنكُمْ} رسل من الإنس ورسل من الجن، فالرسل من الإنس هم الذين يوحي الله -عز وجل- إليهم ويشرفهم بالنبوة ويرسلهم إلى قومهم، والرسل من الجن هم النُّذر الذين يسمعون الحق كما سمعوه من النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم يذهبون إلى قومهم فينذرونهم، فيصدق عليهم بهذا الاعتبار أنهم رسل، لكن ليس الله هو الذي أرسلهم وإنما جاءوا إلى قومهم يدعونهم ويحثونهم على الإيمان الذي عرفوه من رسل الله، والله تعالى أعلم.

والرسل من الإنس فقط وليس من الجن رسل، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف.

والدليل على أن الرسل إنما هم من الإنس قوله تعالى: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ} [(١٦٣) سورة النساء] إلى قوله: {رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} [(١٦٥) سورة النساء].

أول الرسل نوح -عليه الصلاة والسلام- وجميع الذين أرسلهم الله تعالى بعده -عليهم الصلاة والسلام- ليس فيهم أحد من الجن.

وقوله تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: {وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ} [(٢٧) سورة العنكبوت] فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس: إن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم الخليل ثم انقطعت عنهم ببعثته.

وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ} [(٢٠) سورة الفرقان] وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى} [(١٠٩) سورة يوسف].

ومعلوم أن الجن تبع للإنس في هذا الباب، ولهذا قال تعالى إخباراً عنهم: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا

كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَولِيَاء أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [(٢٩-٣٢) سورة الأحقاف].

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تلا عليهم سورة الرحمن، وفيها قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ* فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} [(٣١-٣٢) سورة الرحمن] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك وأنذرونا لقاءك، وأن هذا اليوم كائن لا محالة.

وقال تعالى: {وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات؛ لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها.

{وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ} أي: يوم القيامة {أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: في الدنيا بما جاءتهم به الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-.

يقول الله تعالى: {وَيَوْمَ يِحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام] في هذه الآية دليل على أن الكفار من الجن يدخلون النار ويعذبون فيها كالكفار من الإنس، قال تعالى: {قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ} [(١٢٨) سورة الأنعام] يعني الكفار من الجن والإنس، وأما دخول المؤمنين من الجن الجنة فالذي عليه الجماهير من السلف والخلف أن المحسن منهم والمؤمن يدخل الجنة أيضاً.

ومن أهل العلم من قال: إن الجن لا يدخلون الجنة وإنما يكون جزاؤهم النجاة من العذاب، واستدلوا بقوله -تبارك وتعالى-: {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [(٣١) سورة الأحقاف] أي أنه لم يذكر دخولهم الجنة، لكن ليس بلازم أن يذكر في المقام الواحد جميع ما يترتب على الإيمان والعمل الصالح، بل اكتفى بذكر بعض الأمور المترتبة على إيمانهم، ولهذا فإننا نقول: إن الجن المؤمنين يدخلون الجنة كالإنس فهم مكلّفون ومتعبدون بالشرائع، وبعد مبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- كل الجن متوجه إليهم خطاب الشارع الذي يخاطب به الإنس في الجملة، وهم متعبدون بالقرآن تلاوة وعملاً وتحاكماً وما أشبه ذلك، فهم تبع للإنس في مثل هذه الأمور وحتى في السنة وما يتعلق بها، فأهل السنة منهم يعملون ويشرحون القرآن ويفهمونه بما ورد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من السنة الشارحة المبينة له، وهذه الكتب مثل الكتب الستة، والكتب المعتمدة عند المسلمين، هي معروفة لديهم ويقرءون بها ويحفظون منها كالإنس، فهم تبع للإنس في مثل هذه القضايا وإن كانت توجد فروقات في الخلق وفي بعض التفصيلات أو الجزئيات وما أشبه ذلك، لكن يبقى أنهم متعبدون مكلفون كالإنس، وفيهم الطوائف من الرافضة والزيدية والمعتزلة والخوراج وغيرهم من أهل الأهواء قديماً وحديثاً كالإنس، وفيهم المتلبس بالشهوات وفيهم الطيب والرديء والصالح والفاسد، والله المستعان.

{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ* وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٣١-١٣٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ} أي: إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لئلا يؤاخذ أحدٌ بظلمه وهو لم تبلغه دعوة.

اسم الإشارة **{ذَلِكَ}** في قوله: **{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى}** يقول ابن كثير: "**أي إنما أعذرنا بإرسال الرسل للناس إلى الثقلين وإنزال الكتب؛ لئلا يؤاخذ أحد بظلمه**" أي أن اسم الإشارة يعود إلى الإعذار بإرسال الرسل.

وبعض أهل العلم يقول: إن قوله: **{ذَلِكَ}** يرجع إلى شهادتهم على أنفسهم، يقول: **{قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ* ذَلِكَ}** [(١٣٠) سورة الأنعام] أي: شهادة هؤلاء على أنفسهم **{أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}** [(١٣١) سورة الأنعام] يعني هؤلاء أقروا على أنفسهم واعترفوا، والاعتراف هو سيد الأدلة، فالله لم يكن ليهلك المكذبين والظالمين بظلم وأهلها غافلون.

قال الحافظ ابن كثير: "**لئلا يؤاخذ أحد بظلمه وهو لم تبلغه الدعوة**" هذا تفسير لقوله: **{بِظُلْمٍ}** في قوله: **{ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ}** [(١٣١) سورة الأنعام] أي بظلم منه لهم بأن يأخذهم ويعذبهم ولم يبعث إليهم رسولاً ولم ينزل عليهم كتاباً فيكون ظالماً لهم بتعذيبهم، إنما يكون الإعذار بالإنذار وإرسال الرسل وإنزال الكتب وبيان ما يجب عليهم، فإذا تركوا ذلك كانوا مستحقين للعقوبة، فيكون على هذا المعنى الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله-: **{لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}** [(١٣١) سورة الأنعام] يعني بظلم منه فيكون ظالماً لهم.

وهناك احتمال آخر وهو أن قوله: **{بِظُلْمٍ}** يعني بظلم منهم، أي: أن الله -عز وجل- لم يكن ليأخذهم بظلم صادر منهم -وهو الشرك كما قال تعالى: **{إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}** [(١٣) سورة لقمان]- حتى يبعث فيهم رسولاً، وبعبارة أخرى: ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم صادر منهم وأهلها غافلون لم تأتهم الرسل، ومن هنا يتبين الفرق بين المعنيين، فعلى المعنى الأول الظلم المنفي صادر من الله -عز وجل- أي لا يعذبهم وهو ظالم لهم حيث لم يرسل لهم رسولاً.

والمعنى الثاني أن الله لم يكن ليعذبهم بظلمهم الذي هو بمعنى الإشراك والكفر وهم غافلون لم يأتهم رسل يبينون لهم ما هم عليه من الباطل، بل إنه يبعث إليهم الرسل ويحصل لهم التذكير والتنبيه أولاً.

والمعنى الأول لعله هو المتبادر وهو الأقرب -وهو الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله تعالى- وهو الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- واحتج عليه ببعض الآيات كقوله -تبارك وتعالى-: **{وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً}** [(١٥) سورة الإسراء] وقوله تعالى: **{رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}** [(١٦٥) سورة النساء]، والله أعلم.

ولكن أعذرنا إلى الأمم وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم، كما قال تعالى: {وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [(٢٤) سورة فاطر] وقال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ} [(٣٦) سورة النحل] كقوله: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً} [(١٥) سورة الإسراء] وقال تعالى: {كُلَّمَا أُلْقِيَ

فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ* قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا} [(٨-٩) سورة الملك] **والآيات في هذا كثيرة.**

قال: وقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ} [(١٣٢) سورة الأنعام] **أي: ولكل عامل في طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها، ويثيبه بها.**

هذه الآية كقوله تعالى في الآية الأخرى في الأحقاف: **{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}** [(١٩) سورة الأحقاف].

إن خيراً فخير وإن شراً فشر، قلت: ويحتمل أن يعود قوله: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا} [(١٣٢) سورة الأنعام] **أي: من كافري الجن والإنس، أي: ولكل درجة في النار بحسبه، كقوله: {قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ}** [(٣٨) سورة الأعراف] **وقوله: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ}** [(٨٨) سورة النحل].

{وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [(١٣٢) سورة الأنعام] **قال ابن جرير: أي: وكل ذلك من عملهم يا محمد، بعلم من ربك، يحصيها ويثبتها لهم عنده، ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه.**

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (١٩)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- عند تفسير قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ* إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ* قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(١٣٣-١٣٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَرَبُّكَ} يا محمد {الْغَنِيُّ} أي: عن جميع خلقه من جميع الوجوه، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، {ذُو الرَّحْمَةِ} أي: وهو مع ذلك رحيم بهم، كما قال تعالى: {إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٣) سورة البقرة].

{إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أي: إذا خالفتم أمره {وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاء} أي: قوماً آخرين، أي يعملون بطاعته، {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} أي: هو قادر على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين كما قال تعالى: {إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [(١٣٣) سورة النساء] وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ* إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ* وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [(١٥-١٧) سورة فاطر].

بسم الله الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي قوله -تبارك وتعالى-: **{كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}** [(١٣٣) سورة الأنعام] يقول الحافظ -رحمه الله-: "أي: **هو قادر على ذلك، سهل عليه يسير لديه، كما أذهب القرون الأول وأتى بالذي بعدها، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والإتيان بآخرين**" يعني جاء بكم فأحدثكم وابتدعكم وأنشأكم وأوجدكم من نسل خلق آخرين كانوا قبلكم هلكوا أو أهلكهم الله -تبارك وتعالى- فهو قادر على إذهابكم كما أذهبهم.

وقوله تعالى: **{ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}** [(١٣٣) سورة الأنعام] أي من نسلهم، فالذرية تطلق على النسل، وقد تأتي بمعنى الآباء والأجداد ولذلك فإن بعضهم ربما يفسر هذه الآية بهذا، ويظهر هذا المعنى في أحد الأوجه المشهورة في تفسير قوله -تبارك وتعالى-: **{وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ}** [(٤١) سورة يـــــس].

ومعلوم أن الذين حملوا في الفلك هم آباء المخاطبين الذين خاطبهم القرآن بهذا من قريش أو العرب أو كل من يتوجه إليه الخطاب باعتبار أن المقصود بالفلك المشحون سفينة نوح -عليه الصلاة والسلام-، وعلى هذا المعنى يكون المراد بالذرية الآباء والأجداد، وهذا جواب للإشكال الذي قد يرد في هذه الآية، وإن كان بعض

أهل العلم قال: إن الفلك المشحون في الآية ليس المقصود به سفينة نوح، وإنما المقصود به السفن التي يحملون عليها، وينتقلون فيها من محل إلى آخر.

والخلاصة أن الذرية في كلام العرب تطلق على ما تناسل من الإنسان وتطلق على ما تناسل منه الإنسان من الآباء والأجداد، فقوله تعالى: {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [(١٣٣) سورة الأنعام] أي: من نسلهم.

قال تعالى: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [(٣٨) سورة محمد] وقال محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة قال: سمعت أبان بن عثمان يقول في هذه الآية: {كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ} [(١٣٣) سورة الأنعام] الذرية الأصل، والذرية النسل.

يقول: "**الذرية الأصل والذرية النسل**" هذا عن أبان بن عثمان في زمن الاحتجاج، فهي بهذا الاعتبار تطلق على المعنيين المتقابلين الذي يسمونه "الأضداد"، فالأضداد هي الكلمات التي تطلق على معانٍ وعلى ما يقابل تلك المعاني مثل: "عسعس" بمعنى أقبل وأدبر، والقرء بمعنى الطهر والحيض، وهكذا.

وقوله تعالى: {إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [(١٣٤) سورة الأنعام] أي: أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة.

{وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ} [(١٣٤) سورة الأنعام] أي ولا تعجزون الله بل هو قادر على إعادتكم، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً، هو قادر لا يعجزه شيء.

وقوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [(١٣٥) سورة الأنعام] هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي، كقوله: {وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ* وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٢٢) سورة هود].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {عَلَى مَكَانَتِكُمْ} ناحيتكم، {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [(١٣٥) سورة الأنعام] أي: أتكون لي أو لكم.. وقد أنجز الله موعده لرسوله -صلوات الله عليه- أي فإنه تعالى مكنه في البلاد وحكَّمَه في نواصي مخالفيه من العباد، وفتح له مكة وأظهره على من كذبه من قومه وعاداه وناوأه، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب، وكذلك اليمن والبحرين وكل ذلك في حياته، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- كما قال الله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} [(٢١) سورة المجادلة] وقال: {إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ* يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [(٥١-٥٢) سورة غافر] وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [(١٠٥) سورة الأنبياء].

{وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(١٣٦) سورة الأنعام] هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً وكفراً وشركاً وجعلوا لله جزءاً من خلقه وهو خالق كل شيء

-سبحانه وتعالى- ولهذا قال تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ} أي: مما خلق وبرأ {مِنَ الْحَرْثِ} أي: من الزرع والثمار {وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} أي: جزءاً وقسماً، {فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا} [(١٣٦) سورة الأنعام].

وقوله: {فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ} [(١٣٦) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال في تفسير هذه الآية: إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً وللوثن جزءاً، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه، وإن سقط منه شيء فيما سُمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله جعلوا ذلك للوثن، وإن سقط شيء من الحرث والثمر الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا: هذا فقير، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سُمي للوثن تركوه للوثن.

وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله، فقال الله تعالى: {وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا} الآية [(١٣٦) سورة الأنعام] وهكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وغير واحد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في الآية: كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ: {سَاء مَا يَحْكُمُونَ} [(١٣٦) سورة الأنعام] أي: ساء ما يقسمون فإنهم أخطئوا أولاً في القسمة؛ لأن الله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وخالقه، وله الملك وكل شيء له وفي تصرفه وتحت قدرته ومشيئته لا إله غيره ولا رب سواه، ثم لما قسموا -فيما زعموا- القسمة الفاسدة لم يحفظوها بل جاروا فيها، كقوله -جل وعلا-: {وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ} [(٥٧) سورة النحل] وقال تعالى: {وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ} [(١٥) سورة الزخرف] وقال تعالى: {أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى} [(٢١) سورة النجم] وقوله: {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} [(٢٢) سورة النجم].

{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١٣٧) سورة الأنعام].

يقول تعالى: وكما زينت الشياطين لهؤلاء أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الإملاق ووأد البنات خشية العار.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ} زينوا لهم قتل أولادهم وقال مجاهد: {شُرَكَآؤُهُمْ} شياطينهم يأمرونهم أن يئدوا أولادهم خشية العيلة.

هذا هو المتبادر من قوله: {شُرَكَآؤُهُمْ} أي أن شركاءهم من الشياطين هم الذين لبَّسوا عليهم وزينوا لهم قتل أولادهم، والله تعالى أعلم.

وبعضهم يقول: إن المراد بالشياطين في الآية هم السدنة والخدم الذين كانوا يخدمون الأوثان والأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله -عز وجل- بمعنى أنهم شياطين من الإنس، وبعضهم يقول: الشياطين هم الغواة

من الإنس الذين يضلونهم ويزينون لهم الباطل كما زين لهم عمرو بن لحي الخزاعي كثيراً من الأمور التي غيَّر بها دين إبراهيم –صلى الله عليه وسلم–.

والمقصود أن هؤلاء الشركاء زينوا لهم قتل الأولاد لفرط غيرتهم فصار للشيطان نصيب فيها، فقتلوا البنات من أجل حفظ الشرف ودفعاً للعار؛ لأنهم يخشون أن تفتقر البنت فتقارف ما لا يليق، وزينوا لهم قتل الأولاد مخافة الفقر؛ لأنهم ألقوا في قلوبهم أن رزقهم يقل وتصيبهم الحاجة إذا كثر أولادهم، فهذا كله من تزيين الشيطان، وإلا فإن الله –عز وجل– قال في الإسراء: **{نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم}** [(٣١) سورة الإسراء] وقال في الأنعام: **{نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ}** [(١٥١) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ}** هي قراءة الجمهور وفيها قراءة أخرى لابن عامر هكذا **(وكذلك زُيِّن لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلُ أَوْلاَدَهِمْ شركائهم)** بضم الزاي على البناء للمجهول والرفع في **(قتلُ)** باعتبار أنه نائب فاعل مع نصب **(أولادَهم)** مع أن المتبادر أن **(قتلُ)** مضاف و**(أولادِ)** مضاف إليه مجرور لكن في هذه القراءة لم يضفه إلى ما بعده باعتبار أنه فصل بين المضاف والمضاف إليه، أي أن المضاف إليه هو قوله: **(شركائهم)** ولذلك استشكل هذه القراءة كثير من أهل العلم، لكن القراءة سنة متبعة إذا ثبتت فلا يجوز أن ترد بقاعدة نحوية وإنما تؤخذ القواعد النحوية من القراءات، فمثل هذا يجوز في لغة العرب وإن كان في الاستعمال قليلاً، والله تعالى أعلم.

وقال السدي: أمرتهم الشياطين أن يقتلوا البنات إما {لِيُرْدُوهُمْ} فيهلكوهم وإما {لِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ} أي: فيخلطوا عليهم دينهم ونحو ذلك.

المشهور أنهم كانوا يقتلون البنات خشية العار لكن لم يكونوا يقتصرون على قتل البنات فقط بل قد يقتلون الأولاد أيضاً خشية الفقر، ويصح في كلام العرب أن يطلق اللفظ العام فيراد به بعض أفراده، وهذا يسمونه "العام المراد به الخصوص" فلو قلنا: إن المراد بقوله: **{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ}** [(١٤٠) سورة الأنعام] يعني البنات فقط فيكون ذلك من باب استعمال اللفظ العام –الأولاد– الذي أريد به الخصوص –البنات– أي أن استعمال ذلك يكون صحيحاً لا إشكال فيه.

قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ} [(١٣٧) سورة الأنعام] أي: كل هذا واقع بمشيئته تعالى وإرادته واختياره لذلك كوناً، وله الحكمة التامَّة في ذلك، فلا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

{فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} [(١٣٧) سورة الأنعام] أي: فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم.

{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(١٣٨) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس –رضي الله تعالى عنهما: الحِجْر: الحرام، مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا، وكذلك قال مجاهد والضحاك والسدي وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم.

الحِجْر هنا مصدر يراد به المفعول، فقوله تعالى: **{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ}** أي محجور، ويبيّن هذا الحجر ما ذُكر بعده وهو قوله: **{لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ}** [(١٣٨) سورة الأنعام] أي فليس لهم فيها

مطلق التصرف، بل منها ما يحجر على الأصنام في الحمل والركوب فلا يحمل عليه ولا يركب، ومنها ما حرموا أكله ودرَّه وما أشبه ذلك بحسب التفصيلات التي أملاها عليهم الشيطان.

قال ابن عباس: الحجر: الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا، يعني ما حرموه على أنفسهم لأصنامهم، أي جعلوا ذلك للأوثان والأصنام التي تعبد من دون الله -تبارك وتعالى-.

وقال قتادة: {وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ} [(١٣٨) سورة الأنعام] تحريمٌ كان عليهم من الشياطين في أموالهم، وتغليظ وتشديد، ولم يكن من الله تعالى، وقال ابن زيد بن أسلم: {حِجْرٌ} إنما احتجروها لآلهتهم، وقال السدي: {لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء بِزَعْمِهِمْ} [(١٣٨) سورة الأنعام] يقولون: حرام أن يطعم إلا من شئنا.

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللّهِ تَفْتَرُونَ} [(٥٩) سورة يونس] وكقوله تعالى: {مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ} [(١٠٣) سورة المائدة].

وقال السدي: أما الأنعام التي حُرِّمت ظهورها، فهي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وأما الأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها لا إذا ولدوها ولا إن نحروها.

وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبي النجود: قال لي أبو وائل: أتدري ما في قوله: {وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا}؟ [(١٣٨) سورة الأنعام] قلت: لا، قال: هي البحيرة كانوا لا يحجون عليها.

وقال مجاهد: كان من إبلهم طائفة لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شيء من شأنها لا إن ركبوا ولا إن حلبوا ولا إن حملوا ولا إن نتجوا، ولا إن عملوا شيئاً {افْتِرَاء عَلَيْهِ} [(١٣٨) سورة الأنعام] أي: على الله، وكذبهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه فإنه لم يأذن لهم في ذلك ولا رضيه منهم {سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} [(١٣٨) سورة الأنعام] أي: عليه، ويسندون إليه.

قوله تعالى: **{وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهَا}** [(١٣٨) سورة الأنعام] المتبادر أنهم لا يذكرون اسم الله عليها عند ذبحها أو نحرها وإنما يذكرون أسماء الأصنام والمعبودات من دون الله -تبارك وتعالى- وهذا لا يمنع أن يدخل فيه ما ذُكر من أنهم لا يذكرون اسم الله عليها في شأن من شئونهم باعتبار أنهم جعلوا هذه الأنعام لأصنامهم، والله أعلم.

{وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاء سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حِكِيمٌ عَلِيمٌ} [(١٣٩) سورة الأنعام].

قال أبو إسحاق السبيعي عن عبد الله بن أبي الهذيل عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] الآية، قال: اللبن.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] فهو اللبن كانوا يحرمونه على إناثهم ويشربه ذكرناهم، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه وكان للرجال دون النساء، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء، فنهى الله عن ذلك، وكذا قال السدي.

وقال الشعبي: البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء، وكذا قال عكرمة وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

التفصيلات في القضايا التي ذكرها الله تعالى بقوله: **{مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ}** [(١٠٣) سورة المائدة] لا تعرف إلا بمعرفة ما كان عليه أهل الجاهلية، وبالنسبة للمنقولات التي ذكرت عنهم ما كانوا يفعلونه في الجاهلية فهي مختلفة وليست متفقة؛ ولذلك فإن الجزم بأن هذا هو الذي كانوا عليه، أو أن هذا هو المراد بدقة، أمر صعب؛ لأنه يحتاج إلى معرفة هذه التفصيلات، وكذلك ما قد يذكر في بعض التفصيلات عند قوله: **{وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا}** [(١٣٩) سورة الأنعام] فالأنعام التي جعلوها لغير الله -عز وجل- هي الوصيلة والسائبة والبحيرة والحام، فما الذي في بطونها؟

المتبادر أن الذي في بطونها هي الأجنة، لكن هل كانوا يفرقون بين المولود الذكر والمولود الأنثى؟ هذا لم يرد في الآية وإنما ذكر في جملة ما ذكر من أخبارهم، فالله تعالى أعلم.

وهل قولنا: إن الذي في بطونها هي الأجنة ينفي قول من قال: إنه اللبن أم أن هذا من جملة ما يدخل فيه، ويكون هذا من قبيل التفسير بالمثال؟

قد يكون كذلك، ولهذا فإن ابن جرير -رحمه الله- حمل ذلك على ما يصدق عليه أنه داخل في هذا الإطلاق، ويقول: إن الله -عز وجل- لم يخص نوعاً دون نوع ولا شيئاً دون شيء، فيدخل فيه الأجنة ويدخل فيه اللبن.

وقال مجاهد في قوله: {وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} [(١٣٩) سورة الأنعام] قال: هي السائبة والبحيرة.

في قوله: **{وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا}** [(١٣٩) سورة الأنعام] هل يقصدون بهذا أنه يحرم على الزوجة فقط أم المقصود جملة النساء؟

المقصود أنه محرم على النساء؛ لأن الزوجة هي بنت بالنسبة لأبيها، وهي أم بالنسبة لأولادها، وهي أخت بالنسبة لأخيها وهكذا، فالأزواج في كلامهم -كما يقول ابن جرير وكما هو معروف في كلام العرب- المقصود به نساؤهم، فليس المراد أنهم يحصرون ذلك التحريم على الزوجة فقط، بل المقصود جملة النساء، والله أعلم.

وقال أبو العالية ومجاهد وقتادة في قول الله: {سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ} [(١٣٩) سورة الأنعام] أي: قولهم الكذب في ذلك، يعني كقوله تعالى: {وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ} الآية [(١١٦-١١٧) سورة النحل].

في قوله تعالى: **{سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ}** [(١٣٩) سورة الأنعام] بعضهم يقول: هذا على نزع الخافض، أي: سيجزيهم بوصفهم، وبعضهم يقول: فيه مقدر محذوف هكذا: سيجزيهم جزاء وصفهم، والوصف هذا هو الكذب والافتراء على الله -تبارك وتعالى- والقول عليه بلا علم، وسيجزيهم بهذا العمل وبهذا الافتراء الذي افتروه عليه.

{إِنَّهُ حكِيمٌ} أي: في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره {عَلِيمٌ} [(١٣٩) سورة الأنعام] بأعمال عباده من خير وشر، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٤٠) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {قَدْ خَسِرَ} الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرَّموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم، كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ* مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} [(٦٩-٧٠) سورة يونس].

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: إذا سرَّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام {قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} [(١٤٠) سورة الأنعام] وهكذا رواه البخاري منفرداً في كتاب مناقب قريش من صحيحه[1].

{وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ* وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٤١-١٤٢) سورة الأنعام].

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرَّف فيها هؤلاء المشركون بآرائهم الفاسدة، وقسموها وجزَّءوها فجعلوا منها حراماً وحلالاً، فقال: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَعْرُوشَاتٍ} مسموكات، وفي رواية: فالمعروشات ما عرش الناس، {وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} ما خرج في البر والجبال من الثمرات.

على هذه الرواية: "**فالمعروشات ما عرش الناس**" يعني ما زرعه الناس، وغير المعروشات يعني ما يخرج في البراري ونحو ذلك من غير زرع الإنسان، وهذا هو المعنى الأول.

وبعض أهل العلم حمل المعروشات على ما ينفرش سواء رفع أو لم يرفع كالعنب والبطيخ وما أشبه ذلك من الأشجار التي تنفرش على الأرض، وغير المعروشات يعني التي تقوم على ساق كالنخيل وسائر الأشجار التي تقوم على سوقها.

لكن المتبادر -والله تعالى أعلم- أن المعروشات هي ما يوضع له ما يقوم عليه مما يعرش، كما قال الله -عز وجل- في النحل: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ} [(٦٨) سورة النحل] يعني يبنون بحيث يجعلون لها السقف وما تمتد فروعها عليه بحيث تكون مرتفعة، وغير

[1] - أخرجه البخاري في كتاب المناقب - باب قصة زمزم وجهل العرب (٣٣٣٤) (ج ٣ / ص ١٢٩٧).

المعروشات ما ليس كذلك والله تعالى أعلم، أي أن ما يخرج من الأشجار يكون على نوعين كل واحد منهما يحصل به الامتنان وتتجلى فيه عظمة الله -عز وجل- وبديع خلقه.

وقال عطاء الخرساني عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {مَّعْرُوشَاتٍ} ما عرش من الكرم {وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [(١٤١) سورة الأنعام] ما لم يعرش من الكرم، وكذا قال السدي.

وقال ابن جريج: {مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال: متشابهاً في المنظر وغير متشابه في المطعم، وقال محمد بن كعب: {كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال: من رطبه وعنبه.

وقوله تعالى: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال مجاهد: إذا حضرك المساكين طرحت لهم منه، وروى عبد الرزاق عن مجاهد: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال: عند الزرع يعطي القبضة وعند الصِّرام يعطي القبضة ويتركهم فيتبعون آثار الصِّرام.

آثار الصرام يعرف باللقاط، والمعنى أن الفقراء يأتون ويلتقطون ما تساقط من الحب بعد الحصاد، وهذا كان معروفاً عندهم، وفي ترجمة الإمام أحمد أنه خرج يلتقط مع الناس ثم رجع وعجَّل في الرجوع فلما سئل عن هذا أخبر أنه رأى منظراً كرهه وهو أنه رأى الناس يحبون على أربع؛ لأجل الالتقاط وذلك أنه مع تقارب الحب لا حاجة للقيام والقعود، والمقصود أن الإمام أحمد رأى هذا المنظر فكرهه ورجع.

الحاصل أن الفقراء كانوا يحضرون عند الحصاد علَّهم يعطون شيئاً ويحضرون بعد الحصاد يلتقطون ما تساقط من الحب، فقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] بعضهم يقول: هذا حق لا تقدير فيه، فالله -عز وجل- لم يذكر فيه حداً محدوداً فعلى المرء أن يعطي شيئاً يوم الحصاد، لكن هل هذا الذي يعطيه يوم الحصاد هو زكاة أو أن في المال حقاً سوى الزكاة؟ يعني هل هذه الآية محكمة أم أنها منسوخة؟ أو هل هذا مما نزل قبل تقرير الحكم؟ وباعتبار أن سورة الأنعام مكية هل هذه الآية مدنية باعتبار أن الزكاة فرضت في المدينة وعليه فنقول: إن هذا مما نزل قبل فرض الحكم؟ أم نقول: إن هذه الآية أصلاً مدنية مستثناة من بقية السورة التي نزلت في مكة؟ أم نقول: إن هذه الآية مكية حيث كان فرض الزكاة أولاً بهذه الطريقة بحيث يعطى من حضر من الفقراء شيئاً من هذا الحصاد دون حد ولا تقدير، ثم بعد ذلك فرضت وبيّنت الأنصباء في المدينة، وعلى هذا القول الأخير تكون هذه الآية منسوخة بآيات الزكاة وما جاء عن الشارع من تحديد الأموال الزكوية وأنصبائها.

هذا القول الأخير ذهب إليه طائفة من أهل العلم لكن النسخ لا يثبت بالاحتمال، والأقرب أن أصل الزكاة فرض في مكة، ثم فرضت الأنصباء وحددت وفصلت وبيّنت وما الذي يُخرج منه الزكاة من الأموال في المدينة، والله تعالى أعلم.

وقوله: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] بعض العلماء يقول: هذا غير الزكاة، وفي بعض الآثار "في المال حق سوى الزكاة" لكن الجمهور على أنه لا يجب في المال سوى الزكاة وهذا الإخراج كان في أول الأمر، ويقول ابن جرير -رحمه الله-: ليست الزكاة هي المقصودة بهذه الآية، ويحتج على ذلك بقوله: معلوم أن الزكاة لا يجب أن تُخرج في يوم الحصاد؛ لأن الحب لا يزال في سنبله فهو لا زال بحاجة إلى عدة عمليات حتى تخرج منه الزكاة.

وعلى كل حال فالتفاصيل التي بينها الله -عز وجل- في الزكاة كانت في المدينة وأما ما في هذه الآية فهو أمر من الله -عز وجل- أمرَ به في مكة، أي أن عليهم يوم الحصاد أن يعطوا من حضر من الفقراء شيئاً من غير تحديد مما حصدوه، والله تعالى أعلم.

وقد تكون هذه الآية محكمة باعتبار أن هذا حق لا تقدير فيه بل على المرء أن يعطي الفقراء شيئاً يوم الحصاد كما قال الله -عز وجل- في المواريث: **{وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُواْ الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ}** [(٨) سورة النساء]، وبعضهم يقول أيضاً: هي محكمة، لكنها للندب وليست للوجوب، وسبق أن الجمهور يقولون: إنها نسخت بعد ذلك بالزكاة التي فصلها الله -عز وجل- وهذا الذي اختاره أيضاً ابن جرير -رحمه الله-، وعلى كل حال فالأقرب أن يقال في هذه الآية: إن الزكاة فُرض أصلها بمكة ثم بيّنت تفاصيلها بالمدينة، والله تعالى أعلم.

وروى الثوري عن إبراهيم النخعي قال: يعطى مثل الضغث، وروى ابن المبارك عن سعيد بن جبير: {وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ} [(١٤١) سورة الأنعام] قال: كان هذا قبل الزكاة للمساكين القبضة والضغث لعلف دابته.

يعني أن القبضة من الحب والضغث كالحشيش وسوق الذرة ونحو ذلك لعلف الدابة، وكل ما قبضت عليه بيدك يقال له: قبضة ويقال له: ضغث كما قال تعالى: **{وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا}** [(٤٤) سورة ص].

وقد ذمَّ الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة "ن": {إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ* وَلَا يَسْتَثْنُونَ* فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ* فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} [(١٧-٢٠) سورة القلم] أي: كالليل المدلهم سوداء محترقة {فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ* أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ* فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ* أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ* وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ} [(٢١-٢٥) سورة القلم] أي: قوةٍ وجلدٍ وهمةٍ {فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ* بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ* قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ* قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ* فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ* عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ* كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [(٢٦-٣٣) سورة القلم].

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٠)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(١٤١) سورة الأنعام]

قيل: معناه لا تسرفوا في الإعطاء فتعطوا فوق المعروف

وقال ابن جريج: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس -رضي الله تعالى عنه وأرضاه- جذَّ نخلاً له فقال: لا يأتيني اليوم أحد إلا أطعمته، فأطعم حتى أمسى وليست له ثمرة، فأنزل الله تعالى: {وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [(١٤١) سورة الأنعام] [رواه ابن جرير عنه].

لكن الظاهر -والله أعلم- من سياق الآية حيث قال تعالى: {كُلُواْ من ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ} [(١٤١) سورة الأنعام] أن يكون عائداً على الأكل، أي: لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن، كقوله تعالى: {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ} الآية [(٣١) سورة الأعراف] وفي صحيح البخاري تعليقاً ((كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة))[1] وهذا من هذا، والله أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى-: **{وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] يحتمل أن يكون المراد به لا تسرفوا في النفقة في سبيل الله؛ لأنه قال: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ}** [(١٤١) سورة الأنعام] يعني ولا تسرفوا في هذا الإيتاء؛ لأنه غير مقدر.

وأما الرواية التي ذكرها عن ثابت بن قيس -رضي الله عنه- فلا تصح؛ لأنها من رواية ابن جريج عنه، فهي من رواية ابن جريج لسبب النزول ومثل هذا يكون من قبيل المرسل.

ويبقى النظر في مسألة هل في الإنفاق في سبيل الله -تبارك وتعالى- إسراف؟

هذه المسألة مختلف فيها، فمن أهل العلم من يقول: ليس فيه إسراف، ويستدلون على هذا ببعض الأدلة نحو ما ثبت أن أبا بكر -رضي الله عنه- تصدق بجميع ماله، فلما سأله النبي -صلى الله عليه وسلم- عما أبقى لأهله؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله[2] فالنبي -صلى الله عليه وسلم- أقره على هذا الفعل.

وكذلك عمر -رضي الله عنه- جاء بشطر ماله فأقر على ذلك.

---

[1] - أخرجه النسائي في كتاب الزكاة - الاختيال في الصدقة (٢٥٥٩) (ج ٥ / ص ٧٩) وأحمد (٦٦٩٥) (ج ٢ / ص ١٨١) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٤٣٨١).

[2] - أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة - باب الرخصة في الرجل يخرج من ماله (١٦٨٠) (ج ٢ / ص ٥٤) والترمذي في كتاب المناقب عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب في مناقب أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما كليهما- (٣٦٧٥) (ج ٥ / ص ٦١٤) والدارمي في كتاب الزكاة - باب الرجل يتصدق بجميع ما عنده (١٦٦٠) (ج ١ / ص ٤٨٠) وحسنه الألباني في المشكاة برقم (٦٠٢١).

إلا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال لبعض الصحابة -رضي الله عنهم- كسعد -رضي الله عنه-: ((الثلث والثلث كثير))[٣] ونهاهم عن أن يتصدقوا أو أن يوصوا بمالهم، وعلى كل حال قد وردت الأحاديث التي توصي الإنسان بأن ترك عياله وأهله أغنياء خير من أن يدعهم عالة يتكففون الناس، وهناك نصوص يفهم منها أن الإنسان لا يتصدق بكل ماله ولا بنصف ماله، ولذلك فالأقرب - والله تعالى أعلم- أن يقال فيما يتعلق بالنفقة في سبيل الله: إن هذا يتفاوت بتفاوت الناس ويختلف باختلافهم، فمن كان بمنزلة أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- بحيث إذا أنفق ماله لا ينتظر من الناس شيئاً ولا يتعلق قلبه بهم، ولا يسأل أحداً شيئاً فلا بأس أن ينفق كل ماله، ومن كان دون ذلك بحيث إذا أنفق تعلق قلبه بالخلق أو سألهم أو انتظر منهم عطاء، فمثل هذا يقال له: لا تنفق إلا بالقدر الذي لا يلحق فيه من تعول شيء من الإجحاف.

ومما يدل على ذلك قصة الرجل الذي تعرض للنبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه قطعة من ذهب فأعطاها النبي -صلى الله عليه وسلم- فأعرض عنه، فتعرض له فأعرض عنه، ثم أعطاه الثالثة، فأخذها فرماه بها وقال: ((يعمد أحدكم إلى ماله لا يملك غيره فيتصدق به ثم يقعد يتكفف الناس))[٤] فهذا يوضح هذا المعنى خاصة وأنه لم يقله لأبي بكر ولا لعمر -رضي الله عنهما-.

ولذلك لعل من أحسن ما يقال في الجمع بين هذه النصوص ما ذكره الشاطبي -رحمه الله- في الموافقات من أن ذلك يختلف باختلاف الناس، فهو أحسن من قول من قال: إن النفقة في سبيل الله يدخلها الإسراف، وأحسن من قول من قال أيضاً: إنه لا يدخلها الإسراف بإطلاق، بل يقال فيه هذا التفصيل، والله أعلم.

والله -عز وجل- لما ذكر النفقات على الوالدين والأقارب في سورة الإسراء قال: **{وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا}** [(٢٦) سورة الإسراء] وقال: **{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** [(٢٩) سورة الإسراء]، فقوله: **{فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}** [(٢٩) سورة الإسراء] أي تقعد منقطعاً لا تستطيع التصرف لعدم وجود المال عندك فتلومك نفسك ويلومك الناس من أصحاب الحقوق من الأولاد وغيرهم؛ لأنك لم تبق لهم شيئاً من النفقة.

وقوله تعالى: **{وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] الحافظ ابن كثير -رحمه الله- لم يحملها على منع الإسراف في الإنفاق في سبيل الله، ولا على سبب النزول؛ لأن سبب النزول لم يصح؛ إذ لو صحَّ لكان دخوله في هذا العموم دخولاً قطعياً؛ لأنه كما هو معلوم أن سبب النزول إذا صح فإنه يدخل في العموم قطعاً وإخراجه بالاجتهاد ممنوع، لكن لما لم يصح هنا حمله ابن كثير -رحمه الله- على النهي عن الإسراف في الأكل والشرب وما أشبه ذلك.

والإسراف ضابطه -أو أحسن ما قيل فيه والله أعلم- هو إنفاق المال بغير وجه صحيح، فإنفاقه في معصية الله -عز وجل- سواء كان ذلك قليلاً أو كثيراً إسراف، فكل مال ينفق في معصية الله -عز وجل- هو

---

[3] - أخرجه البخاري في كتاب الوصايا - باب الوصية بالثلث (٢٥٩٣) (ج ٣ / ص ١٠٠٧) ومسلم في كتاب الوصية - باب الوصية بالثلث (١٦٢٨) (ج ٣ / ص ١٢٥٠).

[4] - أخرجه الدارمي في كتاب الزكاة - باب النهي عن الصدقة بجميع ما عند الرجل (١٦٥٩) (ج ١ / ص ٤٧٩) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٦٤٠٨).

إسراف وتبذير قلّ أو كثر، وأما الذي ينفق في غير معصية الله -عز وجل- وإنما ينفق في الأمور المباحة فهذا ليس له ضابط محدد وإنما يختلف باختلاف الناس، فقد تكون النفقة بالنسبة لفلان من التبذير، وبالنسبة لفلان ليست من التبذير، فهذا قد يشتري الثوب بأربعمائة لكنه يملك الملايين فهذا ليس تبذيراً بالنسبة إليه، لكن الذي دخله في الشهر كله أربعمائة ريال أو خمسمائة أو سبعمائة ثم يشتري جوالاً بسبعمائة، فهذا تبذير بالنسبة له، أما من كان دخله في الشهر عشرة آلاف ثم اشترى التليفون بسبعمائة مثلاً فهذا ليس من التبذير، وقل مثل ذلك فيما يقتنيه الإنسان من أثاث ومتاع وما يستأجره من المساكن، فقد يستأجر بيتاً بأربعين ألف ودخله أربعة آلاف فهذا تبذير، لكنّ إنساناً دخله أربعين ألف ريال ويستأجر بيتاً بعشرين ألف ريال فهذا ليس تبذيراً إلا أن يكون ذلك خارجاً عن حاجة الإنسان فيعتبر من التبذير، وهكذا الأمر في القِرى، فلو أن إنساناً وضع للضيف كما فعل إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أعني عجلاً كاملاً فهذه نفقة في محلها إن لم يكن المقصود بها التفاخر والمباهاة مع كونه يُنتفَع بهذا، لكن إذا كان ما ينتفع به فإن إضاعته من التبذير، وهكذا.

وقوله -عز وجل-: {وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة وما هو فرش، قيل: المراد بالحمولة: ما يحمل عليه من الإبل، والفرش: الصغار منها كما قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله -رضي الله تعالى عنه- في قوله: {حَمُولَةً} ما حمل عليه من الإبل {وَفَرْشًا} [(١٤٢) سورة الأنعام] الصغار من الإبل [رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه][5].

الحَمولة فَعولة بمعنى فاعلة أي حاملة، والمعنى أنها تحملكم وتحمل متاعكم، والحمولة من الأنعام هي الإبل، ولا حاجة لقول من قال: إن الحمولة الإبل والخيل والحمير والبغال، فهذه تَحمِل لكنها ليست من الأنعام؛ لأن المراد بالأنعام الأصناف الثمانية التي سيأتي ذكرها، وهي الإبل والبقر والغنم بنوعيه -المعز والضان- فهذه هي الأنعام.

فقوله: {وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً} [(١٤٢) سورة الأنعام] لا يدخل فيها الحمير والبغال والخيل؛ لأنها ليست من الأنعام، فهي الإبل ويبقى النظر في البقر هل يحمل عليها أو لا يحمل عليها؟

نحن نعرف حديث البقرة التي قالت: إني لم أخلق لهذا[6] فالأصل في البقر أنه لا يحمل عليها، وهذا هو المعروف في بلاد العرب؛ لأن أبقارهم لا تحتمل ذلك، لكن يوجد في بعض بلاد العجم أبقار تحتمل هذا ويحملون عليها الأمتعة العظيمة وينقلونها من مسافات شاسعة، فحيث وجدت الأبقار التي تحمل الأمتعة -إن كان ذلك مما تطيقه- فإنها تدخل في قوله: {حَمُولَةً} والحاصل أن هذا خلاف الأصل وإلا فالأصل أن البقر لا يحمل عليها ولذلك يقال: الحمولة هي الإبل.

---

5 - أخرجه الحاكم (٣٢٣٥) (ج ٢ / ص ٣٤٧) والطبراني في الكبير (٩٠٣٧) (ج ٩ / ص ٢٠٨).

6 - أخرجه البخاري في كتاب المزارعة - باب استعمال البقر للحراثة (٢١٩٩) (ج ٢ / ص ٨١٨) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- باب من فضائل أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- (٢٣٨٨) (ج ٤ / ص ١٨٥٧).

ويبقى المراد بالفرش في قوله: **{حَمُولَةً وَفَرْشًا}** [(١٤٢) سورة الأنعام] فبعضهم خصه بصغار الإبل التي لا تحتمل أن يُحمل عليها، وهذا هو الذي ذهب إليه كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله- وذهب الكثيرون إلى أن الفرش هو ما يقابل الحمولة، يعني ليس صغار الإبل فقط بل يدخل فيه الغنم أيضاً.

وسبب إطلاق الفرش عليها إما باعتبار أنها قريبة من الأرض لقوائمها، ولذلك فأنت حينما تشاهد الإبل والغنم من بعيد تشعر كأن الغنم لاصقة في الأرض والإبل طويلة القوائم مرتفعة.

وإما أن يكون قيل لها فرش باعتبار أن هذا من المنافع التي تؤخذ منها، حيث تؤخذ من أصوافها وأشعارها ما يفترش من ألوان الفرش التي ينامون عليها ويجلسون عليها أو نحو ذلك، فهم ينتفعون بلحومها وألبانها وأصوافها وأشعارها وأوبارها.

وقال: عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحمولة ما تركبون، والفرش ما تأكلون وتحلبون، شاة لا تحمل تأكلون لحمها وتتخذون من صوفها لحافاً وفرشاً.

هذا القول يدخل فيه القول الذي قبله، أعني قول من قال: الفرش صغار الإبل؛ لأن معناه أن ما لا يركب فهو داخل في الفرش، فيدخل فيه صغار الإبل ويدخل فيه الغنم، إلا أن القائل بأن الفرش صغار الإبل قد يقصد بذلك المثال لا الحصر، فيحتمل أن يكون من قبيل التفسير بالمثال، والله تعالى أعلم.

وهذا الذي قاله عبد الرحمن في تفسير هذه الآية الكريمة حسن يشهد له قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [(٧٢) سورة يـــس] وقال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ} [(٦٦) سورة النحل] إلى أن قال: {وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ} [(٨٠) سورة النحل].

وقوله تعالى: {كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: من الثمار والزروع والأنعام، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم.

{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: طريقه وأوامره، كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله، أي من الثمار والزروع افتراء على الله.

{إِنَّهُ لَكُمْ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: إن الشيطان أيها الناس لكم {عَدُوٌّ مُّبِينٌ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي: بيّن ظاهر العداوة كما قال تعالى: {إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [(٦) سورة فاطر] وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} الآية [(٢٧) سورة الأعراف].

وقال تعالى: {أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [(٥٠) سورة الكهف] والآيات في هذا كثيرة في القرآن.

الأمر في قوله تعالى: **{كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ}** [(١٤٢) سورة الأنعام] هل يقال: هو أمر للوجوب أو للاستحباب أو للإباحة؛ لأنه في سياق الامتنان؟

هو للإباحة، ولذلك لا تكاد تجد في القرآن الحث على الأكل والشرب وما إلى ذلك من الأمور التي يطلبها الإنسان بما طبع عليه وما جبل عليه لافتقاره إليها في بقائه في هذه الحياة، ولما يجد فيها من اللذة إلا أن يذكر ذلك على سبيل الامتنان مثلاً، بينما العبادات الشاقة يتردد الأمر بها، كالصلاة والزكاة وما أشبه ذلك مما يشق على الإنسان.

قوله تعالى: **{وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ}** [(١٤٢) سورة الأنعام] الخُطُوَات جمع خُطْوَة وهي واحدة الخَطْو، والخَطَوات جمع خَطْوَة، ففرق بعضهم بين هذا وهذا، فالخَطْوَة هي المسافة التي تكون بين القدمين في المشي، والخُطْوَة واحدة الخطى.

وخُطُوات الشيطان أي طرائقه ومسالكه التي يزينها للإنسان بأن يدرجه فيها حتى يسلك في سبيل الغواية شيئاً فشيئاً، فالشيطان يزين للإنسان أمراً قد لا تنكره نفسه ابتداء ثم بعد ذلك يبلغ به إلى أمور لم تخطر له على بال أنه يلج فيها أو يقع فيها، سواء في باب الشهوات أو في باب الشبهات، نسأل الله العافية، وسد الباب هو الطريق الذي يصل به إلى النجاة، وإلا فإن الإنسان قد يتوسع في الكلام مع النساء من باب الدعوة إلى الله، أو التواصي على البر والتقوى أو التواصل في قضايا زواج مثلاً بأن يكون وسيطاً يبحث لهن عن أزواج، أو بالمشاركات عبر منتديات الحوار والكلام وما أشبه هذا، كل هذا مما يزينه له الشيطان شيئاً فشيئاً حتى يمرض قلبه، وقد يقع في الفاحشة مع أنه لم يخطر في باله أنه يبلغ إلى هذا الحد، لكن البداية كانت بأن فتح على نفسه باباً كان في غنىً عنه، فزينه له الشيطان باسم باب التواصي على البر والتقوى، حتى وصل به إلى أمور جسيمة.

ومن تزيين الشيطان أن يدخل الإنسان في أمور باسم الغيرة على الدين، فيفتن ويبتلى ويدخل في أشياء يخالفه عليها أهل العلم حتى يدخله في أمور قد تذهب بآخرته مع أنه لم يخطر بباله في البداية أنه سيصل إلى هذا الحد، نسأل الله العافية، فالله المستعان.

{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَمِنَ الإِبْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٣-١٤٤) سورة الأنعام].

هذا بيان لجهل العرب قبل الإسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام، وجعلوها أجزاء وأنواعاً، بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً وغير ذلك من الأنواع التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار، فبيّن تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً، ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن.

قوله: **{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}** يحتمل أن يكون النصب بفعل مقدر محذوف هكذا: كلوا ثمانية أزواج أو أنشأ ثمانية أزواج، أو خلق ثمانية أزواج، ويحتمل أن يكون المراد كلوا ثمانية أزواج باعتبار أنه عائد إلى قوله: **{كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] ولكن هذا الثاني -أي أن يكون عائداً إلى قوله: **{كُلُواْ}**- فيه بعد؛ لأن الكلام هناك في الثمر حيث قال: **{كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ}** [(١٤١) سورة الأنعام] ثم قال: **{وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً**

{وَفَرْشًا كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ} [(١٤٢) سورة الأنعام] أي ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا ثمانية أزواج، يعني يكون قوله: **{كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ}** [(١٤٢) سورة الأنعام] والذي رزقهم الله هو ثمانية أزواج.

ويحتمل أن يكون قوله: **{ثَمَانِيَةَ}** بدلاً من قوله: **{حَمُولَةً وَفَرْشًا}** [(١٤٢) سورة الأنعام] يعني ومن الأنعام ثمانية أزواج، وهذه الثمانية لا يخرج منها الحمولة والفرش.

ويمكن أن يكون بدلاً من "ما" في قوله: **{مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ}** [(١٤٢) سورة الأنعام] والذي رزقهم الله هو ثمانية أزواج، والله أعلم.

والمقصود بالأزواج هنا الأفراد؛ فالزوج يطلق على الذكر والأنثى، تقول: هذا زوج، فتطلقه على الذكر والأنثى معاً، ويقال للواحد منهما زوج باعتبار ما يقابله، ولهذا يقال: هذا زوج فلانة، وهذه زوج فلان، فهنا أطلق على الأفراد لفظ زوج، فقوله: **{ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}** يعني أنها باعتبار المجموع تعتبر أربعة؛ أي أن الذكر والأنثى زوج، وباعتبار الأفراد تعتبر ثمانية.

يقول تعالى: **{مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] الضأن معروف وهو جمع ضائن.

وقوله: **{وَمِنَ الْمَعْزِ}** قرأه كثيرون كابن عامر وابن كثير وأهل البصرة بفتح العين هكذا **(المعَز)** وهي لغة فيه، والمعنى واحد.

ثم بيّن أصناف الأنعام إلى غنم وهو بياض وهو الضأن، وسواد وهو المعز ذكره وأنثاه، وإلى إبل ذكورها وإناثها، وبقر كذلك.

وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ولا شيئاً من أولادها، بل كلها مخلوقة لبني آدم أكلاً وركوباً وحمولة وحلباً وغير ذلك من وجوه المنافع، كما قال: {وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ} الآية [(٦) سورة الزمر].

وقوله تعالى: {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] رد عليهم في قولهم: {مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا} الآية [(١٣٩) سورة الأنعام].

سألهم هذا السؤال، فقال لهم: **{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] يعني لا يخلو الحال من أن يكون ما حرمتموه على أنفسكم هو الذكور مطلقاً -أي يحرم عليهم كل ذكر- فالواقع أنكم تنتفعون بها، في أوجه مختلفة من الأكل والأشعار والأصواف، إذن أنتم لم تمتنعوا من الانتفاع بها، وإما أن يكون المحرم عليكم هي كل أنثى والواقع أنكم تنتفعون بها أكلاً وبألبانها شراباً وما أشبه ذلك،.

وبقي ما في بطونها فقال تعالى: **{أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] فسواء كان ما في بطونها ذكراً أو أنثى فالواقع أن ما يخرج من بطونها لم تمتنعوا من الانتفاع به، فالله -عز وجل- لم يحرم عليكم شيئاً من ذلك ومع ذلك فأنتم متناقضون غاية التناقض لا تقومون على أصل وقاعدة صحيحة، وإنما هو إفك وافتراء وتخرّص ما أنزل الله -عز وجل- به من سلطان.

هذا وجه الرد في قوله: **{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ}** [(١٤٣) سورة الأنعام] يعني وأنتم في الواقع لم تمتنعوا من ذكورها ولا من إناثها ولا مما اشتملت عليه البطون ذكوراً كانت أو إناثاً.

وقوله تعالى: {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٤٣) سورة الأنعام] أي: اخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك؟.

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: قوله: {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] فهذه أربعة أزواج.

{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] يقول: لم أحرم شيئاً من ذلك، {أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ} [(١٤٣) سورة الأنعام] يعني هل يشتمل الرحم إلا على ذكر أو أنثى، فلمَ تحرمون بعضاً وتحلون بعضاً؟ {نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} [(١٤٣) سورة الأنعام] يقول تعالى: كله حلال.

وقوله تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا} [(١٤٤) سورة الأنعام] تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك.

في قوله: **{قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ}** يلاحظ أن قوله: **{آلذَّكَرَيْنِ}** منصوب بـــ"حرَّم" يعني حرَّم الذكرين.

وقوله: **{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا}** [(١٤٤) سورة الأنعام] "أم" هنا يسمونها المنقطعة وهي بمعنى بل ومعها الهمزة؛ لأن الاستفهام هنا للإنكار، والمعنى بل أكنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا؟ أي كيف عرفتم أن هذا حرام؟ هل كنتم حضوراً حينما خلقها الله -عز وجل- أو حينما عهد إليكم بذلك فأنتم على بينة من الأمر تستطيعون الوقوف عندها؟

{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ} [(١٤٤) سورة الأنعام] أي: لا أحد أظلم منهم، {إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [(١٤٤) سورة الأنعام] وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة؛ لأنه أول من غير دين الأنبياء، وأول من سيَّب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي كما ثبت ذلك في الصحيح[7].

{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله: {لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أي: آكل يأكله، معناه لا أجد من الحيوانات شيئاً حراماً سوى هذه، فعلى هذا يكون ما ورد من التحريمات بعد هذا في سورة المائدة وفي الأحاديث الواردة رافعاً لمفهوم هذه الآية.

يقول: **{لاَّ أَجِدُ فِي مَا}** هذا الحصر هو أقوى صيغ الحصر كما ذكرنا مراراً في باب مفهوم المخالفة، ومفهوم المخالفة أنواع وأنواعه متفاوتة من حيث القوة، فأقوى أنواع مفهوم المخالفة مفهوم الحصر بالنفي والاستثناء،

---

[7] - الثابت في صحيح البخاري قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب الـــسوائب)) - كتاب المناقب - باب قصة خزاعة (٣٣٣٣) (ج ٣ / ص ١٢٩٧) وفي مستدرك الحاكم (ج ٤ / ص ٦٤٧) ((عرضت عليَّ النـــار فرأيــت فيهـــا عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو عمرو و هو يجر قصبه في النار و هو أول من سيب السوائب و غير عهد إبراهيم -عليه السلام- وأشبه من رأيت به أكثم بن أبي الجون)) قال: فقال أكثم: يا رسول الله، يضرني شبهه؟ قال: ((لا؛ إنك مسلم و إنه كافر)) وزاد في مسند البـــزار (ج ٢ / ص ٤٧٩): ((إنه كان أول من غير دين إسماعيل فسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الواصلة وحمى الحامي)) وقال الألباني: "وإسناده حسن فهو شاهد قوي لحديث الترجمة" انظر السلسلة الصحيحة (١٦٧٧) (ج ٤ / ص ٢٤٢).

ثم يليه الحصر بـــ"إنما" ثم يأتي بعد ذلك مفهوم الصفة ومفهوم الشرط إلى أن تصل إلى مفهوم اللقب وهو أضعفها وليس بحجة، والحاصل أن هذا أقوى صيغ المفهوم وهو الذي وردت فيه كلمة التوحيد -لا إله إلا الله- فقوله: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] يدل على أن هذه الأنواع هي المحرمة بطريق الحصر في سورة الأنعام وهي مكية، ولذلك فإن كثيراً من أهل العلم يقولون: إن هذا الحصر كان في أول الأمر، ثم جاءت التحريمات الأخرى في سورة المائدة، حيث قال تعالى: **{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ}** [(٣) سورة المائدة] وجاء تحريم الحمر الأهلية في عام خيبر.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: "نهى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن كل ذي ناب من السباع وعن كل ذي مخلب من الطير"[٨].

وعلى كل حال من أهل العلم من الصحابة وبعض من جاء بعدهم وقفوا عند هذه الآية وقالوا: لا يحرم سوى هذه المذكورات في الآية فقط وما عدا ذلك فحلال! وتوسع بعض الفقهاء في هذا جداً حتى أباحوا أكل الأسد والفيل وأنواع الوحوش والحشرات والحيات وما أشبه ذلك، ومن أراد التوسع في بحث هذه المسألة فلينظر في مثل كتاب أضواء البيان حيث ذكر أشياء كثيرة جداً في المطعومات من الحشرات وغيرها وذكر أقوال أهل العلم فيها، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن هذه الآية كانت في أول ما نزل ثم بعد ذلك حرمت أشياء أخرى، فكل ما ورد عن الشارع تحريمه فإنه داخل في جملة المحرمات ولو لم يكن داخلاً ضمن المذكورات في هذه الآية.

ومن أهل العلم كالشافعي -رحمه الله- من وجه هذه الآية توجيهاً آخر وقال: إن هذا جاء على سبيل الرد مع المبالغة فيه، فالمشركون حرموا أشياء مما أباحه الله -عز وجل- وأحلوا أشياء مما حرمه الله، فردَّ عليهم وكأنه يقول: الحلال ما حرمتم والحرام ما أحللتم -يعني على سبيل المبالغة- **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ..}** الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] أي وما سوى ذلك فحلال، فهذا توجيه الإمام الشافعي، لكن عامة أهل العلم يقولون: هذا كان في أول الأمر وليس الحامل على ذلك هو الرد على افتراء المشركين، والله أعلم.

والحصر في هذه الآية يشبه الحصر في حديث: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة))[٩] وذلك أنه ورد تشريع

---

[8] – أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان – باب تحريم أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير (١٩٣٤) (ج ٣ / ص ١٥٣٤).

[9] – أخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات– باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) (ج ٣ / ص ١٣٠٢).

القتل لغير هؤلاء، كقوله –عليه الصلاة والسلام–: ((من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[١٠].

وكذلك صح عنه –عليه الصلاة والسلام– أنه قال: ((حد الساحر ضربة بالسيف))[١١] وغير ذلك مما ورد فيه أنه يقتل غير ما ذكر في الحديث، والله أعلم.

{أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا} [(١٤٥) سورة الأنعام] وقال قتادة: حرَّم من الدماء ما كان مسفوحاً، فأما اللحم خالطه الدم فلا بأس به.

كانوا يأكلون الميتات في الجاهلية والشبهة التي احتجوا بها أنهم كانوا يقولون: ما ذبحتم بأيديكم حلال وما قتل الله بيده الشريفة تقولون: إنه حرام، ولهذا قال الله –عز وجل–: **{وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}** [(١٢١) سورة الأنعام].

والمقصود بالدم المسفوح في قوله: **{أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا}** [(١٤٥) سورة الأنعام] أي الذي يخرج من أوداج الذبيحة عند الذبح، فهذا الدم كانوا يتلقونه بإناء ثم يطبخونه ويأكلونه، وهذا دم نجس لا يجوز شربه ولا أكله، وهذا الدم المسفوح يختلف حكمه عن حكم الدم الذي يكون عالقاً باللحم أو باقياً في العروق فإن هذا لا إشكال فيه، وكذلك أيضاً ما أصله الدموية كالكبد والطحال فإن هذا يجوز أكله بلا إشكال؛ لأنه مستثنى بقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: ((أحلت لنا ميتتان ودمان))[١٢].

وقال الحميدي حدثنا سفيان قال حدثنا عمرو بن دينار قال: قلت لجابر بن عبد الله –رضي الله تعالى عنهما–..

يقول: "**قلت لجابر بن عبد الله**" والرواية بهذا السياق في البخاري عن عمرو بن دينار، لكن قال: قلت لجابر بن زيد"[١٣] وأصل الحديث أيضاً جاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله –رضي الله عنهما– لكن ليست بهذا السياق وإنما جاءت في سياق تحريم الحمر الأهلية عام خيبر[١٤] والله أعلم.

قال: قلت لجابر بن زيد –رضي الله تعالى عنه–: إنهم يزعمون أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– نهى عن لحوم الحمر الأهلية زمن خيبر فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

---

[10] – أخرجه أبو داود في كتاب الحدود – باب فيمن عمِل عمَل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود – باب من عمِل عمَل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

[11] – أخرجه الترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– باب ما جاء في حد الساحر (١٤٦٠) (ج ٤ / ص ٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٦٩٩) وأما الترمذي فقال: "لا نعرفه إلا مرفوعاً من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة، ويروى عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي –صلى الله عليه وسلم– وغيرهم وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً" وقال الحاكم: صحيح غريب، ووافقه الذهبي.

[12] – أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة – باب الكبد والطحال (٣٣١٤) (ج ٢ / ص ١١٠٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١١١٨).

[13] – صحيح البخاري في كتاب الذبائح والصيد – باب لحوم الحمر الإنسية (٥٢٠٩) (ج ٥ / ص ٢١٠٣).

[14] – ونصه: "عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: "نهى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يوم خيبر عن لحوم الحمر الأهلية ورخص في الخيل" صحيح البخاري في كتاب المغازي – باب غزوة خيبر (٣٩٨٢) (ج ٤ / ص ١٥٤٤).

لفظة "زعم" تارة تذكر ويراد بها التوهين أو تكذيب الخبر بحسب مرتبته، وأحياناً تذكر بمنزلة قال، فهي هنا بمنزلة قال؛ لأن الذين يزعمون هنا هم الصحابة -رضي الله عنهم-.

فقال: قد كان يقول ذلك الحكم بن عمرو عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولكنْ أبى ذلك الحبرُ.

الحكم بن عمرو هو الغفاري عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقوله: "**ولكنْ أبى ذلك الحبرُ**" هذا خطأ والصواب "**أبى ذلك البحرُ**" يعني ابن عباس -رضي الله عنهما- وقد قيل له: البحر؛ لتبحره في العلم.

ولكنْ أبى ذلك البحرُ، يعني ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقرأ: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] وكذا رواه البخاري وأخرجه أبو داود[١٥].

وروى أبو بكر بن مردويه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذراً، فبعث الله نبيَّه وأنزل كتابه وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فما أحلَّ فهو حلال وما حرَّم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفوٌ، وقرأ هذه الآية: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ} الآية [(١٤٥) سورة الأنعام] وهذا لفظ ابن مردويه ورواه أبو داود وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

إذا استثنينا المذكورات في الآيات -الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ..الخ- ومعها كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير فإنه يبقى النظر في حكم أشياء أخرى كالحشرات ونحوها، فالعلماء اختلفوا في حكم أكل الضفدع ولذلك لا يحل تذكيتها على قول من منع من أكلها، ولا يحل قتلها؛ لأنه نُهي عن ذلك[١٦].

ومن أهل العلم من يمنع من أكل السحالي والحشرات الأخرى باعتبار أن الله قال: **{وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] وهذه من الأمور المستخبثة.

فيبقى النظر في ضابط الاستخباث وقد قال العلماء: أسلم الناس ذوقاً هم العرب فما استخبثه العرب الذين نزل عليهم القرآن بطبعهم فهو خبيث لا يؤكل؛ لعموم قوله تعالى: **{وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ}** [(١٥٧) سورة الأعراف] فهذه من المستخبثات، وهذا لا ينضبط أيضاً؛ لأن الأعرابي الذي سئل ماذا تأكلون في الصحراء؟ قال: نأكل ما هب ودب ودرج إلا أم حبين، وقال: لتهنأ أم حبين العافية، فمثل هؤلاء ما يتنزهون عن شيء وقد يكون الذي حملهم على هذا شدة الفقر والحاجة فلا يعني هذا أنهم ما كانوا يستقذرونها أو يستخبثونها، وعلى كل حال الأشياء المستخبثة عرفاً ليس للإنسان أن يأكلها، كالحشرات، والله تعالى أعلم، وكذلك الأشياء الضارة، لعموم الأدلة الواردة في هذا المعنى، فما ثبت ضرره -باعتبار أن الضرر غالب فيه- لا يجوز أكله؛ لقوله

---

15 - أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد - باب لحوم الحمر الإنسية (٥٢٠٩) (ج ٥ / ص ٢١٠٣) وأبو داود في كتاب الأطعمة -باب في أكل لحوم الحمر الأهلية (٣٨١٠) (ج ٣ / ص ٤٢٠).

16 - "عن عبد الرحمن بن عثمان أن طبيباً سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ضفدع يجعلها في دواء فنهاه النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قتلها" أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في قتل الضفدع (٥٢٧١) (ج ٤ / ص ٥٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٩٧١).

-صلى الله عليه وسلم-: ((لا ضرر ولا ضرار)) فهذه لا يجوز أكلها، وما عدا ذلك مما لم يرد فيه دليل -ما لم يكن من ذوات المخالب ولا ذوات الأنياب- فإنه يجوز أكلها.

والخلاصة أن كل ما لم يكن من ذوات الأنياب ولا المخالب ولا من الأشياء المستخبثة أو لم يغلب عليه الضرر فإنه يجوز أكله، وأما الحيوانات البحرية فالأصل أنها تؤكل جميعاً الحي منها والميت إلا ما ثبت ضرره، وإن كان العلماء قد اختلفوا في بعض الأشياء مثل كلب البحر لكن الأصل في كل ذلك الجواز، والله أعلم.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة -تعني الشاة- قال: ((فلولا أخذتم مسكها))[١٧].

قوله: "**فقالت: يا رسول الله ماتت فلانة**" وذلك أنهم كانوا يسمون الدواب بأسماء معينة، فهذه دلدل وهذه القصواء وهكذا، فهذه إحدى الشياه ماتت وكان لها اسم معين.

قال: ((فلولا أخذتم مسكها)) قالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إنما قال الله: {قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] **وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به)) فأرسلت فسلخت مسكها فدبغته فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها، ورواه البخاري والنسائي نحوه[١٨].**

في قوله: **{أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** } الأصل أن الضمير يرجع إلى المضاف؛ لأنه هو المحدث عنه وهو اللحم هنا، وقد تكلف بعضهم فقال: إنه يرجع إلى المضاف إليه من أجل أن يدخل فيه الشحم لكن لا حاجة إلى هذا؛ لأن اللحم إذا أطلق في لغة العرب فإنه يدخل فيه الأحمر والأبيض، وبناء على هذا يدخل في الآية لحم الخنزير وشحمه فلا يجوز الانتفاع بدهون الخنزير ولا جميع المشتقات التي تستخرج منه، وكذا ما يلحق بلحمه كالأمعاء وما أشبه ذلك.

وفي قوله: **{فَإِنَّهُ رِجْسٌ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] الضمير عاد مفرداً فيحتمل أن يرجع إلى المذكورات السابقة كلها **{إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] هذا احتمال، والأقرب -والله تعالى أعلم- أنه يرجع إلى المذكور الأخير؛ لأن الأصل أن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، ولأن الضمير مذكر إضافة إلى كونه مفرداً، ثم إن ذكر الفاء مع "إنَّ" يدل على التعليل، وهذا التعليل يحتاج إلى بيانه في الخنزير؛ لأن الذين يأكلون الخنزير يلتذون به وربما قدموه على سائر اللحوم كما هو مشاهد، وأما الميتة والدم المسفوح فلا يخفى على الجميع أنها ليست من أطايب الطعام حتى عند الذين يأكلونها، ولذلك رجح ابن القيم -رحمه الله- أن الضمير هنا يرجع إلى لحم الخنزير من هذه الأوجه التي ذكرتها آنفاً.

يقول تعالى: **{أَوْ فِسْقًا}** [(١٤٥) سورة الأنعام] "أو" حرف عطف، لكن **{فِسْقًا}** معطوفة على قوله: **{لَحْمَ خِنزِيرٍ}** وليس على**{رِجْسٌ}**، فيكون معنى الآية: قل لا أجد فيما أوحي إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير أو فسقاً أهل لغير الله به، أي أنها أربع محرمات كقوله تعالى: **{حُرِّمَتْ**

---

[17] - سيأتي تخريجه عند تمامه.

[18] - أخرجه أحمد (٣٠٢٧) (ج ١ / ص ٣٢٧) والطبراني في الكبير (١١٧٩٢) (ج ١١ / ص ٢٨٨) وصححه شعيب الأرنؤوط في مسند أحمد.

عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ} [(٣) سورة المائدة] فتلك الآية بمعنى هذه تماماً، وسماه فسقاً لتوغله في الفسق؛ لأنه ذبح لغير الله –عز وجل– من الأصنام والقبور وما إلى ذلك من المعبودات سوى الله –تبارك وتعالى– والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢١)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: وقوله تعالى: {فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أي: فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان {فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٤٥) سورة الأنعام] أي: غفور له رحيم به، وقد تقدم تفسير هذه الآية في سورة البقرة بما فيه كفاية.

والغرض من سياق هذه الآية الكريمة الرد على المشركين الذين ابتدعوا ما ابتدعوه من تحريم المحرمات على أنفسهم بآرائهم الفاسدة من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك، فأمر رسوله أن يخبرهم أنه لا يجد فيما أوحاه الله إليه أن ذلك محرم، وإنما حرَّم ما ذكر في هذه الآية من الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أُهِّل لغير الله به، وما عدا ذلك فلم يحرم وإنما هو عفوٌ مسكوت عنه، فكيف تزعمون أنتم أنه حرام؟ ومن أين حرمتموه ولم يحرمه الله؟

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله: **{فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] سبق الكلام على هذا كما ذكر الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، لكن ذكره هنا من باب التذكير به بحيث إن من أشرف على الهلكة فإنه يجوز له أن يأكل من هذه المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به.

وقوله: **{غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] سبق كلام أهل العلم على معنى الباغي والعادي، فابن جرير -رحمه الله- يفسر الباغي بأنه يأكل من الميتة من غير اضطرار ويجد مندوحة عنها، والعادي هو الذي يتجاوز الحد، يعني اضطر ولكنه يأكل أكثر من المقدار الذي يحتاج إليه؛ وأهل العلم اختلفوا في القدر الذي يأكله من الميتة وهل يتزود منها أو لا يتزود، بمعنى إذا حلت له الميتة هل له أن يأكل حتى يشبع؟ وهل له أن يتزود منها أو لا؟

الحاصل أن هذا مما يدخل في معنى الباغي والعادي، وقد ذكر بعض أهل العلم هنا أيضاً الذي يكون سفره محرماً، هل يجوز له أن يأكل من الميتات أو لا؟

{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(١٤٦) سورة الأنعام]، يقول تعالى: وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر من البهائم والطير كالإبل والنعام والأوز والبط.

يقول تعالى: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}** يعني حرمت عليهم ذوات الأظفار، وهي كل ما لم يكن مشقوق الأصابع، وهذا هو المشهور عند أهل العلم والذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه

الله-، وما لم يكن مشقوق الأصابع كالبط والنعام والإبل وما شابه ذلك، كل ذلك يحرم عليهم، وفسره بعضهم بأوسع من هذا لكن فيه بُعد، والله أعلم.

وقوله تعالى: {وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا} [(١٤٦) سورة الأنعام] قال السدي: يعني الثَّرْب وشحم الكليتين.

الثَّرب -بإسكان الراء- هو الشحم الرقيق الأبيض الذي يكون في داخل البطن على الكرش والأمعاء.

يعني الثرب وشحم الكليتين، وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه.

لماذا قال: "**يعني الثرب وشحم الكليتين**"؟ قال ذلك؛ لأنه ليس مما حملت ظهورها وليس مما اختلط بعظم مما أبيح لهم، فالشحم الذي يكون على الفخذ مثلاً أو الظهر أو الرقبة هذا يكون مما اختلط بعظم، وكذلك الشحم الذي يكون في الإلية هذا اختلط بعظم وهو العصعص، فلذلك هذا لا يحرم عليهم، إنما الذي يحرم ما لم يختلط بعظم، هذا هو الذي حمله على القول: "**يعني الثَّرْب وشحم الكليتين**".

قوله: "**وكانت اليهود تقول: إنه حرمه إسرائيل فنحن نحرمه**" يعني حرمه يعقوب -صلى الله عليه وسلم- لكن هذا ليس صحيحاً.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا} [(١٤٦) سورة الأنعام] يعني ما علق بالظهر من الشحوم.

وقوله تعالى: {أَوِ الْحَوَايَا} قال الإمام أبو جعفر بن جرير: الحوايا جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويَّة، وهو ما تحوَّى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن وهي المباعر وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء.

قوله: "**وهي بنات اللبن**" يعني خزائن اللبن، ولذلك العلم الحديث يقول: إن الدم يمتص الغذاء من الأمعاء ثم ينتقل إلى سائر الجسم.

يقول: "**وهي المباعر**" ويقصدون بالمباعر ما نسميه الآن بالأمعاء الغليظة، وتسمى المباعر؛ لأن البعر يجتمع فيها، والمقصود أن ما حملته هذه الحوايا من الشحوم فإنه يجوز لهم أكله.

وبعضهم يقول: إن الحوايا هي الأمعاء مطلقاً فما كان عليها من الشحم فإنه يحل لهم، بمعنى أنه لا يختص ذلك بالأمعاء الغليظة، والله أعلم.

يقول: "**وتسمى المرابض**" الأمعاء وأحشاء البطن يقال لها المرابض.

قال: ومعنى الكلام ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو ما حملت الحوايا.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: {أَوِ الْحَوَايَا} وهي المبعر، وقال مجاهد: الحوايا المبعر والمربض.

يعني أن الشحم الذي يكون في أحشاء البطن حلال لهم.

وقوله تعالى: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم.

"أو" في قوله: {أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] حرف عطف فيكون ما بعد "أو" عائداً إلى الأشياء التي أبيحت لهم، فيكون الذي أبيح لهم من الشحوم {مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] وهذا الذي عليه عامة المحققين من أئمة اللغة ومن المفسرين.

وبعضهم يقول: إن الحوايا وما اختلط بعظم معطوف على الشحوم، فيكون الكلام هكذا: "وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما والحوايا وما اختلط بعظم، وهذا القول فيه تكلف وهو خلاف الظاهر، والأصل حمل الكلام على ظاهره إلا لدليل يجب الرجوع إليه، ولا حاجة لمثل هذا التكلف.

والخلاصة أن الأشياء التي حرمت عليهم هي كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم الشحوم ويستثنى من ذلك ما حملت الظهور أو الحوايا من الشحوم التي على الأمعاء، أو ما اختلط بعظم، فكل ذلك مباح لهم، والله أعلم.

وقال ابن جريج: شحم الإلية ما اختلط بالعصعص، فهو حلال، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال، ونحوه قاله السدي.

وقوله تعالى: {ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ} [(١٤٦) سورة الأنعام] أي: هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا، كما قال تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا} [(١٦٠) سورة النساء].

وقوله: {وِإِنَّا لَصَادِقُونَ} [(١٤٦) سورة الأنعام] أي: وإنا لعادلون فيما جازيناهم به.

وقال ابن جرير: وإنا لصادقون فيما أخبرناك به يا محمد من تحريمنا ذلك عليهم لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه.

يقول: "**لا كما زعموا من أن إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه**"؛ لأن الله -عز وجل- قال: {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ} [(٩٣) سورة آل عمران] فكذبهم الله -عز وجل- بهذا.

وقد جاء في التوراة أيضاً هذا النص: حرمتُ عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وكلَّ دابة ليست مشقوقة الحافر، وكل حوت ليس فيه سفاسف -يعني ليس فيه بياض- وقوله: "وكلَّ دابة ليست مشقوقة الحافر" هذا ما فسرنا به قوله: {حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام].

مسألة:

من جملة ما حُرِّم على الذين هادوا الشحوم إلا ما اختلط بعظم أو الحوايا -على القول بأنها مستثناة مما لا يحل- فقد يقول قائل: إن ما حُرِّم عليهم الشيء اليسير من الشحوم كالتي في العينين وفي القلب والكليتين ونحو ذلك، فما الحكمة من تحريم هذه الأشياء اليسيرة مع أن هناك شحماً كثيفاً في الإلية -مثلاً- وفي غيرها لم يحرم عليهم؛ لأنه مما اختلط بعظم أو من الحوايا؟ فالجواب أن تحريم الشحوم عليهم بهذه الصفة تجعلهم يحتاجون إلى فصل الشحم من بعض أجزاء الجسم مما يتم فصله بصعوبة، فهذا يحل وهذا لا يحل وهكذا، فكأن في هذا معنى التضييق، عقوبة لهم، والله أعلم.

وقال عبد الله بن عباس: بلغ عمر بن الخطاب -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- أن سمرة باع خمراً فقال: قاتل الله سمرة، ألم يعلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها)) [أخرجاه][1].

يعني جاءوا وحولوها إلى شيء آخر كأن يكونوا أذابوها وباعوها ودكاً ثم قالوا: نحن ما بعنا الشحوم.

وعن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- يقول: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول عام الفتح: ((إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام)) فقيل يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنها يدهن بها الجلود وتطلى بها السفن ويستصبح بها الناس، فقال: ((لا، هو حرام)) ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك: ((قاتل الله اليهود إن الله لما حرم عليهم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه)) ورواه الجماعة[2].

{فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١٤٧) سورة الأنعام] **يقول تعالى: فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم {فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [(١٤٧) سورة الأنعام].**

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جمع المعاني التي قيلت فيمن يتوجه إليه قوله: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** فبعضهم يقول: هم المشركون؛ لأن سياق الحديث أصلاً في تحريم المشركين بعض الأشياء وتحليل بعض الأشياء، فالله -عز وجل- يرد عليهم وكان من جملة ما ذكر أنه قص ما وقع لليهود في المحرمات، فالله -عز وجل- أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- أن يقول للمشركين: **{لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] وذلك عندما حرموا ما حرموا وأباحوا ما أباحوا، قال تعالى: **{وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نّشَاء}** الآية [(١٣٨) سورة الأنعام] والمقصود أنه جاء الكلام على اليهود في ثنايا الرد على المشركين، ثم قال: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** أي هؤلاء الذين حرموا أشياء وأحلوا أشياء من عند أنفسهم من المشركين **{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}** [(١٤٧) سورة الأنعام].

وبعضهم يقول: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] يعني اليهود الذين قال الله -عز وجل- فيهم: **{ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ}** أي: فيما أخبرتك ما الذي حرمت عليهم **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] وقالوا لا، ليس الأمر كذلك **{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}** [(١٤٧) سورة الأنعام]، وبه قال ابن جرير -رحمه الله-.

فالشاهد أن الحافظ ابن كثير جمع بين المعنيين باعتبار أنه لا يوجد دليل يدل على تخصيص المشركين أو اليهود بالضمير في قوله: **{فَإِن كَذَّبُوكَ}** [(١٤٧) سورة الأنعام] فقال: "**فإن كذبك يا محمد مخالفوك من**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه (٢١١٠) (ج ٢ / ص ٧٧٤) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨٢) (ج ٣ / ص ١٢٠٧).

[2] - أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب بيع الميتة والأصنام (٢١٢١) (ج ٢ / ص ٧٧٩) ومسلم في كتاب المساقاة - باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام (١٥٨١) (ج ٣ / ص ١٢٠٧).

المشركين واليهود" أي الذين يحللون ويحرمون ويعتدون على شرائع الله -عز وجل- **{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ}** [(١٤٧) سورة الأنعام].

{فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ} [(١٤٧) سورة الأنعام] وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتِّباع رسوله.

{وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [(١٤٧) سورة الأنعام] ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن، كما قال تعالى في آخر هذه السورة {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام] وقال: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٦) سورة الرعد] وقال تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [(٤٩-٥٠) سورة الحجر] وقال تعالى: {غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ} [(٣) سورة غافر] وقال: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ* إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ* وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [(١٢-١٤) سورة البروج] والآيات في هذا كثيرة جداً.

{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم حَتَّى ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ* قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ* قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [(١٤٨-١٥٠) سورة الأنعام].

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم وتحريم ما حرموا، فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الإيمان ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيّره، فدل على أنه بمشيئته وإرادته ورضاه منَّا بذلك، ولهذا قالوا: {لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ} [(١٤٨) سورة الأنعام].

يعني أن هؤلاء المشركين احتجوا بالقدر على شركهم وجعلوا ذلك دليلاً على رضا الله -تبارك وتعالى-، وهذا هو الذي يحتج به الجبرية، لكن الله -عز وجل- ردَّ عليهم -كما ذكرنا في القاعدة التي أشرنا إليها مراراً- وهي أن كل حكاية في القرآن يحكيها الله -عز وجل- عن قائلٍ فإنه يذكر قبلها أو معها أو بعدها ما يدل على بطلانها وإلا فهي صحيحة غالباً، فالله -عز وجل- رد على هؤلاء، وهذا فيه إبطال لحجة الجبرية أيضاً حيث يقول تعالى: **{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا}** [(١٤٨) سورة الأنعام] ثم بين أنهم بذلك ما يتبعون إلا الظن، وأنهم يخرصون خرصاً، فلا حقيقة عندهم ولا يقين.

يقول تعالى:**{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا}** [(١٤٨) سورة الأنعام] هذا إخبار من الله -عز وجل- أنهم سيقولون ذلك، وأخبر في مواضع أخرى من كتابه -عز وجل- كما في سورة النحل أنهم قالوه فعلاً، أعني أن هذا قاله في سورة الأنعام وهي سورة مكية، وسورة النحل سورة مكية لكنها نزلت بعد سورة الأنعام بدليل قوله تعالى: **{وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ}** [(١١٨) سورة النحل] وقد قص

هذا في سورة الأنعام في هذا الموضع: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ} [(١٤٦) سورة الأنعام] إلى آخر ما ذكر، فالإجمال في سورة النحل مبين بهذا التفصيل الذي في سورة الأنعام.

والحاصل أنه قال: {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ} [(١٤٨) سورة الأنعام] ثم بين في سورة النحل أنهم قالوه فعلاً كما قال الله -عز وجل-: {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ} [(٣٥) سورة النحل] وقال أيضاً في سورة الزخرف: {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} [(٢٠) سورة الزخرف] فهم قالوا ذلك فعلاً، فجعلوا وقوع ذلك منهم بمشيئته -سبحانه وتعالى- دالاً على محبته ورضاه.

ونحن نعرف أن المشيئة الكونية لا تقتضي المحبة فالله -عز وجل- يقول: {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} [(٧) سورة الزمر] وإنما الذي يقتضي المحبة هي الإرادة الشرعية فحيث لم يفرقوا بين الإرادتين ظنوا أن وقوع ذلك بمشيئته وإرادته دليلٌ على محبته ورضاه.

كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَوْ شَاء الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم} الآية [(٢٠) سورة الزخرف] وكذلك الآية التي في النحل مثل هذه سواء.

هؤلاء بالإمكان أن يُرَدُّ عليهم بكل بساطة فيقال لهم: إذا كان وقوع الشيء يدل على محبة الله -عز وجل- له فلماذا تحاربوننا وتعادوننا غاية العداوة، وقد أسلمنا لله رب العالمين؟ فالله -عز وجل- يحب ذلك ويرضاه، فلماذا أنتم تنكرونه وتعادون أهله وتضيقون عليهم وتضطرونهم إلى الخروج من بلادهم؟ لماذا خالفتم إرادته ومحبوباته؟

بهذا الرد لن يكون عندهم جواب، ومثل هذا الأسلوب يستعمل مع العصاة الذين يحتجون بالقدر حيث يقول الواحد منهم: إن الله -عز وجل- كتب هذا عليَّ وقدره، ولذلك لا يتوب من معصيته ولا يرعوي فيقال له: ما دام الله -عز وجل- كتب عليك هذا وأنت راضٍ به فلماذا لا ترضى أن يضربك شخص أو يكسر سيارتك أو نظارتك دون أن تغضب وتحاول الانتقام لنفسك فالله -عز وجل- كتب عليك ذلك ولا بد لك من الرضا بهذا القضاء؛ لأن هذا الفعل الذي صدر في حقك وأجراه الله على يد هذا الإنسان مكتوب لا محالة أن يقع عليك فلا بد أن نرضى أنا وأنت بما قدر الله -عز وجل- وانتهينا!.

ومثله ذلك الطالب الذي عنده اختبار يقال له: لا تقرأ ولا تفتح كتاباً ولا تمش إلى المدرسة أيضاً وما قدره الله لك من النجاح أو الفشل سيقع لا محالة، هكذا يرد على من يحتج بالقدر على ترك السعي إلى الآخرة، لكن المشكلة أنك تراهم يتهافتون ويسعون لأجل الدنيا دون ملل فإذا قلت للواحد منهم: لا تهلك نفسك لأجل الدنيا فما قدره الله لك سيكون إذا ببعضهم يؤلفون هنا حديثاً قدسياً نصه: اسعَ يا عبدي وأنا أسعى معك!! أما في باب العمل الصالح فيحتجون بالقدر، والله كاتب عليَّ أن أكون بهذه المثابة فادع لي، وهكذا يتهربون من إقامة الحجة عليهم، والله المستعان.

قال الله تعالى: {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم} [(١٤٨) سورة الأنعام] أي: بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء، وهي حجة داحضة باطلة؛ لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ودمر عليهم وأدال عليهم رسله الكرام، وأذاق المشركين من أليم الانتقام.

{قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ} [(١٤٨) سورة الأنعام] **أي: بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه {فَتُخْرِجُوهُ لَنَا} أي: فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه.**

{إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ} [(١٤٨) سورة الأنعام] **أي: الوهم والخيال والمراد بالظن هاهنا الاعتقاد الفاسد.**

{وَإِنْ أَنتُمْ إَلاَّ تَخْرُصُونَ} [(١٤٨) سورة الأنعام] **تكذبون على الله فيما ادعيتموه.**

من المناظرات التي ذكرها بعض السلف في هذا قصة ذلك الرجل الذي احتج بالقدر فلطمه صاحبه فلما غضب قال له: هذا شيء قدره الله عليك ولابد من الإيمان بالقدر.

والآخر احتج بحل الخمر قائلاً: ما تقول في الماء والخل؟ فقال له صاحبه: هما حلال، قال: وما تقول في العنب؟ قال: هو حلال، قال: فالخمر إنما هي عنب وماء وخل فلماذا تحرمها؟

قيل له: أرأيت إن أخذت تراباً وألقيته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: فإن أخذت ماءً وصببته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: لو أخذت تبناً فألقيته على رأسك هل يضرك؟ قال: لا، قال: أرأيت لو أني جمعت التراب وبللته بالماء ثم وضعت معه التبن فتماسك وتركته حتى جف ثم بعد ذلك ضربت به رأسك، هل يضرك؟ قال: إذن تقتلني؟ فقال: هكذا إذاً الخمر، هي عنب وماء يترك حتى يشتد ويلقي بالزبد ويصير مسكراً فإذا شربته حصل من ذلك الأثر والضرر منه.

وقوله تعالى: {قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ} [(١٤٩) سورة الأنعام] **يقول تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: قل لهم يا محمد {فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} أي: له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى وإضلال من ضل {فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ}** [(١٤٩) سورة الأنعام] **فكل ذلك بقدرته ومشيئته واختياره، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ويبغض الكافرين كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى}** [(٣٥) سورة الأنعام] **وقال تعالى: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ}** [(٩٩) سورة يونس].

وقوله: {وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} [(١١٩) سورة هود] **قال الضحاك: لا حجة لأحد عصى الله، ولكن لله الحجة البالغة على عباده.**

وقوله تعالى: {قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ} [(١٥٠) سورة الأنعام] **أي: أحضروا شهداءكم {الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا}** [(١٥٠) سورة الأنعام] **أي: هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه {فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ}** [(١٥٠) سورة الأنعام] **أي: لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً.**

{وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [(١٥٠) سورة الأنعام] **أي: يشركون به ويجعلون له عديلاً.**

"هلمَّ" في قوله: **{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ}** [(١٥٠) سورة الأنعام] يعني أحضروا، فبعضهم يقول: إنها مركبة من كلمتين، أو من حرفين، وبعضهم يقول: إنها مركبة من "هل" الاستفهامية" و "أُمّ" يعني هل أقصد كذا؟، لكن لكثرة الاستعمال قيل هلُمَّ، وبعضهم يقول غير هذا، فأهل اللغة مختلفون في أصلها وفي تركيبها، وعلى كل حال هي بهذا المعنى اسم فعل، وأسماء الأفعال -كما هو معلوم- تأتي بمعنى الأمر أحياناً كقولك: صه يعني

أنصت، وقولك: مَهْ بمعنى كُفَّ، وكذلك تقول: هلم يعني أقبل، ومن أسماء الأفعال قول: "بخٍ" فهي كلمة تدل على استحسان الشيء، والله أعلم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٢)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام].

قال داود الأودي عن الشعبي عن علقمة عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} [(١٥١) سورة الأنعام] إلى قوله: {لَعَلَّكُمْ تتقونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام][(١)].

وروى الحاكم في مستدركه عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} الآيات، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[(٢)].

وروى الحاكم أيضاً في مستدركه عن عبادة بن الصامت -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((أيكم يبايعني على ثلاث؟)) ثم تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} حتى فرغ من الآيات، فمن وفّى فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله وحرموا ما رزقهم الله وقتلوا أولادهم -وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم- قل لهم: {تَعَالَوْاْ} أي: هلموا وأقبلوا {أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم، حقاً لا تخرصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذه الآيات مشتملة على هذه الوصايا المعروفة بالوصايا العشر، وتعرف أيضاً بالآيات المحكمات، وكثير مما تضمنته هذه الآيات من الوصايا مذكور في الوصايا التي في سورة الإسراء من قوله -تبارك وتعالى-: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ

---

[1] - أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب تفسير سورة الأنعام (٣٠٧٠) (ج ٥ / ص ٢٦٤) والطبراني (١٠٠٨٠) (ج ١٠ / ص ٩٣) وقال الشيخ الألباني: ضعيف الإسناد.

[2] - أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٢٣٨) (ج ٢ / ص ٣٤٧) وصححه الذهبي في التلخيص.

{وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا} [(٢٣) سورة الإسراء] إلى آخر ما ذكره الله –عز وجل– مع وجود بعض الفروق.

وهذه الآيات التي في الأنعام مبدوءة بقوله –تبارك وتعالى–: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ}** [(١٥١) سورة الأنعام]، وهناك قال الله –عز وجل–: **{وَقَضَى رَبُّكَ}** [(٢٣) سورة الإسراء] أي: حكم ووصى، وما أشبه ذلك من المعاني.

ومن أهل العلم كالطاهر بن عاشور –رحمه الله– من يذكر في الفروقات بين هذه الآيات وتلك أن آيات الأنعام لما كانت خطاباً للمشركين وهم بُعداء عن الحق أصلاً قال لهم: **{قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ}** [(١٥١) سورة الأنعام] والتي في الإسراء كان الخطاب فيها متوجهاً إلى الداخلين في الإسلام فقال: **{وَقَضَى رَبُّكَ}** [(٢٣) سورة الإسراء].

وقوله: **{تَعَالَوْاْ}** يعني أقبلوا، وأصل هذه الكلمة تقال ممن كان في علو لمن هو منسفل عنه وكأنه يدعوه إلى أن يرتفع، ثم صارت تستعمل في الطلب والنداء بإطلاق، بمعنى أقبل.

وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذه الوصايا موجودة في التوراة، وذكروا ترجمتها وأنه يقول: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكون لك إله غيري، ويقول: أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض.. لا تقتل لا تزنِ لا تسرق لا تشهد على قريبك شهادة زور، ولا تشتهِ بنت قريبك، ولا تشتهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك.

{وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا} [(٣٦) سورة النساء] وكأن في الكلام محذوفاً دلَّ عليه السياق وتقديره: وأوصاكم ألا تشركوا به شيئاً.

في الإسراء يقول: **{وَقَضَى رَبُّكَ}** [(٢٣) سورة الإسراء] فلفظة "قضى" تأتي لمعانٍ كثيرة إلا أنها هنا مضمنة لمعنى وصّى؛ لأن القضايا المذكورة بعد هذا اللفظ متضمنة لأمور منهي عنها ولأمور مأمور بها، ولا يجمع ذلك إلا الوصية بخلاف ما إذا فسر "قضى" بمعنى أوجب، فالوصية تقول فيها: افعل كذا وافعل كذا ولا تفعل كذا ولا تفعل كذا.

ولهذا قال في آخر الآية: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام] وفي الصحيحين من حديث أبي ذر –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول –صلى الله عليه وسلم–: ((أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق؟ قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر))[٣].

وفي بعض المسانيد والسنن عن أبي ذر –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((يقول تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك

---

[3] – أخرجه البخاري في كتاب الجنائز – باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١١٨٠) (ج ١ / ص ٤١٧) ومسلم في كتاب الإيمان – باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ومن مات مشركا دخل النار (٩٤) (ج ١ / ص ٩٤).

عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك))[4] ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء} [(٤٨) سورة النساء].

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ((من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة))[5] والآيات والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

وقوله تعالى: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً، أي: أن تحسنوا إليهم، كما قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] وقرأ بعضهم: (ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) [(٢٣) سورة الإسراء].

هذه القراءة في الإسراء وهي ليست متواترة، لكنها دليل على تفسير قوله: {وَقَضَى} بمعنى وصَّى.

وقوله: {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [(٢٣) سورة الإسراء] أي: أمركم أن تحسنوا إليهم إحساناً.

أي أحسنوا إليهم والله تعالى كثيراً ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قال: {أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} [(١٤-١٥) سورة لقمان] فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما.

وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً} الآية [(٨٣) سورة البقرة]، والآيات في هذا كثيرة.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي العمل أفضل؟ قال: ((الصلاة على وقتها)) قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين)) قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله)) قال ابن مسعود: حدثني بهن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولو استزدته لزادني[6].

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد فقال تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله تعالى عنه- أنه سأل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الذنب أعظم؟ قال: ((أن تجعل لله نداً وهو خلقك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك)) قلت: ثم أي؟ قال: ((أن

---

[4] - أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات - باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده (٣٥٤٠) (ج ٥ / ص ٥٤٨) وصححه الألباني.

[5] - أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله (١١٨١) (ج ١ / ص ٤١٧) ومسلم في كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ومن مات مشركاً دخل النار (٩٣) (ج ١ / ص ٩٤).

[6] - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب فضل الجهاد والسير (٢٦٣٠) (ج ٣ / ص ١٠٢٥) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥) (ج ١ / ص ٨٩).

تزاني حليلة جارك)) ثم تلا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ} الآية [(٦٨) سورة الفرقان[7].

وقوله تعالى: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] قال ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- وقتادة والسدي وغيره هو الفقر، أي ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل.

وقال في سورة الإسراء: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] أي: لا تقتلوهم خوفاً من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك: {نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم} [(٣١) سورة الإسراء] فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم فهو على الله، وأما في هذه الآية فلما كان الفقر حاصلاً قال: {نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] لأنه الأهمّ هاهنا، والله أعلم.

يقول تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] الولد كما هو معلوم يصدق على الذكر والأنثى، والمشهور أنهم كانوا يقتلون البنات خشية العار، وذلك لا ينافي قوله هنا: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وفي الإسراء: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] لأنهم كانوا يخشون أن تفتقر البنت ثم تضطر إلى بيع عرضها، هذا هو الذي عرف في التاريخ، أي أنهم كانوا يخشون أن تفتقر ثم بعد ذلك يضيع شرفها:

إذا تـذكرت بنتـي حـين تنـدبني ... جرت لعبرة بنتـي عبرتـي بـدمِ
مخافة الفقـر يومـاً أن يلـم بهـا ... فيكشف الستر عن لحم على وضم
أخشى فظاظـة عـم أو جفـاء أخٍ ... وكنت أخشى عليها من أذى الكلـم
تهوى حياتي وأهوى موتها شـفقا ... والموت أكرم نزَّال علـى الحـرم

فهو يقول: أخشى أنها تفتقر ويجفوها أخوها وعمها فتضطر إلى كشف سترها ثم بعد ذلك تبيع عرضها وتهتك شرفها بسبب الحاجة.

والآخر كان عنده بنت اسمها أميمة يقول:

أميمة تهوى عـيش شـيخ يـسره ... لهـا المـوت لـو أنهـا تـدري

الثالث كان عنده بنت يقولون: إن اسمها الجرباء يقول:

إنّـي وإن سـيق إلـيَّ المهـر ... ألـفٌ وعبـدان وذودٌ عـشر

أحبّ أصهاري إليّ القبر

هكذا كانوا يصنعون خوفاً من ضياع الشرف، وفعلهم ذلك كله موافق لما ذكره الله -عز وجل- عنهم بقوله: {خَشْيَةَ إِمْلاقٍ} [(٣١) سورة الإسراء] وقوله: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهو نهي أن يحمل هذا الفقر على ما لا يليق من شدة غيرتهم، وربما قتلوا بعض الذكور بسبب الفقر أيضاً كما هو معروف في التاريخ.

---

7 - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [(٦٧) سورة المائدة] (٧٠٩٤) (ج ٦ / ص ٢٧٣٩) ومسلم في كتاب الإيمان - باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده (٨٦) (ج ١ / ص ٩٠).

وفي قوله -تبارك وتعالى-: {مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] المعنى المشهور الذي عليه عامة أهل العلم من المفسرين ومن أهل اللغة أنه الفقر، يقال: أملق الرجل يعني لم يبق له إلا المَلَقات، والمَلَقات يقصد بها الحجارة الملساء أو الحصى أي ليس له مال كما يقال: لم يبق له إلا التراب، وكما يقال: تربت يداه، ورغم أنفه وما أشبه ذلك.

وبعضهم يفسره بالإنفاق أي أن قوله: {وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ} [(١٥١) سورة الأنعام] يعني لا تقتلوهم لأجل النفقة، ولكن هذا فيه بعد والله تعالى أعلم، فالقرآن إنما يحمل على المعنى المشهور المتبادر ولا يحمل على معنى خفي أو مغمور إلا بدليل يجب الرجوع إليه، والله تعالى أعلم.

والمعنى الذي ذكره ابن كثير في الفرق بين آية الأنعام وآية الإسراء في التقديم والتأخير هو معنى لطيف، وهو من لطائف القرآن، وهو الذي يسمونه بالمتشابه اللفظي، وقد أُلِّفت فيه مصنفات خاصة مثل كتاب "البرهان" للكرماني، ومثل كتاب "درة التنزيل وغرة التأويل" للإسكافي، ومثل كتاب "ملاك التأويل" لابن الزبير الغرناطي، ومثل كتاب "متشابه القرآن" لزكريا الأنصاري.

هذه الكتب تُعنَى بأمثال هذه الآيات، ومن أمثلة المتشابه اللفظي قوله تعالى: {فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا} [(٩٧) سورة الكهف] ولماذا قال في سورة الأنفال: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [(١٠) سورة الأنفال] وقال في آل عمران: {وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [(١٢٦) سورة آل عمران] ويعتني بهذا الجانب أيضاً بعض المفسرين ممن يُعنون بالجوانب البلاغية كالطاهر بن عاشور في تفسيره، وأمثاله.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] كقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [(٣٣) سورة الأعراف] وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

يعني ما يقال هناك يقال هنا إلا أنه هنا صرح بذكر الفواحش، وذكرنا في بعض المناسبات السابقة أن من أهل العلم من يقول: إن الفاحشة إذا عرفت باللام فإنها بمعنى الزنا وما في معناه، وإذا ذكرت منكرة فهي الذنب العظيم، وإذا ذكرت مقيدة كقوله تعالى: {بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ} [(١٩) سورة النساء] فإنه يراد بها عقوق الزوج، هكذا قال بعض أهل العلم، لكن قد لا يكون هذا هو المعنى المترجح في تفسير الفاحشة، فالفاحشة كل ذنب عظيم، وأطلقت كثيراً في عرف الاستعمال على الزنا وما في معناه، والله -عز وجل- في سورة الإسراء لما نهى عن قتل الأولاد قال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى} [(٣٢) سورة الإسراء] وذلك أنهم كانوا يقتلون الأولاد خشية الفقر من أجل أن لا تضطر أن تبيع عرضها، وهنا نهى عن مقارفة الفواحش فقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] كما سبق في قوله: {وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ} [(١٢٠) سورة الأنعام].

وقوله: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا} يعني ما كان علانية مما كانوا يفعلونه مع البغايا المجاهرات ذوات الرايات في دور البغاء، يعني مما كان علانية لا يُسره ولا يخفيه صاحبه.

وقوله: {وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] يعني ما خفي مثل الزنا مع الخليلات، وما يفعله الإنسان خلسة مما لا يظهره للناس، هكذا يقال والله تعالى أعلم، فكل ما كان ظاهراً من الزنا أو مقارفة الفواحش فهو داخل في قوله: {مَا ظَهَرَ مِنْهَا} وكل ما كان يفعل خفية فإنه داخل في قوله: {وَمَا بَطَنَ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– وهو يجمع ما ذكره المفسرون مما ورد من عبارات السلف –رضي الله عنهم– في معناها.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا أحد أغير من الله؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهرمنها وما بطن))[٨].

وقال عبد الملك بن عمير عن ورَّاد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة –رضي الله تعالى عنه وأرضاه–: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح.

قوله: "**لضربته بالسيف غير مصفح**" يعني سيضربه بحد السيف لا بعرضه؛ لأن ضربه بعرضه لا يقتل غالباً، بل يكون كأنما ضربه بعصا، فإذا أراد أن يضربه بالسيف ضرباً يؤدبه فيه دون أن يقتله فقد يضربه بعرض السيف، وإذا أراد قتله ضربه بحده.

قال سعد بن عبادة –رضي الله تعالى عنه–: لو رأيت مع امرأتي رجلاً لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقال: ((أتعجبون من غيرة سعد، فوالله لأنا أغير من سعد والله أغير مني؛ من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن)) أخرجاه[٩].

وقوله تعالى: {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [(١٥١) سورة الأنعام] وهذا مما نص –تبارك وتعالى– على النهي عنه تأكيداً، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الحافظ ابن كثير –رحمه الله– حمل الفواحش على أعم معانيها أي أنها كل ذنب عظيم، والزنا وما في معناه يدخل فيها دخولاً أولياً.

فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول –صلى الله عليه وسلم–: ((لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة))[١٠].

هذا الحصر الوارد في هذا الحديث من أهل العلم من يقف عنده ويقول: لا يحل قتل المسلم إلا بهذه الثلاث، وعرفنا مراراً أن هذا النوع من الحصر –بالنفي والاستثناء– هو أقوى أنواع الحصر كما سبق قريباً في قوله

---

[8] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٨) (ج ٤ / ص ١٦٩٦) ومسلم في كتاب التوبة – باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش (٢٧٦٠) (ج ٤ / ص ٢١١٣).

[9] – أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قول النبي –صلى الله عليه وسلم– ((لا شخص أغير من الله)) (٦٩٨٠) (ج ٦ / ص ٢٦٩٨) ومسلم في كتاب اللعان (١٤٩٩) (ج ٢ / ص ١١٣٦).

[10] – أخرجه البخاري في كتاب الديات – باب قول الله تعالى: {أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [(٤٥) سورة المائدة] (٦٤٨٤) (ج ٦ / ص ٢٥٢١) ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات – باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) (ج ٣ / ص ١٣٠٢).

تعالى: **{قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ}** [(١٤٥) سورة الأنعام] وسبق أنه ورد في السنة تحريم أشياء أخرى غير التي في هذه الآية.

وكذلك ورد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- الحكم بالقتل على أمور أخرى غير ما في هذا الحديث كقوله -صلى الله عليه وسلم- في الساحر: ((حد الساحر ضربة بالسيف))[11] وكقوله -صلى الله عليه وسلم-: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به))[12] إلى غير ذلك مما ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كشارب الخمر في المرة الرابعة.

وقد جاء النهي والزجر والوعيد في قتل المعاهد، وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري عن عبد الله بن عمرو -رضي الله تعالى عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرفوعاً: ((من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما))[13].

وعن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفاً)) رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حسن صحيح[14].

من قتل معاهداً أو مستأمناً أعطي أماناً ولو من امرأة أو أيٍّ من آحاد المسلمين ففيه هذا الوعيد ((لم يرح رائحة الجنة)) وهذا يدل على أن الإنسان أبعد ما يكون عن الخير وعن التقرب إلى الله -عز وجل- بهذا الأمر، فكيف بمن يطلب الجنة بمثل هذه الأمور -نسأل الله العافية- ولذلك يقال: من كان هذا حاله فإنه قد زُيِّن له سوء علمه فرآه حسناً مهما ذكر من الأعذار؛ لأن آحاد الناس إذا أعطوا أحداً من الكفار أماناً أو عهداً فإنه يلزم الوفاء به، فالله المستعان.

وقوله: {ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [(١٥١) سورة الأنعام] أي: هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه.

يعني أن الأمر والنهي المؤكد يقال له وصية، تقول: أوصيك بكذا، وأوصيك بكذا وكذا، فهذه الأمور الله -تبارك وتعالى- يؤكد على التزامها والتمسك بها وعدم الإخلال بها، والله المستعان.

---

[11] - أخرجه الترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باب ما جاء في حد الساحر (١٤٦٠) (ج ٤ / ص ٦٠) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٦٩٩) وأما الترمذي فقال: "لا نعرفه إلا مرفوعاً من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري قال وكيع: هو ثقة، ويروي عن الحسن أيضاً، والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- وغيرهم وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملاً دون الكفر فلم نر عليه قتلاً" وقال الحاكم: صحيح غريب، ووافقه الذهبي.

[12] - أخرجه أبو داود في كتاب الحدود - باب فيمن عمل عمل قوم لوط (٤٤٦٤) (ج ٤ / ص ٢٦٩) والترمذي في كتاب الحدود عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١٤٥٦) (ج ٤ / ص ٥٧) وابن ماجه في كتاب الحدود - باب من عمل عمل قوم لوط (٢٥٦١) (ج ٢ / ص ٨٥٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٤٢٢).

[13] - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب إثم من قتل ذمياً بغير جرم (٦٥١٦) (ج ٦ / ص ٢٥٣٣).

[14] - أخرجه الترمذي في كتاب الديات - باب ما جاء فيمن يقتل نفساً معاهدة (١٤٠٣) (ج ٤ / ص ٢٠) وابن ماجه في كتاب الديات - باب من قتل معاهدا (٢٦٨٧) (ج ٢ / ص ٨٩٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٠٠٩).

العلم -بإذن الله -عز وجل- سياج وحصن حصين من الآفات والشبهات الغلّابة والأهواء المردية، وإلا فإن الإنسان يهلك حيث يبحث عن النجاة ولذلك تجد إنساناً عمره تسع عشرة سنة أو عشرون أو اثنتان وعشرون سنة يفتي في قضايا كبيرة وهو لم يعقل من تلك الأمور شيئاً، فكيف دخل في هذه الأمور وكيف توصل إلى هذه النتائج؟ ولذلك إذا تفكر الإنسان في هذا عرف آفة الجهل كيف تصنع بصاحبها، والله المستعان.

{وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [(١٥٢) سورة الأنعام].

قال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قال: لما أنزل الله: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] و {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} الآية [(١٠) سورة النساء] فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأنزل الله: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ} [(٢٢٠) سورة البقرة] قال: فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم [رواه أبو داود][١٥].

يعني أن لله -عز وجل- وسَّع عليهم وأباح لهم مخالطة الأيتام كما قال الله -تبارك وتعالى- هنا: **{إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٥٢) سورة الأنعام] يعني إلا بالخلة والخصلة التي هي أحسن وأجمل، ويدخل في هذا ما ذُكر هنا من مخالطتهم في طعامهم وشرابهم، وذلك أنهم في السابق تحرجوا في وضع طعام وشراب اليتيم في إناء منفردٍ عن طعامهم وطعام عيالهم لما في ذلك من المشقة الكبيرة فرخص الله -عز وجل- لهم بتقدير طعام اليتيم، ويقدر لنفسه ولعياله ما يحتاجون إليه من الطعام فيخلط الطعام معاً ثم يقدر ما لليتيم وما عليه، فهذه الطريقة هي الصحيحة بدلاً من أن يُرمى باقي الطعام الذي أعد لليتيم وحده باعتبار أن بقاء الطعام إذا وضع للأكل فلم يؤكل يفسده، ولذلك قال الله -عز وجل-: **{وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}** [(٢٢٠) سورة البقرة] بمعنى أن هناك فرقاً بين من يتحرى وقصده حفظ مال هذا اليتيم وبين من يفعل ذلك استغلالاً ومبادرة يريد أن يستحوذ على مال اليتيم قبل أن يكبر ويبلغ أشده.

ويدخل في قوله: **{إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [(١٥٢) سورة الأنعام] تثمير مال اليتيم كما في الحديث: ((اتَّجِروا في أموال اليتامى لا تُذهبها الزكاة))[١٦] والمقصود بتثمير مال اليتيم أن يكون ذلك بالطرق المأمونة، ولو كانت الأرباح قليلة، بمعنى أنه لا يضع أموال اليتيم في مشروعات قد تكون عالية الربح لكنها عالية المخاطرة، مثل الاتجار بالأسهم مثلاً بالطريقة المعروفة فمثل هذا لا يضع فيه مال اليتيم، وكذلك لا توضع أموال اليتامى عند الذين يوظفون أموال الناس زعماً فيعطونهم طعماً لمدة سنوات من أموال المساهمين لا أرباحاً حتى إذا ارتاضت نفوسهم واستحوذ عليهم الطمع أضاعوا أموالهم وأتلفوها، وكم ذهب من أموال اليتامى بمثل هذه

---

[15] - أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا - باب مخالطة اليتيم في الطعام (٢٨٧٣) (ج ٣ / ص ٧٣) وحسنه الألباني.

[16] - أخرجه مالك في موطئه في كتاب الزكاة - باب زكاة أموال اليتامى والتجارة لهم فيها (٨٦٣) (ج ٢ / ص ٣٥٣) موقوفاً على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- وأما رفعه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلم يثبت، انظر ضعيف الجامع للألباني حديث رقم (٨٧).

الطرق، ومن وضعها في مثل هذه المشاريع فهو ضامن، والناس غالباً إذا كان لم يكن المال لهم تساهلوا في صرفه وتصريفه وفي التعامل معه والاتجار به فإن ربح وإلا فإنهم لا يخسرون شيئاً، فالحاصل أن مال اليتيم يُثمَّر ولو بأرباح زهيدة جداً، لكن تكون هذه الطرق في الاستثمار من الطرق المأمونة غالباً.

وفي قوله تعالى في سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا} [(١٠) سورة النساء] عَبَّر بالأكل والمقصود به سائر وجوه الانتفاع لكن لما كان غالب وجوه الانتفاع هو الأكل عبر به وإلا فكما هو معروف عن الأصوليين في مفهوم الموافقة المساوي فإن تغريق مال اليتيم وتحريق مال اليتيم أو صرف مال اليتيم باللعب أو النزهة أو السياحة أو غير هذا، كله داخل في أكل مال اليتيم.

وفي سورة الأنعام نهى عن الاقتراب من مال اليتيم فقال: {وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ} [(١٥٢) سورة الأنعام] ولا شك أن هذا الأسلوب أبلغ من النهي عن أكله؛ لأنك إذا قلت: لا تقرب هذا الشيء فمعنى ذلك أنك تكون بمنأى عنه تماماً.

وقوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] أي بالخصلة التي هي أحسن مثل ما سبق الكلام حول المخالطة والاتجار به.

ومعلوم أن أموال الأيتام يُتصرف فيها لمقتضى المصلحة فيعالج هذا اليتيم من ماله وينفق عليه منه، وإذا كان ولي هذا اليتيم الذي يقوم على شئونه فقيراً فكما قال الله –عز وجل-: {فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ} [(٦) سورة النساء] وهذا داخل في قوله: {إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يعني أنه يأكل ويلبس ما يصلح لمثله دون أن يتوسع في أخذ مال هذا اليتيم والصرف منه فيكون ذلك سبيلاً إلى إتلافه، وإذا كانت المصلحة مقتضية أن يسكن مع اليتيم في داره فإن كان يجد قيمة بأن كان هذا الإنسان غنياً فإنه يحسب مقابل سكنه أجرة يضعها في مال اليتيم وإذا كان فقيراً فإن سكناه إن كانت مبنية على مصلحة اليتيم وليس استغلالاً لضعفه فلا بأس أن يسكن معه من غير أجرة، قال تعالى: {وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ} [(٢٢٠) سورة البقرة].

قوله تعالى: {حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ} [(١٥٢) سورة الأنعام] قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني حتى يحتلم.

بعضهم يقول: حتى يحتلم، لكن المقصود بالبلوغ هنا بلوغ الأشد فبعضهم يقول: إذا بلغ ثماني عشرة سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ خمساً وعشرين سنة، وبعضهم يقول: إذا بلغ الثلاثين، وبعضهم يقول: إذا بلغ الأربعين، وبعضهم يقول: إذا بلغ الخمسين، وهذا كله من بلوغ الأشد، لكنه يكتمل إذا بلغ الإنسان الأربعين، ومن بلغ الخمسين فإنه يقال له أيضاً: قد بلغ أشده لكن لم يبلغ أشده حينما وصل إلى الخمسين وإنما بلغ ذلك قبله، ومن لم يحصل له ذلك من الرشد وبلوغ الأشد في سن الأربعين والخمسين فلا يُرجى له بعد ذلك رشد، والأقرب –والله تعالى أعلم– أن يكون ذلك بمجموع أمرين: الأول: أن يصل إلى سن البلوغ، والثاني: أن يحسن التصرف في المال؛ لأن الله –عز وجل– قال: {وَابْتَلُواْ الْيَتَامَى} [(٦) سورة النساء] أي: اختبروهم {حَتَّىَ إِذَا بَلَغُواْ النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُواْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ} [(٦) سورة النساء] فهو ذكر الأمرين: {بَلَغُواْ النِّكَاحَ} هذا سن البلوغ {فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا} [(٦) سورة النساء] أي: إن علمتم منهم رشداً، يعني حسن التصرف في المال، فيُختبر بأن يُعطى شيئاً من المال ويُنظر كيف يتصرف فيه بأن يعطى خمسين ريالاً مثلاً

فإن رجع فاشترى بها شيئاً لا يفعله الإنسان العاقل الرشيد الذي يحسن التصرف بالمال فمعنى ذلك أنه لم يحِن الوقت لإعطائه المال فيُنتظر مدة ثم يُختبر مرة ثانية، فإن أحسن التصرف دفع إليه ماله.

وقوله تعالى: {وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء، كما توعد على تركه في قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ* وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ* أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١-٦) سورة المطففين] وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان.

وقوله تعالى: {لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا} [(١٥٢) سورة الأنعام] أي: من اجتهد في أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٥٢) سورة الأنعام] كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ} الآية [(٨) سورة المائدة] وكذا التي تشبهها في سورة النساء، يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال.

وقوله: {وَبِعَهْدِ اللّهِ أَوْفُواْ} [(١٥٢) سورة الأنعام] قال ابن جرير: يقول وبوصية الله التي أوصاكم بها فأوفوا، وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله، وذلك هو الوفاء بعهد الله.

{ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [(١٥٢) سورة الأنعام] يقول تعالى: هذا أوصاكم به وأمركم به وأكد عليكم فيه، {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} أي: تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا.

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام].

قوله: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا}** يحتمل أن يكون في موضع نصب بمعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وأن هذا صراطي مستقيماً، يعني في جملة ما أمر أن يتلوه عليهم: وأن هذا صراطي مستقيماً، ويحتمل أن يكون في محل جر هكذا: ذلكم وصاكم به وبأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه. وبعضهم يقول كالخليل وسيبويه: ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل.

وعلى قراءة حمزة والكسائي بكسر همزة "إن" **(وإن هذا صراطي مستقيماً)** يكون على الاستئناف، والله أعلم، يعني كأنه يقول: هذه الوصايا التي ذكرت في هذه الآيات هي صراطي المستقيم.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [(١٥٣) سورة الأنعام] وفي قوله: {أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [(١٣) سورة الشورى] ونحو هذا في القرآن.

قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد.

وروى الإمام أحمد بن حنبل عن عبد الله وهو ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: خط رسول الله -صلى الله عليه وسلم- خطاً بيده ثم قال: ((هذا سبيل الله مستقيماً)) وخط عن يمينه وشماله ثم قال: ((هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)) ثم قرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ

تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} [(١٥٣) سورة الأنعام] وكذا رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه[17].

وروى الإمام أحمد وعبد بن حميد واللفظ لأحمد عن جابر -رضي الله تعالى عنه- قال: كنا جلوساً عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فخط خطاً هكذا أمامه فقال: ((هذا سبيل الله)) وخطين عن يمينه وخطين عن شماله وقال: ((هذه سبل الشيطان)) ثم وضع يده في الخط الأوسط ثم تلا هذه الآية: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [(١٥٣) سورة الأنعام] ورواه أحمد وابن ماجه في كتاب السنة من سننه والبزار[18].

وروى ابن جرير أن رجلاً قال لابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركَنا محمد -صلى الله عليه وسلم- في أدناه وطرفه في الجنة، وعن يمينه جوادّ وعن يساره جوادّ، ثم رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ} الآية [(١٥٣) سورة الأنعام][19].

وروى الإمام أحمد عن النواس بن سمعان -رضي الله تعالى عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك، لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم)) ورواه الترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب[20].

هذه الأشياء المذكورة في الوصايا كالتوحيد وما ذكر بعده من حدود الله -عز وجل- والنهي عن قتل الأولاد ومقارفة الفواحش وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وإيفاء المكيال والميزان، وما أشبه ذلك، هذه تفاصيل شرائع الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، فكلما كان الإنسان محققاً لهذه الشرائع ممتثلاً كلما كان سيره على الصراط مستقيماً، وكلما خرج عنها كان سيره متعثراً، كما قال الحافظ ابن القيم -رحمه الله-: من استقام سيره على هذا الصراط في الدنيا رُجي أن يستقيم سيره على الصراط في الآخرة.

وأما الدعاة الذين يدعون إلى تلك السبل فهم الدعاة إلى جهنم، وكل من دعا إلى ما يخالف الصراط المستقيم فهو من هؤلاء الدعاة أياً كانت دعوته، وهذا كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: مثل ما لا ينقض

---

17 - أخرجه أحمد (٤٤٣٧) (ج ١ / ص ٤٦٥) والحاكم (٢٩٣٨) (ج ٢ / ص ٢٦١) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

18 - أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم - باب اتباع سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- (١١) (ج ١ / ص ٦) وأخرجه أحمد (١٥٣١٢) (ج ٣ / ص ٣٩٧) وعبد بن حميد (١١٤١) (ج ١ / ص ٣٤٥) وصححه الألباني في الظلال برقم (١٦).

19 - أخرجه ابن الأثير في كتابه جامع الأصول (٧٠١٦) (ج ٩ / ص ٣٧١) وذكره السيوطي في الدر المنثور (ج ٣ / ص ٣٨٦).

20 - أخرجه أحمد (١٧٦٧١) (ج ٤ / ص ١٨٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٨٨٧).

الوضوء، يعني لا تستطيع أن تستقصي هذه الأشياء؛ لأن كل دعوة مضلة موجودة أو توجد في المستقبل فهي داخلة في هذا.

وقوله تعالى: {فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ} [(١٥٣) سورة الأنعام] إنما وحَّد سبيله؛ لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [(٢٥٧) سورة البقرة].

مسألة: هل يصح أن يوصف اللقيط باليُتم؟ وهل له أحكام اليتيم؟

اللقيط لا يقال له: يتيم شرعاً، لكن إن كان له مال فحكمه كحكم اليتيم في هذا، وله أيضاً ما يذكر في اليتيم من الحنو عليه والشفقة والإحسان إليه وعدم قهره كما قال تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ} [(٩) سورة الضحى] يقال فيه مثل هذا بل قد يقال: يعامل بذلك من باب أولى؛ لأن اليتيم قد يكون له أم أو أعمام وأقارب وجدّ وما أشبه ذلك، فهو ربما يعيش في أسرة تحوطه، أما اللقيط فهو لا أقارب له في الوجود أصلاً ولا يوجد في قاموسه شيء اسمه أم أو أب أو عم أو خال أو أحد في هذا العالم، ويشعر أنه هباء ليس له أحد، فهو يعيش في مجتمع لا يمت إليه بصلة؛ ولذلك فإن وضع اللقيط أشد من اليتيم، ولذلك إذا وصل إلى سن يميز ويعي فيه بعض الشيء فزاره شخص فاطمأن إليه واستراح له وأحبه فإنه يتعلق بثوبه ويقول: أنت أبي لا تذهب عني!!

وبعض هؤلاء اللقطاء ربما وصل إلى سن البلوغ وتعداه بل ربما وصل إلى سن الزواج -في عرفنا بعد سن العشرين- وهو لا يعرف أنه لقيط لا ينتسب إلى الأسرة التي تربيه ولا يعلم أنه وضع له أسم أب يظن أنه حقيقي، وربما قيل له: إن أهلك قد ماتوا أو نحو هذا فإذا عرف الحقيقة فربما اعترته حالة من الهستيريا، فينهار ويبكي، وهذا شيء يقع ويتكرر ما بين الفينة والأخرى، نسأل الله العافية.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٣)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ* وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(١٥٤-١٥٥) سورة الأنعام].

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [(١٥٣) سورة الأنعام] عطف بمدح التوراة ورسولها، فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله -تبارك وتعالى- أوصى بتلك الوصايا العشر التي ابتدأها بقوله: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [(١٥١) سورة الأنعام] الآيات ثم قال بعدها: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] والتعبير هنا بـــ"ثم" -التي في أصل معناها تفيد الترتيب مع التراخي- قد يسبب إشكالاً أو يثير سؤالاً وهو أن الله -تبارك وتعالى- قد أرسل موسى -صلى الله عليه وسلم- قبل أن يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم- هذه الوصايا، فكيف عبر بذلك فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] مع أن موسى قد أرسله الله -عز وجل- وآتاه الكتاب قبل هذا بزمان بعيد كما هو معلوم؟ ولهذا فإن بعض أهل العلم قال: إن ثم هنا بمعنى الواو، والواو لا تقتضي الترتيب، فقوله: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني وآتينا موسى الكتاب، أي أنه أخبر عن إيتاء موسى الكتاب، فـــ"ثم" هنا تفيد العطف فقط كالواو تماماً.

ومن أهل العلم من يقول: إن هناك مقدراً محذوفاً، والتقدير: ثم كنا قد آيتنا موسى الكتاب تماماً على الذي، و"كان" تدل على الزمن الماضي كما هو معلوم.

ومن أهل العلم من يربط بين الآيات فيقول: إن المعنى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم -وذكر المحرمات- ثم أتلو إيتاء موسى الكتاب تماماً، وعلى هذا يكون قوله: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] من جملة المأمور بتلاوته عليهم، فالمعنى تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم أتل خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- وأن الله آتاه الكتاب.

وبعض أهل العلم يقول: إن هذه الوصايا العشر قديمة أوصى بها الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أقوامَهم، ذكرها الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ثم ذكر بعد ذلك إيتاء الكتاب لموسى، أي أن هذه الوصايا قبل موسى -عليه الصلاة والسلام- أوصىَ بها الأنبياء أقوامهم، فلما ذكر هذه الوصايا القديمة التي يوصي بها الأنبياء،

قال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] وعلى هذا المعنى تكون "ثم" على بابها للترتيب والتراخي، أي أن الوصايا سابقة لإيتاء موسى الكتاب.

وبعضهم يقول: إن "ثم" هنا هي لترتيب الأخبار فقط وليست دالة على ترتيب الوقائع والأشياء الحاصلة في الخارج، وهذا معروف في لغة العرب ومثال ذلك أن تقول: أنت أتيت إلى المسجد، ثم إنك ذهبت إلى السوق، ثم إنك تزوجت، ثم إنك تاجرت فقد لا تكون هذه الأشياء في الخارج مرتبة بهذه الطريقة، وإنما المقصود هو ذكر خبر بعد خبر وإن كان الوقوع ليس بهذه الطريقة في الترتيب، يعني أن "ثم" تفيد الترتيب لكنها هنا لترتيب الأخبار فقط، كقوله تعالى مثلاً –على قول بعض أهل العلم–: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا} [(١٧) سورة البلد] مع أن الإيمان هو أصل في العمل لكن ليس المقصود بذلك الترتيب بحسب الوقوع وإلا لكان مشكلاً.

وكبير المفسرين ابن جرير –رحمه الله– يقول بقول من قال بالتقدير، أي أن فيه مقدراً محذوفاً لكن المقدر المحذوف عند ابن جرير –رحمه الله– هكذا: ثم قل بعد ذلك يا محمد: آتى ربك موسى الكتاب، يعني أن الله أمره بأن يتلوَ الوصايا العشر ثم يقول: إن ربي آتى موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن.

هذه الأقوال كلها تحتملها الآية، والجميع يعلم أن إيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يخبر الله –عز وجل– محمداً –صلى الله عليه وسلم– عن هذه القضايا، ولذلك فإن هذا قطعاً لا يدل على ترتيبها بحسب الوقوع.

وقول من قال: إن هذه الوصايا قديمة كان يوصي بها الأنبياء أقوامهم لا دليل عليه، بل غاية ما نعلم أن هذه الوصايا كانت موجودة في التوراة، أما الادعاء بأنها كانت موجودة قبلُ، ثم قال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] بعد ما كان يوصي بها الأنبياء فهذا بعيد.

وقول من قال: إنها لترتيب الأخبار قول له وجه قريب من النظر، ولعله أقرب هذه الوجوه، وهذا له نظائر في القرآن، والله تعالى أعلم.

لما أخبر الله سبحانه عن القرآن بقوله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ} [(١٥٣) سورة الأنعام] عطف بمدح التوراة ورسولها فقال: {ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ} [(١٥٤) سورة الأنعام].

وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى: {وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا} [(١٢) سورة الأحقاف] وقوله أول هذه السورة: {قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا} الآية [(٩١) سورة الأنعام] وبعدها: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} الآية [(٩٢) سورة الأنعام].

وقال تعالى مخبراً عن المشركين: {فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى} [(٤٨) سورة القصص] قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ} [(٤٨) سورة القصص] وقال تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا: {يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ} الآية [(٣٠) سورة الأحقاف].

وقوله تعالى: تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً} [(١٥٤) سورة الأنعام] أي: آتيناه الكتاب الذي أنزلناه إليه {تَمَامًا} [(١٥٤) سورة الأنعام] كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته، كقوله: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ} الآية [(١٤٥) سورة الأعراف].

يعني أن قوله: {تَمَامًا} [(١٥٤) سورة الأنعام] يمكن أن يكون مصدراً، تقول: تمّ تماماً، ويمكن أن يكون مفعولاً لأجله، أي: آتينا موسى الكتاب لأجل التمام، والله أعلم.

وقوله تعالى: {عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ} [(١٥٤) سورة الأنعام] أي: جزاء على إحسانه في العمل وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله: {هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} [(٦٠) سورة الرحمن] وكقوله: {وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا} [(١٢٤) سورة البقرة] وكقوله: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} [(٢٤) سورة السجدة].

في قوله: **{عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ}** [(١٥٤) سورة الأنعام] قال: "**أي جزاء على إحسانه في العمل، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا**".

عامة أهل العلم على أن "أحسن" فعل ماض، وهذا هو الظاهر المتبادر، وعلى هذا فالذي أحسن يحتمل أن يكون موسى -عليه الصلاة والسلام- وهذا هو الذي مشى عليه ابن كثير، والمعنى أنه أحسن في طاعة الله والاستجابة لأوامره والانقياد لربه -تبارك وتعالى- وعليه فقوله: **{الَّذِيَ أَحْسَنَ}** يكون صفة لموسى -صلى الله عليه وسلم- وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى: **{تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ}** [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني تتميماً لنعمتنا عليه، وذلك أنه أحسن في طاعة ربه فصارت نعمة الله عليه سابغة تامة، إذ امتن الله عليه بالإيمان والقبول والإذعان والعمل الصالح وفوق ذلك أيضاً آتاه الكتاب.

هذا هو المعنى الذي مشى عليه ابن كثير، وهو الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير الطبري -رحمه الله-.

ومن أهل العلم من يقول: إن "الذي" من قوله: **{تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ}** [(١٥٤) سورة الأنعام] اسم موصول، والأسماء الموصولة سواء كانت مفردة أو مثناة أو مجموعة فإنها من صيغ العموم كقوله تعالى: **{وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا}** [(١٧) سورة الأحقاف] -على أحد المعنيين- يعني كل من وقع منه هذا القول، فالأسماء الموصولة هي للعموم، فمن أهل العلم من أجرى الاسم الموصول هنا على العموم ليكون معنى **{تَمَامًا عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ}** [(١٥٤) سورة الأنعام] يعني: الذين أحسنوا بالعمل الصالح والإيمان أتم الله -عز وجل- عليهم النعمة، وبعث موسى -صلى الله عليه وسلم- وآتاه الكتاب، أي أن قوله: **{عَلَى الَّذِيَ أَحْسَنَ}** [(١٥٤) سورة الأنعام] لا يرجع إلى موسى -صلى الله عليه وسلم- فحسب وإنما يرجع إلى كل من اتصف بهذه الصفة، ويؤيد هذا المعنى قراءة غير متواترة في الآية **(تماماً على الذين أحسنوا)** [(١٥٤) سورة الأنعام].

ومن أهل العلم من يرجع الضمير المستتر إلى الله -عز وجل- وعليه يكون الكلام "ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن الله إليه" وذلك أن كل نعمة تحصل للعبد -حسية أو معنوية- هي بإحسان الله -تبارك وتعالى- وإفضاله على العبد.

لكن المعنى الأول أكثر تبادراً وأقرب، وهو الذي يلوح من ظاهر هذه الآية، والله تعالى أعلم، أي أن موسى -صلى الله عليه وسلم- أتم الله عليه النعمة بعد أن كان محسناً منقاداً مطيعاً لربه -تبارك وتعالى- فأنزل عليه الكتاب وكان ذلك تتميماً للنعمة عليه.

وقوله تعالى: {وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً} [(١٥٤) سورة الأنعام] فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه {لَّعَلَّهُم بِلِقَاء رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ} [(١٥٤) سورة الأنعام].

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [(١٥٥) سورة الأنعام] فيه الدعوة إلى اتباع القرآن، يرغب -سبحانه- عباده في كتابه ويأمرهم بتدبره والعمل به والدعوة إليه، ووصفه بالبركة لمن اتبعه وعمل به في الدنيا والآخرة؛ لأنه حبل الله المتين.

في قوله: **{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}** تحمل لفظة "مبارك" على أعم معانيها فيقال: هذا كتاب عظيم البركات لمن اتبعه في الدنيا وفي الآخرة، كما قال بعض أهل العلم: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات، أي أنه يبارك للعبد في وقته وفي عمله وفي بذله، وفي شئونه كلها، فهو يتقلب في بركة إذا كان يعيش مع هذا القرآن ويشتغل بهذا القرآن، وتحصل له البركة أيضاً بتوفيق الله -تبارك وتعالى- له إلى ألوان الخيرات، وتحصل له أيضاً أنواع الهدايات إضافة إلى ما يحصل له في الآخرة من الأجور والدرجات العلى، فهذا القرآن مبارك.

وتوجد كثير من الأشياء لا نجد لها تفسيراً إلا أنها من بركة الاشتغال بالقرآن، فبعض الناس يبذل جهوداً بسيطة تنتج عنها أمور عظيمة لا تفسير لها فيما يظهر إلا بركة هذا القرآن، فمن ذلك المدارس النسائية وما فيها من جهود عجيبة لا أجد تفسيراً لكثير مما يجريه الله -عز وجل- على أيديهن إلا بركة القرآن فقط، فمن اشتغل بالقرآن غمرته البركات؛ لأنه كتاب مبارك وعزيز كما وصف الله -عز وجل-، ومن عزته أنه لا يوفق لمعانيه ولا تفتح مغاليقه على القلوب المعرضة عنه والمشتغلة بغيره من اللهو أو العلوم التي هي دونه، أو نحو ذلك مع الغفلة عن هذا القرآن، وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- إلى ذلك فيما ينقله بعضهم عند قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة))[1] ومما قال: كذلك القلوب إذا كانت تحمل أخلاق الكلاب فإن الملائكة لا تدخلها بالمعاني الطيبة، والله المستعان.

{أَن تَقُولُواْ إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ* أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ} [(١٥٦-١٥٧) سورة الأنعام]

قال ابن جرير: معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا: إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، يعني لينقطع عذركم كقوله تعالى: {وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ} الآية [(٤٧) سورة القصص].

هذا الذي ذكره ابن جرير -رحمه الله- هو من أحسن ما قيل فيها، وقريب من هذا قول من قال: كراهية أن تقولوا، يعني كراهية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي لئلا تقولوا ذلك يعني لنقطع عذركم ونقيم عليكم الحجة.

وقوله تعالى: {عَلَى طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا} [(١٥٦) سورة الأنعام] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-: هم اليهود والنصارى، وكذا قال مجاهد والسدي وقتادة وغير واحد.

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه فإن في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء (٣١٤٤) (ج ٣ / ص ١٢٠٦) ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحـوه وأن الملائكة -عليهم السلام- لا يدخلون بيتاً فيه صورة ولا كلب (٢١٠٦) (ج ٣ / ص ١٦٦٥).

وقوله: {وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ} [(١٥٦) سورة الأنعام] أي: وما كنا نفهم ما يقولون؛ لأنهم ليسوا بلساننا ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه.

قوله: **{وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ}** [(١٥٦) سورة الأنعام] يعني عن تلاوتهم؛ لأنا لا نعرف لغتهم، ولذلك أنزل الله -عز وجل- هذا الكتاب بلغتهم، قال تعالى: **{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}** [(٢) سورة الجمعة].

وقوله: {أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي: وقطعنا تعللكم أن تقولوا: لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنَّا أهدى منهم فيما أوتوه، كقوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ} الآية [(٤٢) سورة فاطر].

هذا القسم عزم منهم أنهم سيتبعون النذير لكن حتى لو كانوا صادقين حينما قالوه فإنه عند الامتحان قد لا يستطيعون تحقيق هذا أو لا يوفقون إليه أو لا تنهض هممهم للقيام به؛ فالإنسان يعزم لكنه قد ينثني عزمه عند المطالبة بالشيء، ومن صور ذلك أن بني إسرائيل قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، فلما بعث إليهم الملك انثنت عزائمهم.

وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- قالوا: وددنا أنا لو علمنا أحب الأعمال إلى الله فنعمل به فقال الله -عز وجل-: **{إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}** [(٤) سورة الصف] فتثاقلوا في ذلك، ومن ذلك ما حكى الله عن الذين كانوا يطالبون ويبدون رغبتهم وعزمهم على جهاد عدوهم بقوله: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ}** [(٧٧) سورة النساء] فلما كتب عليهم القتال قالوا: **{رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ}** [(٧٧) سورة النساء].

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في كثير من كتبه الفرق بين العزم على الصبر وبين الصبر، فالإنسان في كثير من الأحيان يقول: لو حصل كذا لفعلت كذا، ولو كان لي مال لتصدقت به فإذا أعطي من المال مثل أموال قارون فربما بخل وأمسك ما في يده، وبعضهم يقول: لو أني أصبت بمرض أو نحوه لكنت صابراً لم أجزع جزع فلان، فإذا أصيب فربما يقع له من الجزع أضعاف ما يقع لغيره ممن كان ينكره، والله المستعان.

وهكذا قال هاهنا: {فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ} [(١٥٧) سورة الأنعام] يقول: فقد جاءكم من الله على لسان محمد -صلى الله عليه وسلم- النبي العربي قرآن عظيم فيه بيان للحلال والحرام وهدى لما في القلوب ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ويقتفون ما فيه.

وقوله تعالى: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي: لم ينتفع بما جاء به الرسول ولا اتبع ما أرسل ولا ترك غيره بل صدف عن اتباع آيات الله، أي: صرف الناس وصدهم عن ذلك، قاله السدي، وعن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- ومجاهد وقتادة {وَصَدَفَ عَنْهَا}: أعرض عنها.

على قول السدي: صدَّ غيره تكون "صدف" متعدية، أي صرف غيره وصده عن الإيمان، وعلى قول مجاهد وقتادة بمعنى أعرض تكون "صدف" لازمة أي أعرض في نفسه ولم يؤمن بها، فالآية تحتمل المعنيين؛ لأن

صدف تأتي لازمة وتأتي متعدية في كلام العرب أصلاً، وابن جرير -رحمه الله- فسرها باعتبار أنها لازمة لكن قد توجد في الآية قرينة تدل على أنها متعدية لكن هذا لا يقطع به؛ لأن الآية تحتمل المعنى الآخر احتمالاً قريباً، والقرينة في نفس الآية هي أنه قال قبل: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي كذب بها فهذا كفره بها، فيكون معنى {وَصَدَفَ عَنْهَا} يعني صد غيره عن الإيمان بها، ويمكن أن يؤيد هذا المعنى جملة من الآيات كقوله تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [(٢٦) سورة الأنعام] أي: ينأون بأنفسهم وينهون غيرهم عن الإيمان، وكقوله تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى* عَبْدًا إِذَا صَلَّى* أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى* أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى} [(٩-١٢) سورة العلق] يعني هو في نفسه بعيد وكذلك ينهى عن الخير والإيمان وطاعة الله -عز وجل-.

ومما يؤيد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ} [(٨٨) سورة النحل] يعني الذين كفروا في أنفسهم وصدوا غيرهم، فهذه الآيات هي كقوله تعالى هنا: {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا} [(١٥٧) سورة الأنعام] أي كذب هو بآيات الله وصد غيره عن الإيمان بها، فعلى كل حال هذا القول تؤيده مثل هذه النصوص، والآية -كما سبق- فيها القرينة التي ذكرنا، والقول الذي قبله هو قول تحتمله الآية احتمالاً قريباً أيضاً، والقول بأنها متعدية هو الذي صرح الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بترجيحه حيث ذكر القولين ثم قال: وهذا أقوى القولين، أي باعتبار أنها متعدية، وهذا القول أيضاً هو الذي اختاره من المعاصرين الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- والله أعلم.

{هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٥٨) سورة الأنعام]

يقول تعالى متوعداً للكافرين به والمخالفين لرسله والمكذبين بآياته والصادِّين عن سبيله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} وهذا كائن يوم القيامة {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا} [(١٥٨) سورة الأنعام] وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها.

قوله: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ} يحتمل أن يكون المعنى أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم، وهذا المعنى هو الذي رجحه ابن جرير -رحمه الله-، ويحتمل أن يكون ذلك بناء على اقتراحهم وطلبهم فيأتيهم العذاب معه، كما اقترحوا هم وقالوا: {لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا} [(٢١) سورة الفرقان] فرد الله -عز وجل- عليهم بقوله: {لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا} [(٢١) سورة الفرقان] ثم قال: {يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا} [(٢٢) سورة الفرقان] ولهذا قال بعض أهل العلم: إن المراد بإتيان الملائكة في الآية يعني في اليوم الآخر كقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا* الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} [(٢٥-٢٦) سورة الفرقان] فيكون تنزل الملائكة في الآخرة.

وقوله: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي يأتي ربك لفصل القضاء، ولا يصح أن يفسر بمجيء الملائكة أو مجيء أمر الله -عز وجل-؛ لأنه أضاف الإتيان إليه -سبحانه وتعالى- ولا يجوز صرف القرآن عن

ظاهره وحمل ذلك على مجاز الحذف كما يقولون إلا بدليل، ولا يوجد دليل فوجب أن يقال: إن الله –عز وجل– يأتي يوم القيامة لفصل القضاء.

وذلك قبل يوم القيامة كائن من أمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة.

قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني يأتي بعض أشراط الساعة كما ذكر ذلك الحافظ ابن كثير –رحمه الله– وكما سيأتي أن المراد بها طلوع الشمس من مغربها، وهذا ما عليه عامة المحققين من أهل العلم من المفسرين وغيرهم.

ومن أهل العلم من قال: إن الآيات المشار إليها في قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني الآيات التي اقترحوها وذلك أنهم اقترحوا أن ينزل عليه ملك فيكون معه نذيراً أو نحو ذلك، فإذا نزلت هذه الآيات وتحققت فالإيمان يكون ملجأً، يعني أن ذلك لا مجال معه للمكابرة إطلاقاً ولذلك في هذه الحال لا ينفع الإيمان، ولهذا قال الله –عز وجل–: **{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ}** [(٣) سورة البقرة] فإذا رأوا هذه الآيات التي اقترحوها فعندئذ يكون الإيمان ملجأً لا ينفعهم، ولكن في هذا القول نظر؛ لأن الله –عز وجل– قد أنزل آيات على الأنبياء فآمن من آمن فنفعهم الإيمان، ونزول هذه الآيات لا يقال: إنه لا ينفع معه إيمان، فالمعجزات إنما نزلت من أجل إقامة الحجة على الخلق وإثبات النبوة فينفع الإيمان معه، والخلاصة أن قوله: **{يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}** يعني طلوع الشمس من مغربها، والله أعلم.

كما روى البخاري في تفسير هذه الآية عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل))[٢].

هذا التفسير من قبيل التفسير النبوي الذي لا احتمال فيه ولا يدخله الاجتهاد، وقد صحَّ ذلك عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فلا يلتفت إلى قول من سواه كقول من قال: إن المقصود بها الآيات المقترحة أو غير ذلك، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– ذكر أن الآية في هذا المقام طلوع الشمس من مغربها وقال: ((فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) فالقول الآخر وإن قال به جماعة من أهل العلم من السلف لكنه مخالف لصريح ما ثبت عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– في تفسير الآية.

وروى ابن جرير عن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض))[٣] ورواه أحمد وعنده: ((والدخان))[٤].

روى الإمام أحمد عن عمرو بن جرير قال: جلس ثلاثة نفر من المسلمين إلى مروان بالمدينة فسمعوه وهو يحدث عن الآيات يقول: إن أولها الدجال، قال: فانصرفوا إلى عبد الله بن عمرو –رضي الله تعالى عنهما–

---

[2] – أخرجه البخاري في كتاب التفسير – باب تفسير سورة الأنعام (٤٣٥٩) (ج ٤ / ص ١٦٩٧) ومسلم في كتاب الإيمان – باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٧) (ج ١ / ص ١٣٧).

[3] – أخرجه مسلم في كتاب الإيمان – باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٨) (ج ١ / ص ١٣٨).

[4] – مسند أحمد (٩٧٥١) (ج ٢ / ص ٤٤٥).

فحدثوه بالذي سمعوه من مروان في الآيات فقال: لم يقل مروان شيئاً، حفظت من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: ((إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة ضحى فأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها)) ثم قال عبد الله -وكان يقرأ الكتب-: وأظن أولها خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وذلك أنها كلما غربت أتت تحت العرش وسجدت واستأذنت في الرجوع فأذن لها في الرجوع حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها فعلت كما كانت تفعل -أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع- فلم يرد عليها شيء، ثم استأذنت في الرجوع فلا يرد عليها شيء.

قوله: "**حتى إذا بدا الله أن تطلع من مغربها** " يعني حتى إذا أراد ذلك.

حتى إذا ذهب من الليل ما شاء الله أن يذهب وعرفت أنه إذا أذن لها في الرجوع لم تدرك المشرق قالت: رب ما أبعد المشرق؟ من لي بالناس؟ حتى إذا صار الأفق كأنه طوق استأذنت بالرجوع فيقال لها: من مكانك فاطلعي، فطلعت على الناس من مغربها، ثم تلا عبد الله هذه الآية: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} الآية [(١٥٨) سورة الأنعام] وأخرجه مسلم في صحيحه وأبو داود وابن ماجه في سننيهما[٥].

بعض من يتكلم بالتفسير العلمي والإعجاز يقول عند هذه الآية: إن هناك تناقصاً محسوباً في الحركة وهو مستمر مطرد حتى يأتي يوم من الأيام فتخرج من مغربها، فقال أحد الحاضرين: إذن نستطيع أن نحسب هذا وبالتالي نعرف متى تطلع الشمس من مغربها، يعني نعرف متى يوم القيامة؟! فقال: لا، ليس الأمر كذلك؛ لأنه قد تحصل أمور في الكون تسرع بهذا الموضوع أو تبطئه، فالمعنى أنه لو استمر الوضع على ما هو عليه فإننا نستطيع أن نعرف متى القيامة بالضبط، وهذا كلام غريب.

ومنهم من لا يفهم أن الشمس تسجد تحت العرش فهذا مما لا يصل إلى عقولهم، بل يضيق عَطَنُهم عنه تماماً، حتى كأن الحديث لم يرد أصلاً، فهم لا يفهمون إلا أن المسألة عبارة عن هذا البطء المحسوب ثم بعد ذلك تكون النتيجة الطبيعية أنها تطلع من الغرب وانتهى الأمر عند هذا الحد.

لا يعرفون مسألة السجود تحت العرش ولا أنها تُحبس ثم يقال لها: ارجعي من حيث أتيت، وإذا جئت تناقشهم قالوا: إن هذا الذي يقولونه ليس تفسيراً أصلاً.

المقصود: أن هذا الحديث ((أول الآيات خروجاً طلوع الشمس)) فيه إشكال؛ لأن خروج الدجال يكون قبل طلوع الشمس من مغربها، ولهذا قال بعض أهل العلم: الآيات منها ما هي آيات سماوية ومنها ما هي آيات أرضية، فأول الآيات السماوية هي طلوع الشمس من مغربها، وأول الآيات الأرضية هي خروج الدجال، وأما الدابة فإن خروجها يكون قريباً من طلوع الشمس من مغربها حيث تخرج ضحى، وعموماً فالآيات الكبرى تتابع.

وقد تكلم العلماء على مسألة طلوع الشمس من مغربها هل إذا طلعت ترجع إلى حالتها الأولى بعد ذلك، حتى قال بعض أهل العلم: إن ذلك يستمر حتى يتناسى الناس ذلك اليوم الذي خرجت فيه من مغربها ويرجع الكافر

---

[5] - أخرجه مسلم مختصراً في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخيـر (٢٩٤١) (ج ٤ / ص ٢٢٦٠) وأحمد بطوله في المسند (٦٨٨١) (ج ٢ / ص ٢٠١).

إلى كفره والعاصي إلى معصيته وعندئذ يقبل العمل، وهذا قول فيه نظر ولا دليل عليه، بل الأصل أنها إذا خرجت من مغربها فالحال كما قال الله -عز وجل-: **{لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة الأنعام] يعني لا ينفعها لا في تلك الحال ولا بعدها فذلك هو الحد الذي لا يقبل فيه الإيمان ولا التوبة بالنسبة لعموم الخلق، وأما بالنسبة لكل إنسان فلا ينفعه الإيمان إذا بلغت الروح الحلقوم بخلاف ما إذا كان في مرض الموت، ولذلك فالنبي -صلى الله عليه وسلم- دعا أبا طالب في مرض موته قائلاً له: ((كلمة أحاج لك بها عند الله))[٦] وذلك قبل أن يصل إلى الغرغرة، والله أعلم.

وبالنسبة لحديث أبي هريرة -رضي الله عنه: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها، طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض))[٧] فأمر الدابة قد سبق أنها تكون قريبة جداً من طلوع الشمس من مغربها لكن ذكْر خروج الدجال لا يخلو من إشكال، ولذلك تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- على هذه القضية كلاماً جيداً أطال فيه حيث تكلم على هذه الروايات وذكر كلام أهل العلم ورجح بينها وذلك في تفسيره الذي كان يلقيه في المسجد النبوي وليس في أضواء البيان.

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] إذا أرادت أن تجدد الإيمان بعد إتيان بعض تلك الآيات لا ينفع منها ذلك الإيمان، وجماهير علماء التفسير والأحاديث الصحيحة دلت على أن المراد ببعض الآيات التي إذا جاءت لا يُقبل إيمانٌ من كافر ولا توبة من عاصٍ، أن المراد بها طلوع الشمس من مغربها؛ لأن الشمس ستطلع يوماً من مغربها يقيناً كما تواترت به الأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ثابت في الصحاح -في الصحيحين وغيرها- وفي صحيح البخاري أنها إذا طلعت من مغربها فرآها الناس آمن جميع من على وجه الأرض ولم يكن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، وهذا فيه إشكالات معروفة؛ لأن الأحاديث الصحيحة هنا فيها إشكالات معروفة، ونحن في الحقيقة لم نرَ من حرر المقام فيها تحريراً شافياً؛ لأن كون الآية التي إذا أتت هي طلوع الشمس من مغربها هذا ثابت في الصحيحين وفي غيرهما وهو يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات وأن مجيء الدجال يُقبل بعده إيمان الكافر وتوبة العاصي.

ونزول عيسى يقبل بعده إيمان الكافر كما قال تعالى: {وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ} [(١٥٩) سورة النساء] وهذا يدل على أن طلوع الشمس من مغربها ليس أول الآيات، ويشكل عليه حديثان ثابتان في صحيح مسلم وغيره، فإنه في صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها)) وفي صحيح مسلم أنه قيل لعبد الله بن عمرو: إن مروان بن الحكم يقول: إن أول الآيات خروج الدجال، فقال: ما قال مروان شيئاً، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها)) وهذا الحديث مشكل إذا كان طلوع الشمس من مغربها قبل الدجال، والعلماء مجمعون على أنه لا إيمان يقبل من كافر بعد طلوع الشمس من مغربها، إذن يكون زمن الدجال

---

[6] - أخرجه البخاري في كتاب التفسير - باب تفسير سورة براءة (٤٣٩٨) (ج ٤ / ص ١٧١٧).

[7] - سبق تخريجه.

وعيسى ابن مريم –عليه السلام– لا تنفع فيه الأعمال، وهذا مخالف لظواهر النصوص الكثيرة؛ ففي حديث عبد الله بن عمرو –رضي الله تعالى عنهما– هذا أعظم إشكال.

ومن الأحاديث المشكلة أيضاً ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه–: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل)) ثم ذكر الثلاث: الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها. وهذا يدل على أنه لا توبة تقبل بعد مجيء الدجال، وهذا خلاف الظاهر المعروف من النصوص، فحديثا مسلم هذان مشكلان جداً على قوله: {يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا} [(١٥٨) سورة الأنعام] وعلى ما عليه جمهور العلماء من أنه طلوع الشمس، والإشكال في هذه الأحاديث لم نجد من حرر المقام فيه تحريراً شافياً يجب الرجوع إليه.

والذي يظهر لنا أن الآيات العظام نوعان، فقد ثبت في صحيح مسلم أن الآيات الكبار عشر، وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري –رضي الله تعالى عنه– أن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: ((لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات))[٨] وهذه الآيات العشر عند العلماء هي العلامات الكبار، ثم عدها النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما روى عنه مسلم من حديث حذيفة بن أسيد الغفاري –رضي الله تعالى عنه– وعدَّ منها ثلاثة خسوف: خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، وخروج الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وخروج دابة الأرض وطلوع الشمس من مغربها والدخان، وهذا الدخان الذي ذكره مسلم في صحيحه هنا، قال بعض العلماء: إنه هو المذكور في سورة الدخان وأنه لم يأتِ إلى الآن وأنه هو في قوله: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ} [(١٠) سورة الدخان] قالوا: وهو دخان يمكث أياماً يأخذ بنفس الكافر ويأخذ المؤمن منه شبه الزكام، وأنه من العلامات التي ستأتي، ولم يأتِ إلى الآن.

وكان عبد الله بن مسعود –رضي الله تعالى عنه– يقول: إن الدخان المذكور قد مضى وهو ما أصاب ربيعة ومضر من الجوع لما دعا النبي –صلى الله عليه وسلم– عليهم وقال: ((اللهم اشدد وطأتك على مضر، الله اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف))[٩] وأنهم جاءهم من الجوع ما أكلوا معه العلهز، والعلهز: شيء كانوا يصنعونه من الوبر والدم يأكلونه عند شدة الحاجة، كأن الإنسان لشدة الجوع يخيل له أن أمام عينيه شبه الدخان، وأن ذلك الذي يخيل لعينيه مما يشبه الدخان من شدة الجوع أنه هو معنى {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ} [(١٠) سورة الدخان] أي: فيما تظنه أعينهم من شدة القحط والجوع.

هذا تفسير عبد الله بن مسعود وطائفة من العلماء للدخان، وفسره جماعة آخرون بالدخان الذي عده مسلم في الآيات العشر العظام التي هي: الدخان، والدابة، والدجال، وخروج يأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم –وفي بعض الروايات بدل نزول عيسى ابن مريم ريح تلقيهم في البحر –

---

8 – أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة – باب في الآيات التي تكون قبل الساعة (٢٩٠١) (ج ٤ / ص ٢٢٢٥).

9 – أخرجه البخاري في كتاب الدعوات – باب الدعاء على المشركين (٦٠٣٠) (ج ٥ / ص ٢٣٤٨) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة – باب استحباب القنوت في جميع الصلاة إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥) (ج ١ / ص ٤٦٦).

وخسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب، وآخرها نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس، أو ترحل الناس إلى المحشر.

هذه الآيات العشر، أما الأحاديث الصحيحة الثابتة في أنه تخرج نار بالحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى فهذه قد مضت بلا نزاع، وهي النار التي اشتعلت في الحرة، واشتعالها وتاريخ اشتعالها معروف فقد فاتت، وهي من معجزاته -صلى الله عليه وسلم-.

وكان الشيخ ابن الجوزي يقول: إن الخسوف الثلاثة قد مضت، وأنه وقع في عراق العجم خسف عظيم هو خسف المشرق، هلك فيه خلق عظيم، وأنه وقع كذلك في المغرب، ويزعم أنه وقع في جزيرة العرب.

فعلى كل حال هذه الآيات العشر هي التي ذكرها مسلم في صحيحه أنها الآيات العظام -العلامات الكبرى للقيامة- وقد بيّنا أن جل علماء التفسير والأحاديث الصحيحة تبيّن أن بعض الآيات التي إذا أتت لا ينفع نفساً إيمانها أنه طلوع الشمس من مغربها، وستطلع من مغربها يقيناً بلا شك؛ لأن الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم- بيّن أنها ستطلع من مغربها بروايات صحيحة لا مطعن فيها وهو الصادق المصدوق لا يقول إلا الحق، وطلوعها من مغربها أكبر دليل على تخريف وخرق أصحاب الهيئة الكذابين الذين يقولون: إن حالة الشمس والقمر دائبة لا تتغير ولا يعروها تغيُّر، فسيرى الحاضرون منهم لذلك الوقت أنها تتغير وأنها تطلع صباحاً من مغربها كما كانت تطلع من مشرقها، ويعلمون أن لها صانعاً حكيماً مدبراً هو الذي يجريها كيف يشاء على النحو الذي يشاء.

ووجه إشكال حديثي مسلم أن حديث عبد الله بن عمرو الثابت في صحيح مسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن أول الآيات طلوع الشمس من مغربها))[10] وطلوع الشمس من مغربها لا خلاف بين العلماء أنه من بعض الآيات التي إذا جاءت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل، فيلزم على هذا الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه لا إيمان ولا توبة أيام الدجال وعيسى، وهذا خلاف التحقيق، فالحديث مشكل.

والحديث الثاني: هو ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: ((ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً)) وذكر الثلاث فقال: ((الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها)) فعلى مقتضى هذا الحديث الثابت في صحيح مسلم أن العمل لا يقبل أيضاً بعد الدجال، وهو خلاف الظاهر والتحقيق.

وقد ذكرنا أنا لم نرَ ممن تكلموا على أحاديث مسلم من شفا الغليل في هذا شفاء واضحاً تتفق به الأحاديث مع الواقع، والذي يظهر لنا -والله تعالى أعلم- أن الآيات الكبار العظام على نوعين، أحدهما: آيات أرضية تدل على حدوث أمور عظام هائلة في العالم السفلي والأرض، وأول هذه: الدجال كما كانوا يقولونه؛ لأن الدجال ينزل قبل نزول عيسى ابن مريم، أو أول هذه الآيات العظام الدجال؛ لأن الدجال يدرك عيسى ابن مريم فيقتله، وبعض العلماء يقول: إن عيسى ابن مريم ينزل قبل الدجال ويصلي مع إمام المسلمين المهدي

---

[10] - سبق تخريجه.

الذي ثبتت الأحاديث الصحاح به، وعقد له أبو داود كتاباً باسم المهدي وهو أيضاً آتٍ لا محالة وإن أنكره من أنكره؛ لأن الأحاديث الصحيحة ثابتة بمجيئه عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ثبوتاً لا مطعن فيه، فأول الآيات الأرضية العظام نزول الدجال؛ لأن الدجال أكبر حادث يقع في الأرض وأعظم فتنة تقع في الأرض، وقد صرحت الأحاديث أنه منذ خلق الله الدنيا لم تقع في الأرض فتنة أعظم من الدجال؛ لأن معه ناراً ونهراً، وناره ماء ونهره نار، ولأنه يأتي القوم فيصدقونه فيقول للسماء: أمطري، وللأرض: أنبتي، فتطيعه في ذلك، فتروح سارحتهم أعظم ما كان ضروعاً وأمدَّه خواصر، ويُحيي للرجل أباه وأمه، ويشق الرجل نصفين حتى يروه نصفين ثم يجمع بين نصفيه فيرون أنه يحييه، وهو أعظم فتنة في الأرض، كأن -مثلاً- من قال: إن أول الآيات خروجاً الدجال يعني أول الأحداث الأرضية التي تكون في الأرض تؤذن بأمور عظام، وقرب انقضاء الدنيا، وأن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات التي هي من العالم العلوي، المؤذنة بزوال العالم العلوي وانقضائه، فيكون كون الشمس أول الآيات يعني باعتبار ما هو من جنسها، كتغيير العالم العلوي، ويكون الدجال أول الآيات باعتبار العالم الأرضي.

وعلى كل حال فالشمس إذا طلعت من مغربها أغلق باب التوبة، وطلوع الشمس والدابة مترادفان، بينهما قليل، جاء في بعض الأحاديث أن الشمس إذا طلعت من مغربها خرجت الدابة ضحى[11].

والدابة هي التي يأتي ذكرها في النمل في قوله: {وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ} [(٨٢) سورة النمل] وفي القراءة الأخرى: (إن الناس كانوا بآياتنا) الآية.

وقال بعض العلماء: والحكمة في إتيان الدابة بعد الشمس أن الشمس إذا طلعت من مغربها ختم على الأعمال، ولم يقبل من كافر إيمان، ولم يقبل من عاص توبة، وانقطع تجديد إيمان جديد أو توبة جديدة، فيرسل الله بعد ذلك الدابة فتكتب على جبهة كل إنسان "سعيد" أو "شقي" يعرفه من يراه، لتبيّن حال الناس عند انقطاع أعمالهم من هو الكافر منهم ومن هو السعيد.

والحاصل: أن أكثر أهل العلم والأحاديث الصحيحة دلت على أن الآية التي إذا جاءت لا يقبل من أحد إيمان هو طلوع الشمس من مغربها وفيها أحاديث كثيرة، وفيها حديث أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- المشهور: أنها تسير كل يوم فتسجد لمستقر لها تحت العرش، ثم تستأذن فيؤذن لها فترجع، فإذا كان اليوم الذي يريد الله طلوعها من مغربها تستأذن فلا يؤذن لها[12].

ويقول المفسرون وبعض المحدثين: إن تلك الليلة تطول جداً، وينتظر الناس الصباح فيطول عليهم الليل، فتستأذن الشمس فيقال لها: اطلعي من مغربك، فتصبح طالعة للناس من مغربهم، فإذا رأوها آمن جميع من في الأرض وعلموا أن للكون خالقاً حقاً، ولم يبق أحد منهم إلا وهو مؤمن، وذلك الوقت لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً.

---

11 - أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب في خروج الدجال ومكثه في الأرض ونزول عيسى وقتله إياه وذهاب أهل الخير (٢٩٤١) (ج ٤ / ص ٢٢٦٠) وأحمد بطوله في المسند (٦٨٨١) (ج ٢ / ص ٢٠١).

12 - أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق - باب صفة الشمس والقمر بحسبان (٣٠٢٧) (ج ٣ / ص ١١٧٠).

وذهب بعض العلماء ونصره أبو عبد الله القرطبي أنها بعد طلوعها من مغربها سترجع إلى عادتها وتطلع من مشرقها، وترجع الدنيا إلى حالها، وأنه إذا تقادم عهدها وصار الناس يسمعون بخبرها أنها حينئذ تُقبل توبة الكافر إذا تاب والعاصي إذا تاب، وهذا قال به بعض العلماء، ولكنه خلاف التحقيق؛ لأن ظاهر الأحاديث الكثيرة والآية الكريمة أنه بعد إتيان الآية لا ينفع نفساً إيمانها، وهو نفي مطلق إلى يوم القيامة.

وقال بعض العلماء: تؤمر الحفظة بطي الصحف وطرح الأقلام ولا ينفع أحداً عمل، ويختم على كلٍ بعلمه.

وقوله: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] يفهم منه أن النفس التي طلعت عليها الشمس من مغربها وهي مؤمنة من قبلُ أنها في خير، وعلى خير وأن إيمانها نافع لها.

وقوله: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام] يفهم منه أن النفس المؤمنة التي كانت تعمل الخير أنها في خير وعلى خير، وأما النفس التي كانت مؤمنة ولم تعمل في إيمانها الخير بأن كانت ترتكب المعاصي وتخالف الله ثم أرادت عند طلوع الشمس أن تتدارك ذلك بالتوبة فلا يقبل ذلك منها؛ لقوله: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام].

كان بعض العلماء يقول: من طلعت الشمس من مغربها وهو على الاستقامة وطاعة الله كتب له ما كان يفعل دائماً، وهذا القول وإن كان ظاهر الآية لا يساعد عليه إلا أنه غير بعيد؛ لأنه دلت نصوص أخر على أن الإنسان المواظب على الخير إذا عاقه عنه عائق كمرض أو سفر أنه يكتب له ما كان يواظب عليه من الخير إذا عاقه عنه مرض.

من أراد أن ينظر في استعداد كثير من الناس لاتِّباع الدجال الأكبر فلينظر إلى حالهم في هذا العصر في إتباعهم للدجالين وكيف كان حالهم يوم صاح بهم دجال العصر –نسأل الله العافية–: "ومن لم يكن معنا فهو ضدنا" فإنهم تهافتوا عليه وانجفلوا وهو لا يملك عشر ما يملكه الدجال الأكبر الذي يشق الرجل نصفين ثم يحييه من جديد، ويمر على الأرض الخربة ويقول: أخرجي كنوزك فتتبعه كيعاسيب النحل، ويمر على القوم ممحلين فيطيعونه، ويمر على القوم لا يستجيبون له فيحصل لهم الجدب، فتلك أعظم فتنة، فإذا كان الناس تهافتوا في هذا الزمان على من هو دون الدجال الأكبر ممن يهددهم بالحصار الاقتصادي أو يهددهم أنه يقاتلهم –وقد يتورط فينهزم– فكيف بالدجال الأعظم الذي لا قبل لهم به، نسأل الله العافية؟

فالثبات على المبادئ أمر مهم جداً؛ لأن الذين يثبتون على مبادئهم هذه الأيام هم الذين يرجى لهم الثبات إذا خرج الدجال الأكبر، والله المستعان.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الأنعام (٢٤)

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال المفسر -رحمه الله تعالى-: فقوله تعالى: {لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه توبته؛ كما دلت عليه الأحاديث المتقدمة، وعليه قوله تعالى: {أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [(١٥٨) سورة الأنعام] أي: ولا يقبل منها كسب عمل صالح إذا لم يكن عاملاً به قبل ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فهذه الآية دلت على أن الكافر لا ينفعه الإيمان إذا طلعت الشمس من مغربها، وأن المؤمن إذا كان مفرطاً مضيعاً تاركاً للعمل ثم تاب إلى الله -عز وجل- بعد رؤيته لهذه الآية العظيمة فإنه لا ينفعه ذلك ولا يقبل منه هذا العمل، وإنما الذي ينفعه العمل هو الذي يكون مؤمناً قبل طلوع الشمس من مغربها ويكون قد كسب في إيمانه خيراً، أما إذا طلعت الشمس من المغرب فتوبة الكافر من الكفر لا تنفعه، وتوبة المضيع لحدود الله -عز وجل- كذلك لا تنفعه؛ لأن باب التوبة يغلق يومئذٍ، وهذا هو معنى قوله تعالى: **{أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا}** [(١٥٨) سورة الأنعام] -والله تعالى أعلم- فمن تحقق فيه الشرطان -الإيمان والعمل الصالح- قبل طلوع الشمس من مغربها فإن أعماله الصالحة بعد ذلك تنفعه وتقبل منه، وبعبارة أخرى لا بد من توفر شرطين قبل طلوع الشمس من مغربها هما الإيمان والعمل الصالح، والمقصود بالإيمان الانقياد والتصديق والإقرار، وعليه فالكافر لا تنفعه توبته من الكفر إذا طلعت الشمس من مغربها، والمؤمن لا تقبل توبته من المعاصي والذنوب إذا طلعت الشمس من مغربها، أما بقية الأعمال الصالحة لمن كان مؤمناً قد كسب في إيمانه خيراً فإنه يستمر على عمله الصالح ويقبل منه ذلك العمل الصالح، أما من كان مؤمناً لا يعمل صالحاً فإنه لا تقبل منه التوبة بالعودة إلى الأعمال الصالحة، وكذا التوبة من الأعمال السيئة إذا تاب بعد طلوع الشمس من مغربها؛ لأن باب التوبة يغلق للآية والأحاديث التي دلت على ذلك.

وقوله تعالى: {قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} [(١٥٨) سورة الأنعام] تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك، وإنما كان هذا الحكم عند طلوع الشمس من مغربها لاقتراب الساعة وظهور أشراطها كما قال: {فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاء أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ} [(١٨) سورة محمد] وقوله تعالى: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ* فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا} الآية [(٨٤-٨٥) سورة غافر].

الأشراط جمع شرط وهي العلامات، وعلامات الساعة التي ظهرت هي العلامات الصغرى، ومن ذلك بعث النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] **قال مجاهد وقتادة والضحاك والسدي: نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى.**

وقال العوفي عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- في قوله: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا} [(١٥٩) سورة الأنعام]: **وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد -صلى الله عليه وسلم- فتفرقوا، فلما بُعث محمد -صلى الله عليه وسلم- أنزل الله عليه: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} الآية** [(١٥٩) سورة الأنعام].

يقول تعالى: **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا}** هذه قراءة الجهور، وفي قراءة حمزة والكسائي: **(إن الذين فارقوا دينهم)** يعني تركوه، وأما قراءة: **{فَرَّقُواْ دِينَهُمْ}** فإنه يوضحه ما بعده من قوله: **{وَكَانُواْ شِيَعًا}** والمقصود بالشيَع: جمع شيعة وهي الطائفة التي ينصر بعضها بعضاً ويقوي بعضها بعضاً ويتشيَّع بعضها لبعض، فقوله: **{فَرَّقُواْ دِينَهُمْ}** يعني أنهم صاروا متفرقين في دينهم مختلفين على طوائف ونحل لم يجتمعوا في أمر الدين وإنما أحدثوا ما أحدثوا وبدلوا ما بدلوا، فصاروا منقسمين إلى طوائف متناحرة.

ومن أهل العلم من يقول: إن قوله: **{فَرَّقُواْ دِينَهُمْ}** يعني أنهم آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وهذا الصنيع -إذا كان يؤمن ببعض ويكفر ببعض- لا شك أنه يؤدي إلى الانقسام والتفرق، وقد قيل: من وافق عقده عقدك وافق قلبه قلبك ومن خالف عقده عقدك خالف قلبه قلبك، فالناس أسرى لمعتقداتهم، فلا بد أن يحصل بينهم الافتراق والانقسام بناء على هذا الاختلاف، فهذا أمرٌ لا بد من وقوعه، وعلى كل حال فإن قوله: **{فَرَّقُواْ دِينَهُمْ}** يدخل فيه ما أحدثوا فيه حيث كفروا ببعض وآمنوا ببعض، فصاروا بهذا الاعتبار على طوائف، ويدخل فيه أيضاً، ما اختلفوا فيه من الدين الاختلاف المذموم الذي حولهم إلى نحل وطوائف ومذاهب شتى يضلل بعضها بعضاً.

وإذا كانت هذه الآية في أهل الكتاب إلا أنه يدخل في هذا الذم كل من وقع في هذه الصفة؛ لأن هذا الذم متوجه إلى وصف مذموم فمن تلبس به من أهل البدع والأهواء من هذه الأمة فإن ذلك يشمله، وذلك أن الانقسام والافتراق والاختلاف على نوعين كما هو معلوم، فالصحابة اختلفوا في أمور من مسائل الدين والأحكام، واختلفوا في بعض المسائل العلمية، ولم يؤدِّ ذلك إلى التقاطع والتدابر، ولم يتحولوا إلى فرق، وإن كان اختلافهم في بعض القضايا أدى بهم إلى الاقتتال إلا أنهم مع ذلك لم يتحولوا إلى فرق كالعلوية والمعاوية، أو الشامية والعراقية أو البيتية أو غير هذا، لم يحصل هذا إطلاقاً بل كانوا يترضون عن بعضهم ويدعو بعضهم لبعضن وقلوبهم بقيت سليمة لإخوانهم، حتى إن عائشة -رضي الله عنها- لما جاءت في جيش أهل الشام قال عنها عمار وعلي -رضي الله عنهما-: والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا وفي الآخرة ولكن ابتليتم بها" فما أدى ذلك بهم إلى تكفيرهم وتضليلهم لبعض، ولهذا فإن ضابط الاختلاف المذموم الذي ذكره كثير من أهل العلم هو أن يصاحبه هوى يؤدي إلى التدابر والتقاطع، وهكذا يُذم خلاف الجهلة الذين يجعلون من الخلاف في بعض المسائل خلافاً يؤدي إلى التفرق.

ومنه أيضاً ما يعرف بخلاف التنوع الذي لا يذم أصلاً، لكنه إن خالفه الهوى وحصل بسببه التدابر والتقاطع فإنه يدخل في هذا، ومعنى اختلاف التنوع أن يكون هذا له اهتمام بالعلم، وهذا له اهتمام بالفقراء والمحتاجين، وهذا له اهتمام بالدعوة، وهذا له اهتمام بالجهاد ونحو ذلك، فإذا أدى هذا الاختلاف إلى تقاطع وتدابر بحيث يقرّب كل فريق من وافقه على عمله أو عمِل بعمله ويجفو على من لم يشتغل بهذا العمل، فهذا من الاختلاف المذموم، وهو داخل في عموم هذه الآية **{إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا}** [(١٥٩) سورة الأنعام] فهي وإن كانت في أهل الكتاب إلا أن ذلك يشمل كل من تلبس بهذا الوصف القبيح، والله المستعان.

والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه {وَكَانُواْ شِيَعًا} [(١٥٩) سورة الأنعام] أي: فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برَّأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

حمْل الآية على العموم وأن أهل البدع يدخلون فيها، هذا هو الذي مشى عليه ابن كثير -رحمه الله- وهو الذي اختاره ابن جرير أيضاً، وبه قال طائفة من السلف، بل صرح بعض السلف أنها في أهل البدع أي أنها وإن كانت في أهل الكتاب لكن أهل البدع يدخلون في هذا المعنى، والله أعلم.

فإن الله تعالى قد برأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مما هم فيه، وهذه الآية كقوله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} الآية [(١٣) سورة الشورى].

في قوله: **{لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ}** [(١٥٩) سورة الأنعام] يقول ابن كثير: "**فإن الله برأ رسوله -صلى الله عليه وسلم- مما هم فيه**" وبعضهم يقول: معناها لست من تفرقهم في شيء، وبعضهم يقول: يعني لست من السؤال عنهم في شيء، بل الله هو الذي يتولى حسابهم أما أنت فعليك البيان والبلاغ وليس لك من شأن هؤلاء شيء، ولا يلزمك من ذلك شيء، فلا تسأل عنهم وعن سبب تفرقهم، وبعضهم يقول: أي لست من عقابهم في شيء فعقابهم على الله -عز وجل- لكن الأقرب -والله تعالى أعلم- أن ذلك من تبرئته -صلى الله عليه وسلم- منهم حيث جرت عادة العرب أنهم يتبرءون ممن أساء، بالقول: لست مني في شيء، أو أنا بريء من عملك، أو أنا لست من عملك هذا في شيء، والله تعالى أعلم.

وفي الحديث: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))[1] فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرسل برآء منها كما قال الله تعالى: {لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ} [(١٥٩) سورة الأنعام].

وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] **كقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} الآية [(١٧) سورة الحج].**

---

[1] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: **{وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا}** [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى -عليه السلام- (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧).

قوله: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} [(١٥٩) سورة الأنعام] يعني ليس عليك من حسابهم من شيء، فالله هو الذي يتولى عقابهم.

وبعض العلماء يقول: هذه الآية منسوخة بآية السيف، وقد عرفنا مراراً أن آية السيف لم تنسخ هذا القدر من الآيات التي تدل على الإعراض والعفو والصفح عن هؤلاء المسيئين وما أشبه ذلك، فقوله -تبارك وتعالى-: {إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ} برّأ نبيه -صلى الله عليه وسلم- ثم أخبر أن أمرهم إليه وأنه هو الذي يتولى حسابهم، وهذا لا ينفي أن الله -عز وجل- أمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- بالجهاد، فلا منافاة بين هذا وهذا، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مأمور بالجهاد لمن لم يؤمن بالله -عز وجل- ورسوله -صلى الله عليه وسلم- كما قال الله -عز وجل-: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [(٢٩) سورة التوبة] فإذا دفع هؤلاء الذين تتحدث الآية عنهم الجزية تُركوا، ويبقى أن الله هو الذي يتولى حسابهم بعد ذلك.

ثم يبيّن لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة، فقال تعالى: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [(١٦٠) سورة الأنعام] وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى وهي قوله: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا} [(٨٤) سورة القصص] وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية، كما روى الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال فيما يروي عن ربه -تبارك وتعالى-: ((إن ربكم -عز وجل- رحيم، من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له واحدة، أو يمحوها الله -عز وجل- ولا يهلك على الله إلا هالك)) ورواه البخاري ومسلم والنسائي[٢].

قوله: ((ولا يهلك على الله إلا هالك)) كما قيل: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، فالحسنة بعشر أمثالها، وفي الآية الأخرى قال عن الإنفاق: {مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء} [(٢٦١) سورة البقرة] وأخبر عن الصبر فقال: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ} [(١٠) سورة الزمر] وفي الصيام يقول النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه -جل وعلا-: ((إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به))[٣] وهو من الصبر، ولذلك يقول هنا: ((ولا يهلك على الله إلا هالك)) لأن السيئة بواحدة والحسنة بعشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، فكيف به، وما معنى أن يأتي وسيئاته أكثر من حسناته في الميزان لا سيما وأن الحسنة تعظم والصدقة يربيها الله -عز وجل-؟!

وروى أحمد أيضاً عن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يقول الله -عز وجل- من عمل حسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئة فجزاؤها مثلها أو أغفر،

---

[٢] - أخرجه الدارمي في كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة (٢٧٨٦) (ج ٢ / ص ٤١٣) والنسائي في السنن الكبرى (٧٦٧٠) (ج ٤ / ص ٣٩٦) وهذا لفظهما، ورواه البخاري في كتاب الرقاق - باب من هم بحسنة أو بسيئة (٦١٢٦) (ج ٥ / ص ٢٣٨٠) ومسلم في كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٣١) (ج ١ / ص ١١٨) و أحمد (٢٥١٩) (ج ١ / ص ٢٧٩).

[٣] - أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب ما يذكر في المسك (٥٥٨٣) (ج ٥ / ص ٢٢١٥)ومسلم في كتاب الصيام - باب فضل الصيام (١١٥١) (ج ٢ / ص ٨٠٦).

ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إليَّ شبراً اقتربت إليه ذراعاً ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة)) ورواه مسلم[٤].

واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام: تارة يتركها لله، فهذا تكتب له حسنة على كفِّه عنها لله تعالى، وهذا عمل ونيّة، ولهذا جاء أنه يكتب له حسنة، كما جاء في بعض ألفاظ الصحيح: ((فإنما تركها من جرائي))[٥] أي: من أجلي، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها، فهذا لا له ولا عليه؛ لأنه لم ينوِ خيراً ولا فعل شراً، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها كما جاء في الحديث الصحيح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار)) قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصاً على قتل صاحبه))[٦].

هذا التقسيم الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في مسألة ترك السيئات تقسيم جيد، ويمكن أن يزاد عليه، فالإنسان في تركه للسيئة من حيث الأجر والثواب أو العقاب أو أن لا تكون له ولا عليه على أنواع، النوع الأول: هو النوع الذي يثاب عليه، وذلك أن يكون هم بسيئة، والهم قد يكون بمعنى ما يخطر في البال، -حديث النفس كما قال الله -عز وجل- في هم يوسف -صلى الله عليه وسلم-: **{وَهَمَّ بِهَا}** [(٢٤) سورة يوسف] فهو من باب الخطرات، لكن الأكثر في الاستعمال لمادة "همَّ" هو انبعاث النفس إلى الفعل دون أن يصل ذلك إلى حد العزم المصمم، أما الخطرات فإن الغالب أن الهم لا يطلق عليها في عرف الاستعمال، فالحاصل أن الخطرات لا يحاسب عليها.

يقول عليه الصلاة والسلام-: ((ومن هم بسيئة فلم يعملها)) خوفاً من الله -عز وجل- فإنه يثاب، تكتب له حسنة، لأنه كما قال: ((فإنه تركها من جرائي)) أي خوفاً من الله.

أما إذا همَّ بالسيئة ولكنه تركها ذهولاً أو نسياناً، أو تركها حياء من الناس أو لعدم تمكنه منها أو لم يجد الطريق إليها ففي هذه الحالة لا تكتب له حسنة ولكن لا تكتب عليه أيضاً سيئة؛ لأنها مجرد همّ، أما العزم المصمم فهو بمنزلة الفعل كما قال -عليه الصلاة والسلام-: ((القاتل والمقتول في النار)) فلو أنه ذهب إلى المعصية وفي الطريق إليها وقع فانكسر أو صدم، ومن صور ذلك أن يواعد امرأة في مكان فذهب ولم يجدها فهذا تكتب عليه سيئة؛ لأنه عزم مصمم، ومثله من عزم على أن يسرق مالاً فلما ذهب لم يجده، فهذا تكتب عليه سيئة.

---

[٤] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٨٧) (ج ٤ / ص ٢٠٦٨) وأحمد (٢١٣٩٨) (ج ٥ / ص ١٥٣) واللفظ له.

[٥] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: **{يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ}** [(١٥) سورة الفتح] (٧٠٦٢) (ج ٦ / ص ٢٧٢٤) ومسلم في كتاب الإيمان - باب إذا هم العبد بحسنة كتبت وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٩) (ج ١ / ص ١١٧) واللفظ لمسلم.

[٦] - أخرجه البخاري في كتاب الديات - باب قول الله تعالى: **{وَمَنْ أَحْيَاهَا}** [(٣٢) سورة المائدة] (٦٤٨١) (ج ٦ / ص ٢٥٢٠) ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة - باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما (٢٨٨٨) (ج ٤ / ص٢٢١٣).

وأما من ترك السيئات من غير هم ولا خطرٍ في البال وإنما هو ذاهل عنها مشتغل بما هو بصدده فمثل هـذا لا تكتب له حسنات على تركه ذلك، ولذا لا يقال: إن الناس المشغولين بأعمالهم من البيع والـشراء وغيـره، والنائمين وغيرهم تكتب لهم الحسنات؛ لأنهم لم يذهبوا إلى المراقص والخمارات ونحوها من أماكن الفـساد؛ لأن ترك الذنوب والسيئات على أنواع كما سبق.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أبي مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه- قال: قـال رسـول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام؛ وذلك لأن الله تعالى قال: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام])).

وعن أبي ذر -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((من صام ثلاثة أيـام من كل شهر فقد صام الدهر كله)) رواه الإمام أحمد -وهذا لفظه- والنسائي وابن ماجه والترمـذي وزاد: "فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [(١٦٠) سورة الأنعام] اليوم بعـشرة أيام"، ثم قال: هذا حديث حسن[٧].

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً، وفيما ذكر كفاية إن شاء الله وبه الثقة.

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَـاْ أَوَّلُ الْمُـسْلِمِينَ} [(١٦١-١٦٣) سورة الأنعام].

يقول تعالى آمراً نبيه -صلى الله عليه وسلم- سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهدايـة إلـى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف.

{دِينًا قِيَمًا} أي: قائماً ثابتاً.

قوله تعالى: **{دِينًا قِيَمًا}** -بالتخفيف- هذه قراءة الكوفيين وابن عامر، وعلى قراءة بقية السبعة بالتشديد **(ديناً قيّماً)** والمعنى في القراءتين واحد، بمعنى أنه دين مستقيم لا اعوجاج فيه كما قال: **{هَدَانِي رَبِّي إِلَـى صِـرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}** وكقوله تعالى: **{ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ}** [(٣٠) سورة الروم] يعني الدين المستقيم، وكقوله تعالى: **{وَذَلِكَ دِيـنُ الْقَيِّمَةِ}** [(٥) سورة البينة] فـ "قِيَماً وقيِّماً" بمعنى الدين المستقيم، ثم بيّنه ووضحه بقوله بعدُ: **{مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}** يعني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً مستقيماً ملة أبي إبراهيم -عليـه الـصلاة والسلام-.

{مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} كقوله: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَـن سَـفِهَ نَفْـسَهُ} [(١٣٠) سورة البقرة] وقوله: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ} [(٧٨) سورة الحـج] وقوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ* شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ* وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* ثُمَّ

---

[٧] - أخرجه الترمذي في كتاب الصوم – باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر (٧٦١) (ج ٣ / ص ١٣٤) والنسائي في كتاب الصيام – باب ذكر الاختلاف على أبي عثمان في حديث أبي هريرة في صيام ثلاثة أيام من كـل شـهر (٢٤٠٩) (ج ٤ / ص ٢١٩) وأحمـد (٢١٣٣٩) (ج ٥ / ص١٤٥) وأبو يعلى (٦٦٥٠) (ج ١٢ / ص ٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٣٢٤).

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [(١٢٠-١٢٣) سورة النحل] وليس يلزم من كونه -صلى الله عليه وسلم- أُمر باتِّباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم -عليه السلام- أكمل منه فيها؛ لأنه -عليه السلام- قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال.

هذا جواب على سؤال مقدر هو أن النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا كان له في إبراهيم أسوة وقدوة وهو مأمور باتباع ملة إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- فإن المتبوع أكمل من التابع، فهو يقتدي به ويتأسى به ليحصل الكمال، فهل هذا يعني أن إبراهيم -صلى الله عليه وسلم- أكمل وأفضل من نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام-؟ فالجواب: لا، وقد ذكر أهل العلم هذا الإشكال والجواب عنه، وخلاصة ذلك أشار إليه الحافظ ابن كثير، ويمكن أن يوضح بعبارة أبين من هذا وهو أن يقال: إن اقتداء النبي -صلى الله عليه وسلم- بإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ليكون بذلك محصلاً للكمال الذي حصله فيزيد عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- بما حباه الله به من الفضائل والكمالات فوق ذلك.

وهذه المسألة ذُكرت عند الكلام على الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في التشهد -اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم- حيث إن بعض أهل العلم ذكر الكلام على هذه المسألة هناك.

ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل -عليه السلام-.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- أنه قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أي الأديان أحب إلى الله تعالى؟ قال: ((الحنيفية السمحة))[8].

وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [(١٦٢) سورة الأنعام] يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} [(٢) سورة الكوثر] أي: أخلص له صلاتك وذبحك فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد في قوله: {إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} [(١٦٢) سورة الأنعام] النسك: الذبح في الحج والعمرة.

الحافظ ابن كثير -رحمه الله- مشى هنا على أساس أن النسك بمعنى الذبح، والنسك يطلق على الذبح وهو عبادة من أجلِّ العبادات فيقال للهدي والأضحية: هذه نسيكة، ولهذا عبر بعض السلف عن هذا بالأضحية، وبعضهم قال: ما يذبح في الحج من الهدي، وبعضهم فسره بما هو أعم من هذا فقال: هو الحج، فالحج يقال له نسك، ولهذا يقال: أحكام المناسك، وبعضهم فسره بأعم من ذلك كله فقال: المراد بالنسك العبادة، يقال: فلان ناسك، وفلان يتنسك يعني يتعبد، فكل ذلك يقال له: نسك، فإذا فسر قوله: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي} [(١٦٢) سورة الأنعام] بهذا المعنى العام يكون هذا من باب عطف العام على الخاص، يعني صلاتي وعبادتي،

---

8 - أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٨٧) (ج ١ / ص ١٠٨) وأحمد (٢١٠٧) (ج ١ / ص ٢٣٦) والطبراني في الكبير (١١٥٩٧) (ج ١١ / ص ٢٢٧) وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٦٠).

وإذا فسر ببعض معناه كأن يقال: إن صلاتي وحجي أو إن صلاتي وذبحي لله -سواء كانت الأضحية أو الهدي الذي في الحج- فهذا يكون من عطف المتغايرات، أي عطف الأنواع بعضها على بعض، ومن قال: إن النسك يعني الأضحية أو أنه الهدي فهذا من باب المثال، والذبيحة تشمل ذلك جميعاً، والله تعالى أعلم.

وروى ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله -رضي الله تعالى عنهما- قال: ضحى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))[9].

وقوله: **{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي}** [(١٦٢) سورة الأنعام] قال بعضهم: ومحياي أي: ما أعمله في حال الحياة من ألوان البر والعمل الصالح، ومماتي أي: ما أتسبب في وقوعه بعد الموت كالوصية التي تنفذ بعد موته من صدقة ونحو ذلك.

وبعضهم قال: ومحياي ومماتي أن المراد بذلك الحياة والموت، أي أنه قد وجه وجهه لله رب العالمين وحده، وأفرده بالعبادة فهو لا يتوجه إلى أحد سواه في صلاته وفي ذبحه وعبادته، وحياتُه كلها لله ومماتُه كله لله لا يتوجه إلى أحد سواه، وهذا الذي فسرها به كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، والقول بأن المراد بذلك ما يعمله في الحياة وبعد الموت لا يبعد عن هذا؛ لأنه إذا كانت حياة الإنسان لله أصلاً، فمعنى ذلك أنه مشتغل بطاعته وتوحيده والتقرب إليه والتوجه إليه، لا يشغله عن ذلك انصراف إلى معبود سواه ولا يشغله عن ذلك اشتغال بهوى؛ فالهوى أيضاً سماه الله إلهاً، قال تعالى: **{أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ}** [(٤٣) سورة الفرقان] فتكون حياته لغير الله -عز وجل-، فهو يحيا لشهواته ونزوات نفسه ويكون مضيعاً لأمر الله -تبارك وتعالى- تاركاً له.

وقوله -عز وجل-: {وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [(١٦٣) سورة الأنعام] قال قتادة: أي من هذه الأمة، وهو كما قال؛ فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام.

هذا هو المعنى المتعيّن في قوله: **{وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [(١٦٣) سورة الأنعام] أي هو مسبوق إلى الإسلام، لكن لا بد هنا من تقدير: وأنا أول المسلمين من هذه الأمة، وهكذا يقدر في جميع المواضع في القرآن حتى قول الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- مما ورد على لسانهم مما حكاه الله -عز وجل- عنهم، فالمراد أول المسلمين من أمته وإلا فهم مسبوقون بآدم -صلى الله عليه وسلم- وكان على الإسلام، ولذلك لا حاجة لقول من قال: إن المراد بقوله: **{وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ}** [(١٦٣) سورة الأنعام] أي أن هذه الأمة وإن كانت متأخرة إلا أنها تكون متقدمة على سائر الأمم حيث إنها تحاسب قبلها وتدخل الجنة قبلها، فليس هذا هو المراد، وإنما المراد وأنا أول الداخلين في الإسلام من هذه الأمة، والله أعلم.

وأصله عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} [(٢٥) سورة الأنبياء].

---

9 - أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١) (ج ١ / ص ٥٣٤).

وقد أخبرنا تعالى عن نوح -عليه السلام- أنه قال لقومه: {فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [(٧٢) سورة يونس] وقال تعالى: {وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ* إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [(١٣٠-١٣٢) سورة البقرة] وقال يوسف -عليه السلام-: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [(١٠١) سورة يوسف] وقال موسى -عليه السلام-: {يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ* فَقَالُواْ عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [(٨٤-٨٦) سورة يونس] وقال تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ} الآية [(٤٤) سورة المائدة] وقال تعالى: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [(١١١) سورة المائدة] فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نُسخت بشريعة محمد -صلى الله عليه وسلم- التي لا تُنسخ أبد الآبدين ولا تزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال -عليه السلام-: ((نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد))[١٠] فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى، فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات، كما أن إخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم الواحدة من آباء شتى، والإخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد عن علي -رضي الله تعالى عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا كبّر استفتح ثم قال: ((وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك))، ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد، وقد رواه مسلم في صحيحه[١١].

هذا الاستفتاح كان يقوله -صلى الله عليه وسلم- في صلاة الليل، وذكرنا في شرح العمدة أن ما ورد مقيداً من الأذكار في صلاة الليل من أدعية الاستفتاح وأدعية الركوع والسجود فإنه يقال في صلاة الليل، ومن ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- في دعاء استفتاح الصلاة: ((الله أكبر -ثلاثاً- ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة))[١٢] فإنه يقال في صلاة الليل.

---

[10] - أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء - باب قوله تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا} [(١٦) سورة مريم] (٣٢٥٩) (ج ٣ / ص ١٢٧٠) ومسلم في كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى -عليه السلام- (٢٣٦٥) (ج ٤ / ص ١٨٣٧).

[11] - هو في مسلم مختصر -كما سبق- وأخرجه بتمامه أبو داود في كتاب الصلاة - باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء (٧٦٠) (ج ١ / ص ٢٧٧).

[12] - أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة - باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٤) (ج ١ / ص ٣٢٥) والنسائي في كتاب صفة الصلاة - باب الدعاء بين السجدتين (١١٤٥) (ج ٢ / ص ٢٣١) وصححه الألباني في المشكاة برقم (١٢٠٠).

{قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [(١٦٤) سورة الأنعام].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه {أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا} [(١٦٤) سورة الأنعام] أي: أطلب رباً سواه {وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ} [(١٦٤) سورة الأنعام] يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري، أي: لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه؛ لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيراً في القرآن كقوله تعالى مرشداً لعباده أن يقولوا له: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [(٥) سورة الفاتحة] وقوله: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} [(١٢٣) سورة هود] وقوله: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا} [(٢٩) سورة الملك] وقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا} [(٩) سورة المزمل] وأشباه ذلك من الآيات.

وقوله تعالى: {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ} [(١٦٤) سورة الأنعام] إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وأنه لا يحمل من خطيئة أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: {وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [(١٨) سورة فاطر] وقوله تعالى: {فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [(١١٢) سورة طه] قال علماء التفسير: أي: فلا يُظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ* إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٨-٣٩) سورة المدثر] معناه كل نفس مرتهنة بعملها السيئ {إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ} [(٣٩) سورة المدثر] فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقرابتهم كما قال في سورة الطور: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ} [(٢١) سورة الطور] أي: ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة وإن لم يكونوا قد شاركوهم في الأعمال بل في أصل الإيمان.

{وَمَا أَلَتْنَاهُم} أي: أنقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئاً حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنته، ثم قال: {كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [(٢١) سورة الطور] أي: من شر.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [(١٦٤) سورة الأنعام] لا ينافي قوله -تبارك وتعالى-: {وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ} [(١٣) سورة العنكبوت] وما ورد من مضاعفة العذاب للأئمة المضلين فإن ذلك مما تسبب عن عملهم ونتج عنه، فإنهم يحملون أوزار من أضلوهم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها[١٣] ولذلك فإن قوله: {وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} أي: أن الإنسان لا يتحمل جريرة عمل غيره، وإنما يتحمل عمله فقط، فإن تسبب في إضلال أحد من الناس فإن ذلك من عمله ويجازى عليه ويضاعف له بذلك الأوزار والعذاب، فمن ابتدع بدعة اتبع عليها فإنه يحمل أوزار من عمل بذلك العمل ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً، فالآيات

[13] – أخرجه مسلم في كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار (١٠١٧) (ج ٢ / ص ٧٠٤).

متوافقة، فهذه الآية تدل فقط على أن الإنسان لا يُظلم ولا يُؤخذ وزر إنسان آخر ويوضع عليه، كما قال تعالى: **{وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ}** [(١٣) سورة الإسراء] يعني عمله في عنقه، فيجازى على أعماله فقط ولا يجازى على أعمال الآخرين، إلا إن كان متسبباً.

وقوله: {ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} [(١٦٤) سورة الأنعام] أي: اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا كقوله: {قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ* قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ} [(٢٥-٢٦) سورة سبأ].

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام].

يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ} أي: جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف -قاله ابن زيد وغيره- كقوله تعالى: {وَلَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ} [(٦٠) سورة الزخرف] وكقوله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ} [(٦٢) سورة النمل] وقوله: {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [(٣٠) سورة البقرة] وقوله: {عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [(١٢٩) سورة الأعراف].

وقوله: {وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [(١٦٥) سورة الأنعام] أي: فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان وله الحكمة في ذلك.

قوله: **{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ}** يقول ابن كثير: "**جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن وخلفاً بعد سلف**" وخلائف الأرض أي يخلف بعضكم بعضاً.

وابن جرير -رحمه الله- قال: أي أن الله جعلكم خالفين للأمم التي أهلكها قبلكم، يعني استخلفكم بعدهم، وهذا المعنى لا يخرج عن المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحم الله الجميع-.

وفي قوله -تبارك وتعالى-: **{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}** [(٣٠) سورة البقرة] يقول بعضهم: خليفة من الجن الذين كانوا في الأرض قبل بني آدم وأنهم أفسدوا فيها ثم قاتلتهم الملائكة فجعل الآدميين خلائف من الجن -وهذا كله مبني على الإسرائيليات- وبعضهم يقول: يعني أنه يخلف بعضهم بعضاً، وعلى كل حال ليس المراد بأي آية من هذه الآيات أن الإنسان خليفة الله في الأرض -كما قال بعضهم- فالله أعظم وأجل من ذلك، فهذا المعنى وإن قال به بعض أهل العلم إلا أنه خلاف التحقيق فلا يصح أن يقال إطلاقاً.

كقوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا} [(٣٢) سورة الزخرف] وقوله: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً} [(٢١) سورة الإسراء].

قوله: **{وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ}** [(١٦٥) سورة الأنعام] يعني في العقول والقوة والعلم والغنى والشرف والمرتبة.

وقوله: {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] هذه هي الحكمة من هذا التفاوت، فحساب الذكي ليس كحساب الغبي، وحساب الغني ليس كحساب الفقير، وحساب القوي ليس كحساب الضعيف، فالناس يتفاوتون بحسب ما أعطاهم الله -عز وجل- من القُدر والإمكانات.

وفي بعض المواضع بيّن الله -عز وجل- أن هذا التفاوت من أجل أن يتخذ بعضهم بعضاً سخرياً، ليُسخَّر بعضهم لبعض؛ لأنهم لو كانوا صبة واحدة لا تفاوت بينهم في العقول والإمكانات والغنى وما أشبه ذلك لما وجدت أحداً يعمل لأحد، ولاستغنى الناس بعضهم عن بعض، بمعنى أنك لن تجد من يقُمُّ الطريق، وما وجدت من يبني، ولا من يحمل المتاع ولا من يصلح السيارة، ولا من يزاول المهن أو الخدمة ولا غير ذلك، لكن لما كان هذا يحتاج إلى المال وهذا عنده مهنة يكتسب بها، وهذا فقير وهذا غني صار بعضهم يحتاج إلى بعض، فهذا ميزه الله -عز وجل- بالعلم في هذا الجانب فيحتاج الناس إليه، وهو يحتاج إليهم في علم آخر أو يحتاج إلى من لهم مهن يزاولونها، وهكذا يكمل الناس بعضهم بعضاً وتقوم الحياة بهذه الطريقة.

قوله تعالى: {لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ} [(١٦٥) سورة الأنعام] أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء))[١٤].

وقوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [(١٦٥) سورة الأنعام] ترهيب وترغيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله، {وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} لمن والاه واتبع رسله فيما جاءوا به من خبر وطلب، وكثيراً ما يقرن الله تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [(٦) سورة الرعد].

وقوله: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ* وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ} [(٤٩-٥٠) سورة الحجر] إلى غير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب، فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهما ليَنْجَع في كلٍّ بحسبه.

جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء جواد كريم وهاب.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- مرفوعاً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من

[١٤] - أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء (٢٧٤٢) (ج ٤ / ص ٢٠٩٨).

الرحمة ما قنط أحد من الجنة، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها وعند الله تسعة وتسعون)) ورواه الترمذي وقال: حديث حسن، ورواه مسلم[١٥].

وعنه أيضاً -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي))[١٦].

آخر تفسير سورة الأنعام، ولله الحمد والمنة..

---

[15] - أخرجه مسلم في كتاب التوبة – باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه (٢٧٥٥) (ج ٤ / ص ٢١٠٩).

[16] - أخرجه البخاري في كتاب التوحيد – باب قول الله تعالى {وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ} [(٢٨) سورة آل عمران] (٦٩٦٩) (ج ٦ / ص ٢٦٩٤).